المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب والبلاغة والنقد
شعبة الأدب

القيم الإسلامية في شعر أبي نواس

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب والنقد

إعداد الطالبة:

حنان بنت سعود الشمري

الرقم الجامعي: (٤٣١٨٠٢٦٥)

إشراف:

أ.د/ محمد بن عبدالسلام القاسمي

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلهي منك وإليك ..



ملخص الرسالة

عنوان الرسالة: القيم الإسلامية في شعر أبي نواس.

الدرجة العلمية: ماجستير.

يعالج هذا البحث موضوع القيم الإسلامية في شعر أبي نواس، وقد بدأ البحث في فصله الأول في مبحثه الأول بالحديث عن الحياة السياسية، والاجتماعية في العصر العباسي الذي عاش فيه الشاعر، ثم انتهى هذا المبحث بالحديث عن مجون أبي نواس. ثم شرع المبحث الثاني بالحديث عن الحياة الثقافية والدينية في عصر الشاعر، ثم تحدث بعد ذلك عن عقيدة أبي نواس، وحقيقة زهده. ثم جاء الفصل الثاني على خمسة مباحث تكلم فيها عن القيم الإسلامية لدى الشاعر بين النظرية والتطبيق، ثم تناول القيم الإسلامية في أغراض المدح، والرثاء، والزهد، والعتاب. وانتهى البحث بفصل ثالث تناول أربعة مباحث تتكلم عن الخصائص الفنية لشعر أبي نواس من حيث الصورة الفنية، والموسيقى، والمعجم الشعري، واللغة الشعرية.

موضوع الرسالة: تناولت هذه الرسالة القيم الإسلامية في شعر أبي نواس من خلال متن شعري جمعته من ديوان الشاعر، ورتبته على حسب الأغراض التي ورد فيها. ثم بينت القيم الإسلامية في هذه الأشعار، وتناولتها بالشرح والتحليل. وقد قدمت لهذه الدراسة فصلا درست فيه الجوانب التي أثرت على حياة الشاعر، وبالتالي مجونه، ثم تطرقت بعد ذلك إلى عقيدة الشاعر، وحقيقة زهده. ثم أنهيت هذه الدراسة بفصل تناول الخصائص الفنية للشعر الذي درسته في الفصل الثاني، وبينت فيه معجم الشاعر، ولغته الشعرية، وصوره، وموسيقاه.

منهج الرسالة: اعتمدت في إعداد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، بعد أن حصرت الأبيات التي وردت فيها القيم الإسلامية، ثم قمت بتحليلها، ونقدها نقدا ذاتيا قائما على الذوق والانطباع. كما استعنت بالمنهج: التاريخي، والاجتماعي، والنفسي في دراسة حياة الشاعر، وطبيعة شخصيته. وكذلك اعتمدت على المنهج الفني في دراسة الخصائص الفنية في شعره. لذا فهذه الرسالة اعتمدت على مناهج عدة، وذلك لطبيعة الموضوع التي اقتضت ذلك.

من نتائج الرسالة:

لقد خلصت من خلال هذه الدراسة إلى نتائج عدة، منها على سبيل المثال:

أن الشاعر حظي بالدراسة من قبل نقاد كثر، وتفاوتت الدراسات في مناهجها ونتائجها وأن القيم الإسلامية في شعره تفاوتت بين الكثرة والقلة حكم ذلك عوامل عدة منها: حاجة الشاعر لاستحضار بعض تلك القيم، وكذلك طبيعة عصره وعمره. كما برزت بعض الخصائص الفنية المشتركة في غرض الزهد لديه. وكذلك كانت أكثر القيم في شعره صدى لتلك المثل التي حاول الشاعر الالتزام بها، وعجز عن ذلك.

الباحثة:	**المشرف:**
حنان سعود الشمري	**أ.د. محمد القاسمي**

Thesis abstract

Thesis title : the Islamic values in Abi Nawas poetry

Degree : Master's degree

The thesis in hand deals with the Islamic values in Abi Nawas poetry . The thesis in the first chapter in its first study begins with the political and social life in the Abbasid Era when the poet lived . This study ended with tackling his wine poems and his extravagance life . Then we turn , in the second study, about a biographical account of Abu Nuwas cultural and religious life in his contemporary age , and the faith of Abi Nawas and the reality of his purity In the second chapter , we deal with five studies talking about the Islamic values of Abu Nuwas the poet in form and content . Then the thesis deals with the Islamic values in the praise, elegiac , Puritanical and blaming . The research ends with the artistic qualities of the poetry of Abu Nuwas in terms of the figures of speech , music , poetical dictionary and poetical language.

Thesis topic : this thesis deals with the Islamic values in the poetry of Abu Nuwas through a poetic text that I assembled from the poet collection and I categorized it according to the type of poem , then I pointed out the Islamic values in these poems , then I explained and analyzed it . In this research , I introduced some aspects that affected the poet's life and his libidinous poems , then I turned to the faith of the poet and the reality of his purity . Then , I ended this study by a chapter tackling the artistic features of his poetry mentioned in chapter two where I pointed out the poet's dictionary , his poetic diction , his artistic figures and music .

The approach of the thesis : I adopted the analytical and descriptive approach as I selected the verses discussing the Islamic values , Then I criticized it in terms of my implication . I also adopted the historical . social and psychological approach in the study of the poet's life . I also depended on the artistic approach to study the artistic features of poetry . So, This thesis adopted a variety of approaches that match the nature of the study .

The main results of the study are as follows :

The poet is studied by many critics through a variety of studies of different approaches and results . The Islamic values in his poetry so many and they are influenced by some factors such as the need of the poet to show some of these values , the nature of his age and era . I also pointed out some of the artistic features of purity . Most of his poetry is characterized by his puritanical attitude to which he stuck even though he was unable to do .

Researcher : HANAN SAUD ALSHUMMARI
Supervisor : Prof. Dr. MUHAMMAD ALQASMI

المقدمـــــة

المقدمـــــة

تناول النقاد أبا نواس قديما وحديثا، فجمهرة كبيرة من مؤرخين، وأدباء، ونقاد، تعرضوا لهذا الشاعر، فمنهم من ألف فيه كتابا أو اثنين، وبعضهم تناوله أثناء دراسة عامة، كما كتب عنه البعض مقالات في مجلات ودوريات علمية. وقد حاولت جهدي الاطلاع على كل ما كُتب عن أبي نواس، وفوجئت بكثرتها، ولعل هذا الأمر صعب عليّ موضوع البحث على الرغم من أن كثرة المراجع توحي أحيانا للباحث بسهولة البحث وتيسره، والحقيقة أنه سهل علي الحصول على بعض المعلومات التي تختص بزمن الشاعر، وحياته، وشعره إلا أنه جعلني أتساءل ماذا أريد أن أضيف بعد هؤلاء الأعلام؟

وهل دراستي له ستكون امتدادا لدراساتهم أم إضافة جديدة ؟ كما أن تباين آراء هؤلاء النقاد واختلاف الدراسات والمناهج التي تناولته، وتناولت فنه صعّب هذه المهمة علي، فكثرة الدراسات تثير من حول الباحث زحاما من الآراء يستلزم عليه أن ينفذ من خلاله إلى رأيه الشخصي.

وبعد البحث والقراءة فيما كتب هؤلاء استخرت الله، وقررت نزول حلبة السباق مع هذا الشاعر الذي أغرى الكثير لدراسته، فقد فرضت شخصية هذا الشاعر، وفحولته الفنية واللغوية أن تجعل منه مادة للبحث، والاكتشاف، والتأليف، كما أن دراسته تعد اهتماما بدراسة الشعر ذاته، فأبو نواس ظاهرة فنية تستحق وقفة خاصة.

والحقيقة أني وجدت أن هذه الدراسات اختلفت في مناهجها النقدية عند تناولها لهذا الشاعر فكل ناقد تناوله من رؤية نقدية مغايرة، كما ركزت بعض الدراسات على جوانب من شعره وأهملت الأخرى لاعتبارات كثيرة. لذا فكل ناقد أطل على أبي نواس من الزاوية التي يجيد النظر منها، فبعضهم درس لغته أو موسيقاه أو صوره أو أفكاره، كما درس بعضهم الجانب النفسي أو الاجتماعي له، ولعل أشهر الدراسات التي تناولته دراسة طه حسين في "حديث الأربعاء" والعقاد في دراسته لأبي نواس، "وألحان الحان" و"أبو نواس حياته وشعره" لعبد الرحمن صدقي، ودراسة عمر فروخ "أبو نواس"

ودراسة النويهي "نفسية أبي نواس" وعلي شلق في "أبي نواس بين التخطي والالتزام" والعربي درويش في "أبو نواس وقضية الحداثة في شعره".

ولإيماني بأن المحاولات الجيدة لإضافة رؤية جديدة تشفع لأصحابها قررت خوض غمار هذه التجربة فلكل رؤية انطباعاتها وثمارها.

وقد دعاني لتناول هذا الموضوع جدة الحديث عن القيم الإسلامية في شعر شاعر ما فقد جرت العادة أن تدرس إسلاميات الشاعر، أو زهدياته، سواءً كان ينتمي إلى هذا التيار أو لاينتمي. لكن بعد بحث مضنٍ عن الكتب التي استنطقت القيم الإسلامية في شعر الشعراء سواءً المحدثين أو القدماء لم أجد أي كتاب يتحدث عن ذلك، فضلاً عن شاعر كأبي نواس اشتهر بمجونه وخمرياته وغزله، لذا فقد رأيت أن أدرس شعر هذا الشاعر من زاوية مختلفة، واستنطق من أبياته القيم الإسلامية المختزلة، وأتحدث عن هذه القيم من خلال الشعر لأهمية هذا الحديث من جهة، لاسيما في عصرنا هذا، والذي بحاجة كبيرة لاستنهاض الهمم في الرجوع للقيم الإسلامية الأصيلة التي شرعها الإسلام بكتابه الكريم، وسنته المطهرة، ودعا المجتمع للامتثال بها. أيضا لصدور هذه القيم من مثل هذا الشاعر يجعلنا نتحدث عن وجه آخر له يختلف عما عُهد عنه،كما يجعلنا نتكلم عن صورة الإنسان في داخله هذا الإنسان العابث المتناقض. كما أن تناولنا للقيم من خلال شعر ذي فنية عالية، كشعر أبي نواس يجعل من الحديث عن هذه القيم حديثاً ممتعاً متناغماً معنى ومبنى.

ومع ذلك فهذه الدراسة لا تزعم أنها قدمت جديداً، أو اكتشفت حقيقة غائبة عن الناس، إنما هي تحاول أن تعلّم، وتتعلم، وتطرح ما تراه عند هذا الشاعر.

ومما تقدم كان لابد من التنوع في مناهج البحث، وهذا ما اقتضته فصول هذه الدراسة، فقد التزمت المنهج التاريخي، والاجتماعي، والنفسي في دراسة الجوانب المتعلقة بحياته وشخصيته، كما التزمت المنهج الوصفي التحليلي في دراستي وتحليلي للأبيات التي احتوت على القيم الإسلامية. واعتمدت على المنهج الفني في دراسة الخصائص الفنية في شعره، والتي درست فيها الصورة الفنية، والمعجم الشعري، والموسيقى، واللغة

الشعرية، كما حاولت الخضوع للمنهج العلمي في استقراء المصادر، والنتائج، والأحكام مع التزام الموضوعية في الدراسة.

لذا فقد حاولت جاهدة أن أقدم هذه الدراسة من خلال منهج متكامل اقتضته في الحقيقة الدراسة ذاتها.

والحقيقة أن فقر المراجع في منطقتي التي أسكنها والخالية من أي مكتبة علمية من جهة، وندرة الكتب التي تتحدث عن القيم الإسلامية لدى الشعراء جعلت من منهجيتي في التناول والطرح في هذه الدراسة اجتهاداً متواضعاً مني، ونتيجة لبنات أفكاري ؛ ولذلك قد يعتري هذه الدراسة بعض القصور، أو الخطأ، والنقص ؛ لذا أعتذر عن ذلك مسبقا وحسبي أني طالبة علم مجتهدة قد تصيب، وقد تخطيء.

ولقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وثلاثة فصول رئيسة يتخللها أحد عشر مبحثا وخاتمة: تناول الفصل الأول من خلال مبحثه الأول حياة أبي نواس من خلال عرض موجز لعصره، حاولت فيه الدراسة توضيح أثر هذا العصر في تشكيل شخصية الشاعر، والتأثير على اتجاهاته من خلال دراسة الحياة السياسية في العصر العباسي الأول، وما سبقه من أحداث والحياة الاجتماعية التي سادت في ذلك الوقت، والتي نشرت معها مجموعة من العادات والأعراف التي أغرت الشاعر وأثرت في سلوكياته، كما تناولت الدراسة مجون أبي نواس وذكرت آراء القدماء والمحدثين فيه وحاولت جاهدة التوفيق بين هذه الآراء، واستخلاص نتيجة تعتمد على الاستقراء والتحليل لما سبق وعرضته الدراسة في هذا المبحث.

أما المبحث الثاني فقد تناول الحياة الثقافية التي سادت في ذلك العصر، وأشرت من خلاله إلى مكانة الشاعر الثقافية مستدلة بأقوال علماء عصره، ومن جاء بعدهم في ذكر منزلته العلمية واللغوية، كما درس المبحث الحياة الدينية، وأشرت فيه على أشهر علماء هذا العصر، ومدى تأثير تلك الحياة على الشاعر، كما أشرت إلى حصيلته الدينية من العلوم من خلال ما روي عنه من أخبار ذكرها معاصروه، ثم خلصت الدراسة إلى تأثير كل ذلك في حياة الشاعر وشعره. ثم تناولت بعد ذلك موضوعا مهما هو عقيدة هذا

الشاعر وحقيقة زندقته، وذكرت الأدلة التي تنفي تلك الحقيقة، وتثبت حقائق أخرى من خلال مجموعة من الأقوال التي حاولت الدراسة التنويع في ذكرها بين مؤيد ومعارض لحقيقة زندقته، وطبيعة مجونه، ثم انتهى المبحث بنتيجة توضح ما استأنست له من آراء وحقائق مع محاولة التزام الموضوعية في طرح الأحكام واستنتاج الآراء.

أما الفصل الثاني فقد تناول في بداية الحديث عن القيم لدى أبي نواس بين النظرية والتطبيق، وكان هذا الحديث في البداية لتوضيح بعض الحقائق المتعلقة ببعض القيم التي طرحها أبو نواس في شعره، ومدى توظيفه لتلك القيم في حياته، ومدى تأثيرها عليه، وهي تجيب عن تساؤلات عدة في شخص أبي نواس، وحقيقة تناقضاته. ثم تناولت الدراسة القيم الإسلامية في أغراض: المدح، والرثاء، والزهد، والعتاب من خلال دراسة تطبيقية على مجموعة كبيرة من أشعاره التي احتوت تلك القيم، كما درست تلك القيم من جانبها النظري من خلال مقدمات قصيرة تحدثت فيها عن تلك القيمة وفاعليتها، ثم تناولت الأشعار وشرحتها تبعا لذلك. ولعل أصعب ما واجه هذه الدراسة هو التوفيق بين القائل والمقال، لكن الحديث عن القيم بين النظرية والتطبيق لدى الشاعر في بداية الفصل أعان على فهم ذلك والمقاربة بين القيمة وقائلها، وبين القيمة والدعوة إليها في المجتمع. وانتهى الفصل بنتيجة رصدت فيها أسباب كثرة بعض تلك القيم، وقلة البعض الآخر.

أما الفصل الثالث فقد كان عبارة عن دراسة فنية تناولت الشعر الذي درس في الفصل الثاني من خلال أربعة مباحث. درست فيه الصورة الفنية، والمعجم الشعري، والبناء اللغوي، والموسيقى، وقد تناول هذا الفصل تلك الجوانب بدراستها نظريا، ثم التطبيق على مجموعة من الأشعار التي وردت فيها الشواهد الفنية. ثم انتهت الدراسة إلى خاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

الفصل الأول

أبو نواس بين مجونه ونسكه

وفيه مبحثـــان:

- **المبحـــث الأول: تـــأثير الحيـــاة الـــسياسية والاجتماعية على حياته وشعره**
- **المبحث الثـاني: تـأثير الحيـاة الثقافيـة والدينيـة على حياة الشاعر وشعره**

المبحث الأول

تأثير الحياة السياسية والاجتماعية
على حياته وشعره

تأثير الحياة السياسية والاجتماعية في العصر العباسي الأول على حياة الشاعر وشعره

❁ مقدمـــــــة :

لن نُطيل في وصف الحياة السياسية والاجتماعية، فقد وصفها الكثيرون وكتبوا عنها مؤلفات عديدة، وصفت هذا العصر بكل أحواله وصفا مسهباً. هنا سنمر بهما على عجالة لأنهما في الأصل مقدمة للحديث عن مجون أبي نواس، وهذا الحديث مهم لأننا سنتحدث بعد ذلك عن تنسكه وزهده في بعض أشعاره، لئلا يصاب القارئ بالتناقض بين ما يسمعه عن الشاعر وبين ما يقرأه في الفصل الثاني من هذا البحث، وأيضًا لتكتمل الصورة فلا نجعل الشاعر ماجناً من غير زهد ولا ناسكاً من غير مجون، فنعرض كلا الجانبين، ونركز على الجانب الذي نريده في بحثنا وهو استخراج القيم الإسلامية في شعره، وبيان أثر الإسلام فيه، بدون تبرير للجانب الآخر أو غض الطرف عنه.

❁ الحياة السياسية :

غالباً ما نقرأ أنّ الشاعر مرآة عصره، وفي الحقيقة قد يجوز العكس أيضاً، فالشاعر يحكي عصره، والعصر يحكي شاعره. وهذا ما سنكتشفه أثناء قراءتنا لعصر الشاعر وما سبقه من عصر قريب، وما سنقرأه من حياة الشاعر في هذا العصر وتأثيره عليه بوجه وبآخر. وهذه سنن كونيه في الأرض، فالناس تصنع الأحداث والأحداث تصنع الناس وهكذا.

لذلك كان من المنصف – ولزاماً علينا – هذا المرور السريع لعصر الشاعر وتناول الحياة التي خلقها هذا العصر من جميع الأوجه السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية، ثم بعد ذلك نتحدث عن أبي نواس وعن تناقضاته من خلال مجونه ونسكه وخمرياته

وزهدياته. فتتضح الصورة ويُزال الغبش عن عين المتلقي، فيقرأ ما سنكتب قادماً وهو مقتنع بما يقرأه، وإن خالف ما قرأ وسمع سابقاً لاسيما وهذا الشاعر مليء بالحكايات والأخبار والتناقضات.

من المهم في البداية أن نعرف الحقبة الزمنية التي عاشها الشاعر وهو العصر العباسي، هذا العصر الذي قسمه المؤرخون إلى أربعة أقسام[1]، والعصر العباسي الأول هو محل دراستنا ومعقد حديثنا والذي اتفق أغلب الباحثين على تحديده بتلك الحقبة الزمنية.

وإن كان لا ينبغي أن نقسم الأدب تبعاً لهذه الحقب الزمنية فتلك التقسيمات لا تعدو كونها سياسية وإلاّ فالأدب مرتبط بعضه ببعض، يمتد امتداداً طبيعياً من عصر لآخر لا تحكمه قوة دولة أو ضعفها أو ازدهارها أو خمولها، ولذلك فإنه يخطئ من يقول إن هناك حدوداً فاصلة بين الدولتين الأموية والعباسية، وخاصة من الناحية الاجتماعية والعقلية[2].

ولنبدأ بالحياة السياسية قبيل العصر العباسي الأول تلك التي تزامنت ونهاية الخلافة الأموية وما شهدته تلك الحياة من أحداث، لعل أبرزها سقوط الخلافة الأموية وما زامن ذلك من ثورات وخطط ومكائد أوقعت بالدولة الأموية، وأحلّت الدولة العباسية محلها، وكذلك الصراع بين العباسيين والعلويين على الحكم والخلافة.

---

(١) العصر العباسي الأول: ويقع بين سنتي (١٣٢-٢٣٢هـ) (٧٤٩-٨٤٦م).
والعصر العباسي الثاني: وينحصر ما بين سنتي (٢٣٢- ٣٣٥هـ) (٨٤٦-٩٤٦م).
والعصر العباسي الثالث: وينحصر ما بين سنتي (٣٣٥-٤٤٧هـ) (٩٤٦-١٠٥٥م).
العصر العباسي الرابع: وتنحصر فترته ما بين سنتي (٤٤٧-٦٥٦هـ) (١٠٥٥-١٢٥٩م). انظر: الطعمة، سلمان هادي. (١٩٨٧م). أعلام الشعراء العباسيين. ط١، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ص٦و٧..

(٢) انظر: أمين، أحمد. (د. ت). ضحى الإسلام، ط٢، القاهرة: مكتبة النهضة، ج١/ ص١٠.

ومن المعلوم أن العرب قد فتحوا في نهاية الخلافة الأموية الكثير من الدول كالهند والصين حتى جبال بيرانس شرقاً، وقد كانت الدولة الأموية دولة عربية خالصة تعصبت للعرب وللغتهم وآدابهم وجعلت قاعدتها دمشق، وكانت تتخذ أغلب جنودها وقوادها وكتابها وسائر عمالها من العرب[١].

ولكن لم يدم ذلك للأمويين، وبدأت تنهال عليهم الثورات من كل حدب وصوب. وقد اختلفت مآرب أصحاب هذه الثورات فمنهم من أراد بها إصلاح الأوضاع الاجتماعية، ومنهم من أراد الفتك بالأمويين ومحو سلطانهم، ومن هؤلاء ابن الأشعث ويزيد بن المهلب. وقد استطاع الأمويون الفتك بأعدائهم متكبدين خسائر مالية وجسدية كبيرة. إلا أن عاصفة الثورات لم تهدأ لاسيما ثورات الخوارج والشيعة، تلك الثورات التي كانت تنطلق من مبادئ رسخت في قلوب قوادها وجندها بعدم أهلية الخلافة الأموية لقيادة الأمة لأسباب كثير في نظرهم. فكانوا يجاهدون بعقيدة راسخة دون دراء أو مراء لأحد كان[٢].

"فعقب مقتل الحسين-رضي الله عنه- تحركت الشيعة بالكوفة، وكانت هذه المدينة مثابة للمتطرفين المعاندين لبني أمية، المغالين في التشيع لبني علي، كما كان يوجد فيها عدد كبير من الفرس المبغضين للحكم الأموي"[٣].

ومن ثورات الشيعة: ثورة المختار الثقفي في الكوفة، وقد قضى عليها مصعب بن الزبير حينما كان واليا لأخيه على العراق، وقد انضم إلى هذه الثورات فئات من الموالي التي كانت ترى أن الأمويين هم مضطهدوهم وظالموهم، ولذلك توجهوا بكراهيتهم

---

(١) ضيف، شوقي. (٢٠٠٩م). تاريخ الأدب العربي، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ص١٥٣، ١٥٤.

(٢) انظر: ضيف، شوقي، المرجع السابق، ص٩ ومابعدها.

(٣) هدارة، مصطفى. (١٩٨٨م). اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني عشر، بيروت: دار العلوم العربية، ص٣٦.

نحوهم وحاولوا - منذ وقت مبكر - الاشتراك في الثورات والفتن المسلحة التي قامت في وجه الأمويين، وقد استغل المختار مشاعر الموالي استغلالا بارعًا، ووعدهم بالمساواة التامة بينهم وبين العرب في كل شيء، وكأنما انتعشت آمال الموالي بعد اشتراكهم القوي في ثورة المختار وأحسوا بكيانهم وشخصيتهم ومدى ما يستطيعون القيام به ضد هؤلاء العرب الحاكمين الذين ينظرون إليهم نظرة مهينة محتقرة، فعملوا على أن لا تدعهم فتنة أو ثورة دون أن يشتركوا فيها اشتراكًا قويًا عسى أن تنجح إحدى هذه الفتن والثورات فيقضي على الأمويين ويتم للموالي انتصارهم على أعدائهم المتعالين. لهذا نجدهم يشتركون في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج، ثم يخوضون الحرب ضد يزيد بن المهلب(١). ثم نجد بعد ذلك أن العباسيين قد انتبهوا لهذا الحصار على الخلافة ورأوا أحقيتهم به ورسموا لذلك الخطط والتدابير، حتى يجمعوا من حولهم معهم ومضوا في إثارة الناس ضد بني أمية، واستغلوا ما اشتهر به يزيد من معاقرة للخمر ومجالسة الفساق والمغنين. وقد كان العباسيون أثناء ذلك قد جمعوا لهم جمعاً من الموالي الغاضبين والثائرين على خلفاء بني أمية لاسيما في خراسان ومواطن أخرى، هؤلاء الذين يرون في بني أمية حكومة اضطهدتهم واحتقرتهم ورفعت شأن العرب عليهم. وقد تولى قيادة تلك الموالي من خراسان أبو مسلم الخرساني، وقد أفاد منه العباسيون في الإطاحة بالكثير من القرى والمدن هناك.

في أثناء ذلك استلم القيادة أبو العباس السفّاح بعد مقتل إبراهيم بن محمد الإمام، قائدهم، على يد مروان بن محمد الذي قبض عليه قبل ذلك بفترة لمعرفته أمر تدبير هذه الثورات. أثناء كل ذلك كانت دعوة بني العباس للإطاحة بالحكم الأموي سريّة ولم يفصحوا عن نواياهم بامتلاك الخلافة الإسلامية بل كانوا يدعون للحكم أبناء البيت النبوي، خشية من إثارة العلويين عليهم. وبعد فترة نادى السفّاح لنفسه بالخلافة في المسجد الجامع بالكوفة وبايعه الناس على ذلك وإن كان العلويون غير راضين عن تلك

---

(١) انظر: هدارة، محمد مصطفى، السابق، ص٣٥ و٣٧ و٣٩.

البيعة وثار جمع منهم بعد ذلك[١].

ومن الخلافات التي نشبت بين العباسيين أنفسهم: ثورة عبد الله عم المنصور عليه سنة ١٣٦هـ، وقد قضى أبو مسلم الخراساني على هذه الثورة فانتهت. وكذاك فتنة الأمين والمأمون التي انتهت بمقتل الأول وفوز الثاني بالخلافة.

هذا وقد عظمت الخلافة العباسية في هذا العصر وعلت علوًا كبيرًا، وكان لها من أسباب الاستقرار ما هيأ لها ازدهاراً وتطوراً في عهد خلفائها: المنصور والذي أرسى قواعد الدولة، وامتد نفوذها في كل مكان على يد المهدي، وتألقت حضارتها وعظمت هبتها في زمن الرشيد والمأمون، وتوالت انتصاراتها العسكرية في زمن المعتصم الذي غرد ببطولاته الشعراء، وهكذا ظلت في قوة وازدهار في عصر الواثق والمتوكل[٢].

وقد تأثرت النظم السياسية والإدارية بالنظم الساسانية لاسيما وهم من أعانهم على إرساء قواعد الدولة فنقلوا إليهم أيضاً نظم بلادهم وطرائقها في الحكم والإدارة والسياسة والتي ارتضتها الدولة العباسية وطبقتها في جميع شؤون الخلافة.

ولمصطفى هدارة رأي في هذا الشأن فيقول: "إن أغلبية الدارسين قد توهموا تطامن الخلافة العباسية منذ نشأتها للنفوذ الفارسي، وتخلى عن عروبتها، بسبب ما لاحظوه من أخذ العباسيين بنظم الفرس وحضارتهم، وبسبب قيام الدولة على أكتافهم وسواعدهم ولكن الحقيقة التاريخية تغاير ذلك فالخلفاء العباسيون الأولون لم يتخلوا قط عن عصبيتهم للعروبة، وإن كانت بحكم التطور الاجتماعي والسياسي الذي حدث في هذا العصر قد خفت حدتها كثيرا عن ذي قبل. ومما يؤكد بقاء آثار للعصبية العربية في نفوس الخلفاء العباسيين الأولين ما رواه الطبري من أن المنصور سأل خادمًا له في يوم من الأيام: ما جنسك؟ قال: عربي يا أمير المؤمنين. قال ومن أي العرب أنت؟ قال: من

----

(١) انظر: ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، ج٣/ ص ٩-١٥.

(٢) انظر: خفاجي، محمد عبدالمنعم. (د. ت). تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، ص٣، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث.

خولان، سبيت من اليمن فأخذني عدو لنا فجبَّني فاسترققت، قال: أما إنك نعم الغلام ولكن لا يدخل قصري عربي يخدم حرمي، اخرج عافاك الله.

بيد أن هذه العصبية العربية أخذت تتضاءل وتنكمش شيئا فشيئا أمام طغيان الأعاجم وتكاثرهم، وبسبب ظهور طبقة مولدة جديدة كانت حائرة في عصبيتها إلى هؤلاء وهؤلاء. وكان هناك صراع خفي دائم بين النفوذين العربي والأعجمي طوال حكم العباسيين"[1].

ولد أبو نواس في هذا العصر ولابد أن تؤثر على حياته تلك الأحداث بشكل أو بآخر، فقد شهد حدثاً تاريخياً مهماً وهو الخلاف والتنافس الذي نشب وشب بين الإخوة الأمين والمأمون على الحكم والخلافة والذي انتهى بمصرع الأمين واستلام المأمون مقاليد الخلافة العباسية، وقد سجن أبو نواس إبان الصراع بين الأخوين لملازمته الأمين وقد عاب خصوم الأمين عليه مجالسته للمجان، "واستغل ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين، فكان يعمل كتبًا بعيوبه تقرأ على المنابر بخراسان، وكان مما عابه به أن قال: إنه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن هانئ ليشرب معه الخمر ويرتكب الآثام وهو القائل:

ألا فاسْقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ... ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهرُ
وبُح باسم من تهوى ودعني من الكُنى ... فلا خير في اللذات من دونها سِترُ

وكان يقوم رجلاً بين يديه فينشد أشعار أبي نواس في المجون[2]، فحبس الأمين أبا نواس ثم أطلقه بعد قصائد استعطاف عدّة، منها قوله[3]:

بك أستجيرُ من الردى ... وأعوذُ من سطوات باسِك

---

(١) هدارة، محمد. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني عشر، ص٤٩ و٥٠.

(٢) المرجع نفسه، ص١٦، ١٧.

(٣) ابن هانئ، الحسن. (٢٠٠٧م). ديوان أبي نواس. تحقيق: وشرح أحمد الغزالي، بيروت: دار الكتاب العربي، ص٣٢٢.

وحيــــاةُ راســــكَ لا أعـــودُ   لمثلهـــــا وحيـــــاةُ راسِـــــك
مــــن ذا يكـــون أبــــا نـــوا   ســـك إن قتلــت أبــا نواســك

وقوله[1]:

فـــإن كنـــت لم أذنـــب، ففـــيما   وإن كنت ذا ذنـب، فعفـوك أكـبرُ

وبالطبع سيكون لهذه الأحداث السياسية أثرها على الحياة آنذاك بجميع مجالاتها وأحوالها، ومنها الحياة الأدبية التي تأثرت أيضا بتلك الظروف، فكان للأحداث أثرها على نفوس الشعراء والتي أنطقتهم وجعلتهم يعبرون ويصرحون عن اتجاهاتهم ومذاهبهم، فمن شاعر مؤيدٍ للعباسيين إلى آخر يرى الحق للعلويين إلى شاعر آخر يهتف لحزبه ولفرقته.

إلا أنه من المهم "أن نذكر أن التأثير السياسي ليس ضروريًا أن يظهر صداه في الشعر السياسي فحسب، بل ربما ظهر في أكثر من اتجاه من اتجاهات الشعر في القرن الثاني"[2].

فقد تحدو الظروف السياسية إلى إنتاج شعري مغاير، فيترك البعض هذه الاضطرابات والمناوشات السياسية ليتجه اتجاهًا آخر يرضي ميوله ويتفق مع ماهيته كشاعرنا الحسن بن هانئ.

----

(١) ديوان أبي نواس، ص٣٢٤.

(٢) هدارة، محمد مصطفى. اتجاهات الشعر العربي، ص٥٥.

۞ الحياة الاجتماعية:

انتقل العرب إلى عهد آخر من التحضر والانفتاح والتقدم منذ أواسط القرن الثاني الهجري "فبعد أن كان الناس يسكنون في الأخصاص وبيوت الشعر والقصب أخذوا يتدرجون في العمران منذ القرن الأول كما رأينا في قصور الخلفاء الأمويين وقصر عبيد الله بن زياد الذي بلغت نفقاته نحو مليوني درهم فيما يقال حتى أصبحوا في القرن الثاني يهتمون بإقامة القصور الضخمة، وأصبح الأثرياء يهتمون بزراعة البساتين الفواحة بالشذى، وإنشاء أحواض للسباحة وحدائق للحيوان"(١).

كما نجد البصرة قد تضاعف عدد سكانها حتى بلغوا نصف مليون نسمة، وكانت السفن ترسو في موانئها محملة بأصناف البضائع من أقمشة وأطياب وغيرها من التجارات، ثم لم تلبث بغداد أن تبعتها في هذا التقدم ونافستها في هذا الرخاء والثراء، فكانت أسواق بغداد مليئة بالبضائع والمتاجر والحوانيت، وكان لكل تجارة سوق فهناك سوق البزّارين وسوق الجزّارين وسوق الدجاج وغيرها(٢).

لقد أراد السفاح أن تكون العراق حاضرته. لكن لم يلبث أبو جعفر المنصور أن بنى مدينة على الضفة الغربية لدجلة لتكون حاضرة الخلافة واسماها "دار السلام".

وقد اهتم المنصور ببناء حاضرته فاجتلب لها الصناع والمهندسين، وشيدوا فيها القصور الفارهة والمباني العظيمة والجوامع الكبيرة.

وقد ذكر أبو نواس في بعض أشعاره قصر الخلد، وهذا القصر كان على شاطئ دجلة، وقد جاءت تسميته بهذا الاسم تشبيهًا له بجنة الخلد، وكان الخليفة هارون الرشيد يقيم فيه وقتئذ(٣).

---

(١) هدارة، اتجاهات الشعر العربي، ص٧٢.

(٢) انظر هدارة، ص١٢١و١٢٢و١٢٤.

(٣) انظر: صدقي، عبدالرحمن. (١٩٤٤م). أبونواس قصة حياته وشعره. القاهرة: دار إحياءالكتب العربية، ص١٤٤.

وقد كان في التقاء هذه الأجناس المتفرقة والعناصر الشتى سببًا للتنافس على الرزق والسيادة فأثر ذلك على الحالة الاجتماعية آنذاك، كما كان للزراعة والتجارة وبما كان يصل بغداد أيام عزها من البضائع والصنائع أن توفرت فيها أسباب العمران والحضارة حتى فاقت ما سواها من الحواضر وأصبحت قلب الخلافة النابض بالحياة[1].

أما في عهد الأمين فقد زادت حدة الترف واللهو وصرف فيه جلّ وقته وماله، وأغدق على ندمائه من الشعراء الأموال والهدايا، فكان عصره يشهد ارتفاعًا في موجة البذخ وشيوعًا لأصناف اللهو والغناء.

أما الحالة الاقتصادية في البلاد فهي جيدة على مستوى العامة، فقد عاش الفقراء ومتوسطي الحال حياة كريمة ليس فيها ذل أو عازه[2]، وإن كانت رؤوس الأموال والضياع والذهب والفضة بأيدي الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة، وما قد بقي فكانوا يغدقونه على الشعراء والعلماء والأطباء والمغنين وفي ذلك أخبار كثيرة.

"وكان الشعراء يلبسون الوشي والمقطعات الحريرية، ويلبس المغنون قطوع الديباج والخزّ، واستكثروا حينئذ من العطور وأنواع الطيب من الغالية والمسك والعنبر، وبالغ النساء حرائر وجواري في زينتهن وأناقتهن، فكن يرفلن في الثياب الحريرية ويختلن في الحلي والجواهر متخذات منها تيجانًا وأقراطًا وخلاخيل وعقودًا وقلائد، وكن يمشطن شعورهن بأمشاط من الصّدف والصندل، ويعقصنه أو يرسلنه غدائر تنوس، وقد يلوينه على أصداغهن في هيئة النون أو هيئة العقرب، وفي ذلك يقول أبو نواس واصفًا طائفة منهن:

أصْداغُهُنَّ معقرباتٌ   والشواربُ من عبير"[3]

---

(١) انظر: المقدسي، أنيس. (١٩٨٩م). أمراء الشعر العربي، بيروت: دار العلم للملايين، ص٤٤، وص٥٣.

(٢) انظر: هدارة، محمد مصطفى. اتجاهات الشعر العربي، ص١٢٤.

(٣) ضيف، شوقي. تاريخ الأدب العربي، ج٣/ ص٥٠.

وقد "كانت تجارة الرقيق في القرنين الأول والثاني رائجة إلى أقصى حد في المجتمع الإسلامي لوجود مشترين دائمًا محتاجين إلى العبيد والإماء. وكانت مدينة سمرقند أهم مراكز تجارة الرقيق في القرن الثاني خاصة. وقد اشتهر عدد كبير من تجار الرقيق لإقامتهم بيوت عامة عامرة بالجواري الحسان اللائي تلقين دراسات خاصة في فن معاملة الرجال ومحاولة إغرائهم واجتذاب قلوبهم وأموالهم، كما تلقين دراسات خاصة في الغناء بأنواعه المختلفة، وفي فنون الإيقاع والعزف على الآلات الموسيقية وفي أنواع الرقص والتثني، وكانت لديهن ثقافة عامة لا بأس بها وخاصة في الشعر لتوسلهن به إلى الغناء والعزف، حتى إننا نجد من بينهن شواعر لهن شعر رقيق مثل عريب ومقيم وجنان معشوقة أبي نواس وعنان جارية النطفي"[1].

كذلك انتشر الخمر والنبيذ وأدمن عليه الكثير من الناس وانتشر في حواني بغداد، وأقبل عليه بعض الشعراء والمغنون، وأكثروا من معاقرته ووصفه، وبالطبع سيدفع هذا الإدمان والمعاقرة إلى شيء من الانحلال والزندقة والإباحية والعبث.

إن هذا الحديث عن بغداد وما تكتظ به من صنوف الحياة المتنوعة، يوحي إلينا أن هذا الاكتظاظ لابد له من تمازج بالتزاوج والتناسل والتجاور.

وهذه الأصناف التي وردت بغداد لم تكن من جنس واحد أو مدينة واحدة أو حتى دولة واحدة وبالتالي فكل وافد يحمل معه طبعه وأخلاقه وجزء من حضارته ولغتها وعاداتها وتقاليدها حتى طريقة لباسها وبنائها وإدارتها، والعباسيون لم يرفضوا ذلك، فلم تكن دولتهم عربية محضة كما فعلت الخلافة الأموية بل كان للفرس صوت قوي في بغداد وما حولها فهم مساعدوا الدولة وذراعها القوي، فتولوا المناصب الإدارية والقيادية والوزارية، كذلك تأثرت الدولة إداريًا واجتماعيا بهؤلاء القوم واقتفوا أثر الساسانيين في الحكم والإدارة، فأخذوا نظام الدواوين، فكثرت الدواوين في عصرهم واختلفت مهامها ومسمياتها، وكذلك أخذوا عن الفرس نظام الوزارة وقد كان أغلب

---

(١) هدارة، اتجاهات الشعر العربي، ص٦٧.

وزرائهم من الفرس فكان أول وزير اتخذوه أبا سلمة الخلال ومن بعده خالد بـن برمـك، وكذلك تأثروا بهم في اللباس(١).

والحقيقة أن الأزياء في هذا العصر تغيرت عـن أزيـاء مـن سبقهم، فقـد كانـت هـذه الأزياء تمثل صورة من صور التحضر والتمدن الذي شاع في ظل هـذه الحضارة الجديـدة النشطة، فتغيرت أساليب العيش تبعًا لذلك لاسيما في حواضر الـبلاد أمـا في بواديها فقـد كان نمط الحياة والعيش يختلف في الأغلب كذلك لدى بعـض العامـة، ومـن الطبيعـي أن يتأثر اللباس وأساليب العيش بالحضارة الفارسية والبيزنطية. ثم تعدى مجال تأثير الأزياء إلى السياسة ثم إلى أشياء أخرى ربما لا تصب في مصلحة المجتمع الإسلامي آنذاك.

فلاشـك أن الـسياسة الجديـدة التـي أخـذت بهـا الدولـة العباسـية في المساواة بـين رعاياها على اختلاف أجناسهم وأديانهم كانت مشجعاً على امتـزاج الحـضارات وتـزاوج الثقافات، فأفاد العـرب مـن ذلـك خـيراً كثـيرًا، وكـذلك دخـل علـيهم منـه شر مـستطير، فغلبت عليهم الحضارة الفارسية، وتـشاغلوا بالفلـسفة اليونانيـة، وقبـسوا مـن نظـر أهـل الهنـد، وأدّاهـم هـذا كلـه إلى أشـياء لم تكـن مـن طبعهم ولا مـن مـألوف عـادتهم في أول أمـرهم، مـن اصـطناع الـترف في الملـبس والمأكـل والاسـتهتار في الـشرب، والمجـاهرة بـما يستوجب الحد، ومن الكلف الـذي لا بعـده كلـف بعلـم النجـوم والتنجيم، والتفلـسف حتى في الأمور الدينية والعقائد الإيمانية(٢).

فخفـت قلـيلا صـوت العربيـة وعـلا صـوت الفارسـية والـشعوبية لاسـيما بعـد أن فتحت الدولة أبوابها للعناصر التركية والـسريانية والهنديـة والروميـة وغيرهـا في تكـوين الدولة، وهكذا اتـسعت دائـرة التمـدن وانتـشرت بعـض القـيم والأعـراف التـي فرضـها المجتمع كالشعوبية وتفشي القبلية وشيوع الغناء ومجالس اللهو والمجون والغزل بالمـذكر، وانتشار القيان والجواري في المجتمع العباسي بـصوره كبـيرة، وقـد سـاعد في انتـشار هـذا

---

(١) انظر: ضيف، شوقي. تاريخ الأدب العربي، ج٣/ ص٢٠-٢٥.

(٢) انظر: صدقي، عبدالرحمن. أبونواس قصة حياته وشعره، ص٥٢.

الانحلال الأخلاقي الترف المادي في هذا العصر والحرية المسرفة التي منحتها الدولة العباسية للناس، فشرب الفرس الخمر وتبعهم العرب في ذلك، كما اتخذ بعض الفرس الزندقة ديناً وتشدق بها البعض الآخر وأصبحت مدعاة للظرف والشطارة.

كذلك نجد من العوامل التي ساعدت أيضا على انتشار اللهو في هذا المجتمع: "ظهور المرجئة بمذهبهم الديني الذي يقول بفلسفة العفو، وأساس مذهب المرجئة أن الإيمان هو التصديق بالقلب وليس العمل ضروريًا فيه، وعلى هذا فليس من حق أحد أن يحكم على إنسان بالكفر أو الفسوق - كما يذهب الخوارج والمعتزلة - مادام مؤمنًا بالله وبأن محمدًا رسول الله، فهذا الحكم من حق الله وحده يوم القيامة، وهو يصرح في كتابه العزيز بأنه يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء، من مثل قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾، وقد استغل شباب هذا العصر هذه الفلسفة التي أقام عليها المرجئة مذهبهم، فاندفعوا في لهوهم، وأسرفوا على أنفسهم على أمل أن الله يغفر لهم مادام باب العفو والمغفرة مفتوحا على مصراعيه"[(١)].

وحديثنا هذا لا يعني أن هذه الحياة التي وصفناها فيما سبق كانت هي الحياة الغالبة على بغداد والعراق فقد كانت هذه الظواهر الاجتماعية، منتشرة في طبقة معينة من المجتمع لاسيما الأعاجم منهم والطبقات المترفة، كذلك الزندقة انتشرت لدى الفرس، والعبث والمجون لدى طبقات المترفين، أما عامة الشعب فكانوا بمعزلٍ عن ذلك، بل لقد ظهر اتجاهاً للزهد في هذا العصر وكأنه ردة فعل للاتجاه السابق، فعاش المجتمع بين هذين التيارين الذي كان لكل منه شعراؤه وجمهوره.

"وظهور هاتين الطائفتين في هذا المجتمع ليس أمرا غريبًا، بل لعله شيء طبيعي، فإن الناس في عصر الاضطرابات السياسية والانقلابات الاجتماعية يفقدون طمأنينتهم

---

(١) خليف، يوسف. (د. ت). في الشعر العباسي نحو منهج جديد، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ص٢٥ و٢٦.

في الحياة واطمئنانهم إليها، ويرون فيها شيئًا لا استقرار له ولا ثبات، فإنما هي يوم لك ويوم عليك، فمنهم من يندفع خلفها يعب من كؤوسها ما استطاع قبل أن يدركها النضوب والجفاف، ومنهم من ينفض يديه منها، ويخلفها وراء ظهره، ليستقبل الآخرة الباقية، ويستعد لها بما يقدمه بين يديه من عمل صالح، ولهذا كان طبيعيًا أن يكون العراق هو الإقليم الذي شهد ارتفاع هذه الموجة من الزهد ارتفاعًا شديدًا؛ لأنه الإقليم الذي شهد أشد صور الاضطراب السياسي والانقلاب الاجتماعي في القرن الثاني، وما نشأ عن ذلك من ارتفاع موجات اللهو والزندقة والشعوبية"[(١)].

إلا أن الجميع استظلوا تحت ظل هذه الحريات والترف، وفتحوا أعينهم على ذلك، وإن تباين تعاملهم مع تلك الحرية والحضارة واختلف تقبلهم لها تبعا لشخصياتهم وأمزجتهم وتكويناتهم الثقافية، فقد جمع المجتمع العباسي بين المجون والزهد، وقام الشعراء بتصوير الحالتين، بعد أن أسهموا في التيارين[(٢)].

ومن الجدير القول إن الحضارة الجديدة وتغير العلاقات الاجتماعية وثقافة المجتمع وظهور الترف والغناء ومجالس الأنس واللهو وما إلى ذلك، قد يظهر شيئًا فشيئًا في شعر الشعراء الذين رافقوا هذه النقلة الحضارية في المجتمع العباسي، وقد أخذ هذا المنحى يأخذ اتجاهات شتى في الشعر والأدب عمومًا، نتيجة اتساع الملكات الفكرية والثقافية للمجتمع بوجه عام وللمهتمين بالجوانب الفكرية منهم الشعراء بوجه خاص، على الرغم من محافظتهم على القوالب والسياقات الشعرية القديمة والأطر التي طبعت الشعر العربي القديم؛ لأن التغيير الأساس الذي طرأ على الشعر في هذا العصر كان في أنماط المعاني والصور التي تساهم في خلق جو منسجم بين الإيقاعات والصور[(٣)].

---

(١) خليف، يوسف، في الشعر العباسي نحو منهج جديد، ص٢٩.

(٢) انظر: أبو زيد، علي إبراهيم. (١٩٨٦م). زهد المجان في العصر العباسي، بيروت: دار الثقافة للطباعة والنشر، ص١٩.

(٣) انظر: الزبيدي، صلاح مهدي. (٢٠٠٤م). دراسات في الشعر العباسي، الأردن: الأكاديميون للنشر والتوزيع، ط١، ص٧٠.

ومن تلك العيون التي فتحت جفونها تحت مظلة هذه الحضارة الجديدة أبو نواس.

"وهو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن عبد الصبّاح بن الجرّاح بن عبد الله بن حماد بن أفلح بن زيد بن هنب بن دده بن غُنم بن سليمان بن حكم بن سعد العشيرة بن مالك، وكنيته أبو نواس.

سئل عن كنيته ما أراد منها ومن كنّاه بها، وهل لديه ولد اسمه نواس وهو أبو نواس؟ فقال: نواس وجدن ويزن وكلال وكلاع أسماء جبال لملوك حِمير، والجبل الذي لهم يقال له نواس.

وسئل مرة أخرى، فقال: سبب كنيتي أن رجلاً من جيراني بالبصرة دعا إخوانًا له، فأبطأ واحد منهم، فخرج من بابه يطلب من يبعثه إليه ليستحثه على المجيء إليه، فوجدني مع صبيان ألعب معهم، وكان لي ذؤابة في وسط رأسي، فصاح بي: يا حسن، امض إلى فلان جئني به.

فمضيت أعدو لأدعو الرجل وذؤابتي تتحرك، فلما جئت بالرجل قال لي: أحسنت يا أبا نواس (لتحرُّك ذؤابتي) فلزمتني هذه الكنية.

كان أبو الحسن بن هانئ كاتبًا لمسعود المادراني على ديوان الخراج، وكان اسمه هني.

وقيل كان أبوه راعي غنم، ولم يكن له ولد ولا خلف غير أبي نواس حتى مات، فلما كبر أبو نواس وأدب غير اسم أبيه، وقال لنفسه: حسن بن هانئ، وإنما كان حسن بن هني"(١).

وورد في طبقات الشعراء لابن المعتز أن اسمه: "الحسن بن هانئ ويكنى أبا عليّ، ولد بالأهواز بالقرب من الجبل المقطوع المعروف براهبان سنة تسع وثلاثين ومائة، ومات ببغداد سنة خمس وتسعين ومائة وكان عمره خمساً وخمسين سنة، ودفن في مقابر الشونيزي في تل اليهود، ومات في بيت خمارة كان يألفها، وكانت أمه أهوازية يقال لها

---

(١) ابن منظور. (د. ت). أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه، بيروت: دار الجيل، ص٢٠.

جلبان من بعض مدن الأهواز يقال لها نهر بيري، وأبوه من جند مروان بن محمد من أهل دمشق مولى لآل الحكم بن الجراح من بني سعد العشيرة، وكان قدم الأهواز أيام مروان بن محمد لرباط الخيل، فتزوج جلبان فأولدها عدة، منهم أبو نواس وأخواه أبو محمد وأبو معاذ، وكان أبو معاذ يؤدّب ولد فرج الرخجي، ومات والدهم هانئ وأبو نواس صغير فنقلته أمه إلى البصرة، وهو ابن ست سنين، فأسلمته إلى الكتّاب، فلما ترعرع خرج إلى الأهواز فانقطع إلى والبة بن الحباب الشاعر، وكان والبة يومئذ مقيماً بالأهواز عند ابن عمه النجائي وهو واليها، فأدّبه وخرّجه.

وكان أبو نواس وضيئاً صبيحاً، فعشقه والبة وأعجب به، وعُني بتأديبه حتى خرج منه ما خرج، ولما مات لزم خلفاً الأحمر، وكان خلف أشعر أهل وقته وأعلمهم، فحمل عنه علماً كثيراً وأدباً واسعاً فخرج واحد زمانه في ذلك"(١).

وقيل أيضا أنه كني "بأبي نواس لأن خلفاً الأحمر كان له ولاء باليمن، وكان من أميل الناس إلى أبي نواس، فقال له: أنت من أشرف اليمن فتكَنَّ بأسماء الذين – وهم الملوك الذين تبتدئ أسماؤهم بـ ذو – ثم أحصى أسماءهم فقال: ذو جدن وذو يزن وذو نواس، فاختار ذا نواس فكناه بها، فغلبت على كنيته الأولى"(٢).

"وكان حسن الوجه، رقيق اللون، أبيض، حلو الشمائل، ناعم الجسم، وكان في رأسه سماحة وتسفيط، وكان ألثغ بالراء يجعلها غينًا، وكان نحيفًا وفي حلقه بحة لا تفارقه"(٣).

وفي تاريخي ولادته ووفاته خلاف، قيل في ولادته: ١٣٠ و١٣٦ و١٤١ و١٤٥

---

(١) ابن المعتز. (د. ت) طبقات الشعراء. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط٣، القاهرة: دار المعارف، ص١٩٤.

(٢) الزيات، أحمد حسن. (٢٠٠٩م). تاريخ الأدب العربي، ط١٣، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ص١٩٨.

(٣) ابن منظور، أبو نواس في تاريخه، ص٢١.

و١٤٦، وقيل في وفاته: ١٩٥و١٩٦و١٩٨[(١)].

قال عنه علماء عصره وشعراؤهم والعصور التي تلته أقوالا كثيرة.

فيقول أبو عبيدة: "ذهبت اليمن بجيد الشعر في قديمه وحديثه: امرؤا لقيس في الأوائل، وأبو نواس في المحدثين"[(٢)].

وقال النظّام: "كأن هذا الفتى جمع له الكلام فاختار أحسنه"[(٣)].

وقال إبراهيم بن العباس: "إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس، علمت أن ذلك عنوان أدبه، ورائد ظرفه"[(٤)].

"وقيل للعتبي: من أشعر الناس؟ قال: أعند الناس أم عندي؟ قال: قلت: عند الناس، قال: امرؤ القيس، قال: قلت: فعندك؟ قال: أبو نواس[(٥)] ".

ومن خلال هذا التقديم المختصر لعصره، وما شهده من ازدهار وتطور وترف، والحديث عن مولده ونشأته وحياته، نرى إلى أي مدى انجرف أبو نواس، ونرى أيضاً إلى أي اتجاهات الحضارة انساق، لاسيما وهو الشاب الفارسي الأصل، الذي يحمل شيئًا من الشعوبية، وهو الشاب الجميل الذي تربى على يد امرأة فقيرة أوكلته إلى أيدي الزمن، فاتجه إلى ما مالت إليه تلك النفس الصبية المحرومة والتي تشعر بالنقص وترغب بالاستمتاع والتردد على الحانات المنتشرة، والعبث والتهتك والمجون ومعاقرة الخمر، والتعرف على مشاهير الشعراء آنذاك، لقد فعل كل ذلك غير عابئ بأخلاقه وسمعته، تلك التي لم يكن لها نصيب من التعزيز يومًا.

---

(١) انظر: الزركلي، خير الدين. (١٩٨٠م). الأعلام، ط٥، بيروت: دار العلم للملايين، ج ٢/ ص٢٢٥.

(٢) ابن منظور، أبونواس في تاريخه، ص٤٨.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص٥٦.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص٤٩.

(٥) المرجع السابق نفسه، ص٤٩.

هذه بغداد بتناقضاتها، وهذا ما كسبه أبو نواس من بغداد وعايشه من تطورات وتغيرات اجتماعية وقيم وأعراف فرضها المجتمع، بعضها ناسب الشاعر كالشعوبية والمجون واللهو والغناء، والكثير لم يناسبه لاسيما فيما يتعلق بالفخر والقبيلة والزهد والورع.

❁ مجون أبي نواس:

بعد هذا العرض السريع للحياة السياسية والاجتماعية في العصر العباسي الأول الذي عاشه الشاعر، يمكن لنا أن نتحدث عن مجون أبي نواس وحقيقته، والتعرض سريعاً لأسبابه. "فقد نشأ الحسن يتيماً في كنف أم شغلتها عنه مطالب العيش، والسعي الدءوب من أجله ومن أجل إخوته، واضطرتها الحاجة إلى أن تجعل من بيتها ملتقى لرواد المتعة، وطلاب اللذة، يجتمعون في منزلها فيشربون ويقصفون، ويقضون مآربهم تحت سمعها وبصرها، وربما تحت سمع الوليد الناشئ وبصره كذلك، ثم انتهت بها الحال إلى علاقة برجل من أهل البصرة، تناقل الناس حديثها فتزوجت منه قطعا للألسنة، وقضاء على ما يثار حوله وحولها من كلام غير كريم. وبهذا الزواج انقطعت تلك الصلة الضئيلة التي كانت تربط الأم بابنها والتي كانت تفرض عليها أن ترعاه في نشأته وأن ترقبه في طفولته، انقطعت لأنها شاءت لها أن تنقطع، فقد انصرفت إلى زوجها واستغرقتها حياتها الطارئة، ولم تلتفت بعد إلى ذلك إلا إلى نفسها، ولم تصغ لنداء غير نداء عاطفتها الجديدة. ومن شأن طبيعة هذا العصر مع وجود تلك الظروف أن ترسم الطريق في الحياة لصاحبها، وأن تخلق مقومات شخصيته، وتلونها، ثم تحددها في الأحداث والتجارب"[(١)].

وإن كانت هناك أخبار تروي أن أمه كانت تعمل في نسج الصوف وغزله وقيل إنها كانت تصنع الخيزران[(٢)]، وامرأة عاملة بالكاد تفرغ لمثل هذه الأمور المعيبة، هذا إن صح الخبرّ الأول الذي ذكره محقق الديوان إلا أنها كلها تصب في مصب واحد، وهو إثبات انشغالها عنه وفراغ عاطفته من قبل أمه الكادحة المنشغلة في كسب قوتها وقوت أولادها.

"أوقعته الأقدار في صحبة ابن الحباب، فأخذ عنه مذهبه في الشعر والحياة، وكان

---

(١) انظر: ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ، ص٩.

(٢) انظر: ابن منظور، ص٢٠.

الشعر آنئذ في أيدي عصبة من أهل الإسراف والخلاعة، نذكر منهم مطيع بن إياس، حماد عجرد، مسلم بن الوليد، داوود بن رزين، الواسطي، الحسين ابن الضحاك، الفضل الرقاشي، عمر الورّاق، الحسين الخياط، علي ابن الخليل، إسماعيل القراطيسي وأمثالهم"[1].

وفي القراطيسي يقول صاحب الأغاني: "كان مألفاً للشعراء، فكان أبو نواس وأبو العتاهية يجتمعون عنده ويقصفون، ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان"[2].

"وربما كان من دوافع رحلته معه وإغراقه – فيما بعد– في المجون أنه كانت تؤذيه سيرة أمه في البصرة، فارتحل معه، وأخذ يعب من الخمر كي ينسى أمه، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد وقع في حبائل شيطان كبير، غمسه في كل ما كان يقع فيه من خطايا وآثام هو ورفاقه مجان الكوفة من أمثال: مطيع بن إياس، وحماد عجرد، وكأنما كتب القدر عليه أن يصبح ضريبة الفسق والمجون لعصره"[3].

وقد يكون لانتسابه للفرس، وكون والده من الموالي، أثراًبالغ الألم في نفسه، فقد ذكر ابن منظور "أنه كان دعيًا يخلط في دعوته"[4]، ومنهم من قال: "أنه بعد أن كبر وأدب غير اسم أبيه"[5].

هذا الأمر قد حدث ربما في مقتبل شبابه "فتارة يدعي للنزارية وينتسب للفرزدق، وتارة ينقلب على النزارية ويدعي لليمنية وأنه من قبيلة حكم"[6].

ولعل ذلك أدى به أحياناً إلى النزوح للشعوبية والفخر بالفخر في قصائده، ومع

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

(١) المقدسي، أنيس. أمراء الشعر العربي، ص١٠٥.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص٢٠٢.

(٣) ضيف، شوقي. تاريخ الأدب العربي، ج٣/ ص٢٢٢.

(٤) ابن منظور، أبو نواس في تاريخه، ص٢٩.

(٥) فروخ، عمر. (١٩٦٤م). أبو نواس، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، ص٤٧.

(٦) صدقي، عبد الرحمن، أبو نواس قصة حياته وشعره، ص٤٩.

ذلك فإن عمر فرّوخ يرى أن أبا نواس لم يعتز بالقومية الفارسية لأنه لم يكن صريح النسب بين الفرس، بل ربما سعى جاهداً أن ينتسب للعرب، وقد يكون ميله للفرس ليس بمعنى الشعوبية العنصرية، بل إنها أقرب إلى الرغبة في عيش حياة الفرس المترفة مقارنة بحياة الأعراب الجافة، ومع ذلك فهو شعوبي اللسان كما ذكر ابن رشيق(1).

كما يرى خليف يوسف أن شعوبيته وزندقته ليست من المذهب المتطرف كما هو حال الشاعر بشار بن برد، بل إن شعوبيته أقرب ما تكون إلى الإعجاب بالحضارة الفارسية التي تتيح فرص اللهو والعبث أكثر مما تتيحه الحضارة العربية، كذلك أمر زندقته التي لم تكن سوى لون من ألوان العربدة والعبث عند السكارى والمخمورين كما قد تكون أسلوبًا للظرف وإظهاراً لخفة الدم(2).

وقد يكون فقره وهموم الحياة وأحزانها أثرت فيه، فاتجه إلى ما يلهي به هذه النفس الوثابة المتمردة التي لا تقنع ولا تشبع!

إن المتتبع لحياة بعض شعراء هذا القرن والقارئ لأخبارهم وأشعارهم يستنتج أن أبا نواس وكثيرًا من الشعراء الذين عاصروه واتهموا بالزندقة، لم يكونوا كما يقال عنهم زنادقة، إنما كانوا يتظاهرون بالمجون والعبث واللهو إما تظرفًا، وإما إبعادًا للأنظار عنهم لغايات سياسية(3)، ونحن نستبعد أن يكون عبثه إبعادًا للنظر لأي غاية سياسية فهو لم يقحم نفسه في السياسة ولم تشغله أكثر مما أشغلته الدنيا وملاهيها وصنوف المتعة فيها.

وكثيرًا ما كان معنى الظرف يرادف المجون في هذا العصر لذا لم يكن المقصود من المجون معناه الاصطلاحي البحت، إنما كان يعني لديهم الظرف والشطارة، وهذا ليس على الإطلاق فقد كان يرمى نفر منهم بالمجون وهم مجان في الحقيقة.

----

(١) انظر: فروخ، عمر. أبو نواس، ص٦٦ و٦٧.

(٢) انظر: يوسف، خليف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، ص٥٦و٥٧.

(٣) انظر: الزعيم، أحلام. (١٩٨١م). أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد، ط١، بيروت: دار العودة، ص٢٢٠.

فتح الشاعر عينيه في البصرة ثم انتقل إلى بغداد ليجد نفسه أمام هذه الحضارة بمساوئها ومحاسنها، تلك الحضارة المليئة بالتنوع والتناقض والتطور المستمر، عاش في هذه المدينة التي تكاثر الغلمان والجواري الحسان فيها، واسترسلت في الخلاعة والمجون، وانتشر فيها المجان والفسّاق والزنادقة كل يدعو من حوله ويكوّن جمهورًا له، كذلك انتشر الوعّاظ والزهاد يدعون وينصحون ويجتمع إليهم جمعٌ ممن نصح قلبه وطهر، أثناء هذا الاضطراب الاجتماعي وما سبقه من اضطراب سياسي عايشته بغداد وحواضرها عاش أبو نواس ليغترف من الحياة تلك ما يناسب ميوله وتشتهي نفسه التي عاشت كل ما سبق، وأثر فيها بوجه وبآخر لاسيما وهو شاعر، والشاعر من أكثر الناس إحساسًا وتأثراً بما حوله.

لم يكن أبو نواس ميّالاً للزهد والقناعة والاكتفاء، فقد أطلق العنان لنفسه المحرومة من أصالة النسب وحسن سمعة الأم. إن هذه الحياة الاجتماعية بكل صورها لابد أن تدفع الناس إلى طريقين، فمنهم من يسلك طريقًا يجعل اللذة فيه مُبتغاه من دون خوف من عقاب أو حرص على سمعة تاركاً العنان لنفسه أن تبلغ مشتهاها بدون رقيب من نفس أو حسيب، أو يتخذ طريقاً يعتزل فيه الناس ويبتعد عن معترك الحياة راغباً في الله ولاجئاً إليه. ومن هنا فإن هذا العصر والظروف التي ساعدت في تكوين شخصية أبي نواس دعته هو وشعراء عصره يلحوا في طلب المتعة استجابة صادقة لروح العصر التي استثارت عواطفهم وأحاسيسهم(1).

"ولعل شعور شاعرنا بقصر المدة التي للأحياء على هذه الأرض، وتيقّظ حسه للأيام تعبر به سراعًا، والعمر ينطوي تحته قدميه، وعقد الحياة ينفرط بين يديه، أن حرِصَ على مبادرة اللذات والتمتع بها قبل الفوات:

رَأيتُ اللَيالي مُرصِداتٍ لِمُدَّتي   فَبادَرتُ لَذّاتي مُبادَرَةَ الدَهرِ"(2)

---

(1) انظر: ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ، ص٧.

(2) صدقي، عبدالرحمن، أبو نواس قصة حياته وشعره، ص١٨٢.

والحقيقة أن القارئ لأشعاره سواء في زهده أو مجونه أو حتى غزله، سيكتشف هذه الحقيقة ، حقيقة النهم السريع للدنيا لديه. إنه في صراع مع الزمن يريد أن يلبي جميع رغباته ويستمتع أقصى حدود الاستمتاع، مادام شاباً فتياً يستطيع ذلك، إنه شخصية لا تأبه لعرف ولا عادة ولا قيم ليس لأنه غير مقتنع بها ولكن لأنها تحد من تهوره واندفاعه وتحدد له ما يجب وما لا يجب وهو شخصية تحب الحرية ولا تؤمن بالقيود ولا تفكر في العواقب، ولعل الحديث هذا سيتذكره القارئ حينما يقرأ قصائد زهده التي تتحدث عن كل ما سبق وبالضد تعرف الأشياء، سيدرك القارئ لمقطوعاته الزهدية إلى أي مدى كان هذا الشخص مستهترًا لا يأبه للعقاب فضلاً عن السمعة والأخلاق، فأبياته في الزهد تشي بحياته السابقة من خلال عزفه على ألحان الندم والخوف والرجاء وترديدها كثيرًا وذلك لأنه أسرف كثيرًا وكثيرًا.

نجد أيضا طه حسين يشير إلى ما لوابلة بن الحباب من تأثير خطير على شخصية أبي نواس ومن ثم مجونه، فيقول: "وكان أبو نواس تلميذاً لوالبة بن الحباب هذا، وعنه أخذ الفسق العملي واللفظي، بل قل إنه أخذ عنه الإباحة بأشنع معانيها"(١).

ويرى النويهي أنه "لولا مؤثرات البيئة التي وجد فيها أبو نواس لما اتخذت شخصيته هذا القالب الخاص الذي تشكلت فيه. فالذي حدث هو أن نفسيته الحساسة قد التقطت كل مؤثرات عصره وتأثرت بها تأثرًا قوياً. ولكنها لما التقطتها صاغتها صياغة خاصة وزادت من تحددها وعنفها، ثم عادت فردتها إلى العصر معظمة بالغة الإرهاف"(٢).

أما عمر فرّوخ فيرى أن هناك عوامل معصية تجمعت على الشاعر وهي التي ساعدت على سرعة انقياده للمعاصي وكثرة مجونه ولهوه أولها: البيئة التي نشأ فيها أبو نواس فإنها كانت فاسقة فجرفه تيارها فلم يجد منه عاصماً، وذلك عامل اجتماعي صحيح.

----

(١) حسين، طه. (د. ت) حديث الأربعاء. مصر: المطبعة التجارية الكبرى، ص٣٦و٣٧.

(٢) النويهي، محمد. (١٩٧٠م). نفسية أبي نواس. القاهرة: مطبعة الخانجي، ط٢، ص١٦٩.

أما ثاني العوامل: فنشاط عجيب كان في أبي نواس، وهذا عامل جسماني لاشك فيه ولا مَعدَى عنه إلا بإرادة قوية، ولكن إرادة أبي نواس كانت قد أفسدتها النشأة الأولى.

وأما ثالث العوامل فنفساني: لقد خيل إلى أبي نواس أن الحياة ليست شيئاً سوى ما فيها من لذات جسمانية، وراح يقنع نفسه بذلك، ويظهر أنه لم يقنع فعلاً فانقلب يخادع نفسه ويوهمها بأن هذه "اللذات الدنيا" هي كل ما يناله الإنسان في طريقه من ظلمات الأحشاء إلى ظلمات القبر، يمثل هذا أبيات لأبي نواس:

فاشربْ وجُدْ بالذي تحوي يداك لها ... لا تذخرَ اليوم شيئًا خوفَ فقرِ غدِ

لا تحسبنَّ عقار خابيةٍ ... والهمُ يجتمعان في صدرِ

وقوله:

أعاذلُ خليني أروي شبيبتي ... فإن بان لي رشدُ فسوف أريعُ

ورابع هذه العوامل: الاعتماد على عفو الله، على أن أبا نواس كان في أثناء ذلك يذكر عقاب الآخرة حتى في أشد حالات فسقه وأحسن أيام نشاطه.

وكان يفعل كل ما يفعل في أيام شبابه وشيبه وهو يعتمد على ناحية عقلية كان الكلام فيها شائعاً في زمنه، فلقد كان يقول في نفسه – مع كثيرين غيره – إن الحكم على المذنب راجع إلى الله تعالى، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وأن الذنوب نفسها لا شيء إذا اعتبرنا أن الله عفو غفور رحيم، وأن الله تعالى لما سمى نفسه عفوًا غفورًا أراد بذلك أن يكون عفوًا عن المذنبين غفورًا لذنوبهم"[(١)].

من ذلك قوله[(٢)]:

وثقتُ بعفو اللهِ عن كل مسلمٍ ... فلستُ عن الصهباءِ ما عشت مقصراً[(٣)]

----

(١) فروخ، عمر، أبو نواس، ص١٤٦و١٤٧و١٤٨.

(٢) ديوان أبي نواس، ص٥١٢.

(٣) نفسه، ص٥١٢.

وقوله(٣):

غـــاد المـــدامِ وإن كانـــت محرمـــةٌ   فللكبـــائرِ عنـــد الله غفـــرانُ

ولاشك أن هذا فكر مخالف للصواب فضلاً عن أنه مخالف لفقه الإسلام وتوحيده، ولكن من يتتبع الأقوال الضالة عن الهدي النبوي، حتمًا سيجد مجالاً فسيحاً لتبرير شُبهاته.

ومع أنه لم يكن مرجئيًا في عقيدته إلا أنه اتخذ كل فسحه يتيحها أي مذهب ليمارس هواياته المحرمة براحة ضمير، ولكنه وإن كان يُرضي نفسه بهذا الحديث إلا أنه يفتقد من الداخل الاقتناع التام بما يقول، وإلا لما ظهر الزهد في شعره ولا سيطرت مظاهر الندم ومراسم الحزن على أبياته.

وهناك من يقول: "إن حياته الخاصة صورة طبق الأصل للانحطاط الخُلقي الذي شاع في هذا العصر، بسبب انغماس الناس في مطالب الترف والحضارة، وكان يُحبس لخلاعته ثم يخرج من السجن، يظهر من التدقيق أنه كان ناقماً على العرب في قرارة نفسه"(١).

أما الحديث عن بغضه للعرب وتعصبه للفرس فقد جرى ذكر ذلك عندما تناولنا حقيقة شعوبيته، وأما عن تمثيله ذلك العصر، فيجيب عليه عمر فرّوخ والذي نوافقه الرأي في جزئه الأول ونخالفه في الآخر حيث يرى أنه "من الظلم أن نقول مع بعض مؤرخي الأدب الحديثين أن أبا نواس كان يمثل الحياة في البيئة العباسية، بل إنه كان يمثل ناحية واحدة من الحياة في بغداد أو غير بغداد كالبصرة والكوفة، تلك الناحية الواحدة كانت ناحية اللهو والتهتك، أما النواحي الأخرى من الورع والتقوى، والعلم والصناعة والقومية والعصبية فقد كانت موجودة، وفقدانها في شعر أبي نواس وحده ليس دليلاً على فقدانها جملة "(٢).

----

(١) العزيزي، روكس بن زائد. (١٩٥٨م). المنهل في تاريخ الأدب العربي. القدس، ج١/ ص٩٨.

(٢) فروخ، عمر، أبو نواس، ص٥٦ و٥٧.

وذلك يتفق مع ما ذكرنا سابقا من انتشار كلا التيارين واستمرارهما، إلا أنه لا يعني أن شعر أبي نواس كان خالصاً للهو والتهتك فقط، وهذا ما سنثبته في الصفحات القادمة، وإن لم يكن هو المقصد الأساس من البحث، فنحن نعرج على تحليل شخصية الشاعر أحياناً لنبرر جوانب أخرى ستظهر في شعره لا نستطيع الولوج إليها والتحدث عنها قبل أن نعرف ماهية الشاعر وظروفه النفسية والاجتماعية ومقدار ما لديه من فنون وعلوم.

وهناك سبب أخير نضيفه لما سبق وهو سبب استقيناه من بعض أشعاره وهو انتشار أمره لدى الناس بحيث صارت تفاصيل حياته الخاصة ومغامراته الشخصية على كل لسان هذا إن سلم من الزيادة أو إلصاق بعض القصص والنوادر لدى بعض القصاص حتى تسمعه الناس وتصغي إليه مادامت قصصه تدور حول شخصية الحسن والذي يتوق الناس لسماع أخباره.

انظر إلى قوله هذا [1]:

غدوت على اللذات منهتك الستر	وأفضت بنات السرِّ منّي إلى الجهرِ
وهان علي الناس فيما أريدهُ	بما جئتُ، فاستغنيتُ عن طلب العذرِ

فانتشار أمره لدى الناس جعله لا يعبأ بالمجاهرة بطلب اللذات، فكل أسراره التي كان من المفترض أن تبقى مكتومة قد انكشفت لكل أحد، لذا فإنه استغنى عن التعلل بالأعذار لهوان الناس عليه فأصبح الخوف من الفضيحة والحرص على السمعة لا يشكل ثقلاً على نفسه ولا يسبب له عائقاً دون مجونه وخلاعته. في الأخير يجب الإشارة إلى أن كل ما ذكرنا من أسباب مجونه ولهوه تظل أسباباً وليست مبررات لمجون هذا الشاعر وفسقه ولكنه عرض لحقائق علمية وقراءات نفسيه استقيناها من كتب الأدب قديمها وحديثها، وبالطبع سيظل هذا الجانب من شعره وصمة عار على سيرته الأدبية بالرغم من إبداعه الفني، ونحن في هذا البحث "لا نريد أن نخليه من كل التبعة الخلقية، فنحن

(١) الديوان، ص١٢١.

لا نخلي مخلوقًا بشريًا رزق قدرًا من العقل من كل التبعة الخلقية مهما تكن ظروفه ويعظم اضطراره؛ لأننا نعتقد أن بكل إنسان عاقل نصيبًا من القدرة على ضبط سلوكه والتحكم في غرائزه، اثنان من البشر لا ثالث لهما يخلوان من كل مسؤولية: الطفل والمجنون، وأبو نواس برغم ارتداده إلى عدم مسؤولية الطفولة لا يستطيع أحد أن يدعي أنه يستوي والطفل، وهو برغم رقصه المخيف على حافة الجنون لم يسقط فيه بل ظل محتفظاً برشده ووعيه إلى لحظاته الأخيرة. وواضح فيه أنه مهما تكن عقده الصعبة وصراعاته العسيرة فإنه تعمد أن يزيد أمره سوءاً بما أرغم عليه نفسه من الشطط والاندفاع"[1]. إننا هنا لا نتفق مع ما عرض إليه الشاعر في خمرياته وغزله الفاحش بالمؤنث والمذكر، وتجاوزاته الدينية وفسقه ومجونه وتصريحه بذلك أحياناً، كل ذلك أدخله في بوابة من الأحكام والأقاويل والحكايات لم يسلم منها حتى بعد موته.

----

(١) النويهي، محمد، نفسية أبي نواس، ص١٦٢.

المبحث الثاني

تأثير الحياة الثقافية والدينية
على حياة الشاعر وشعره

تأثير الحياة الثقافية والدينية على حياة الشاعر وشعره

❁ مقدمـــــة:

هذا المبحث بقسميه الحياة الثقافية والدينية يمثل مقدمة للحديث عن عقيدة أبي نواس وحقيقة زهده وأسبابه، إذ يتوجب بنا المرور بهاتين البوابتين قبل الحديث عن زهده وحقيقته لما لهما من تأثير بيّن في حياته وشخصيته إلى جانب ما سبق وذكرناه في المبحث الأول.

❁ الحياة الثقافية:

هذا العصر يعتبر من أفضل العصور وأقواها من حيث انتشار العلم والمعرفة والانفتاح على الشعوب الأخرى، حيث رأينا من تداخل الشعوب في هذا العصر وتمازجهم الشيء الكثير، ومن الطبيعي أن يكون من آثار هذا الانفتاح والتمازج تمازج آخر في الحضارات والثقافات والعلوم التي يزخر بها كل شعب، فكما أشعل الإسلام فتيل العلم في نفوس العرب ساعدت هذه الحضارات أيضاً على الانطلاق في العلم والتعلم والترجمة والتدوين، حيث كانت العراق تعج بالعلماء والأدباء واللغويين كذلك ظهر في هذا العصر المتكلمون والمهتمون بالفلسفة والمنطق، كما انتشرت علوم أخرى كثيرة، وقد أقبلت كل تلك البلدان على التعريب فتعلمت العربية وأتقنتها، وأقبل العنصر الفارسي على العربية إقبالاً شديداً حتى أصبح منهم النحاة والشعراء والأدباء وكذلك من الأجناس الأخرى، يقول ابن خلدون في مقدمته: "إن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم من العجم"(١)، "فقد اشتهر في التشريع: مالك (١٧٩هـ)، وفي العلم:

----

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن. (١٤٠٨هـ). تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، ط٢، بيروت: دار الفكر، (١/ ٧٤٧).

أبو الحسن المدائني (١٣٥-٢٣٤هـ)، الواقدي (١٣٠-٢٠٧هـ)، وابن السمّاك (١٧٣هـ)، واشتهر في علوم اللغة والأدب: المفضل الضبي (١٧٨هـ)، والخليل (١٠٠-١٧٥هـ)، والأصمعي (٢١٦هـ)، وأبو عبيدة (١١٠-٢٠٨هـ)، وابن الأعرابي (١٥٠هـ-٢٣١هـ) وهو من أصل هندي، وابن سلاّم الجمحي البصري (٢٣١هـ)، والجاحظ الذي توفي في (٢٥٠هـ) وابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ)، والمبرّد (٢١٠-٢٨٥هـ)"[١].

فانتشرت العلوم الدينية كالحديث والتفسير والتشريع إلى جانب علوم أخرى كعلم الكلام والاعتزال وكذلك الأنساب وتعلم التجارة والتنجيم وغيرها، وقد كانت المساجد محضن لهؤلاء العلماء ومجمعاً لطلبتهم والراغبين في العلم والتعلم، فلم تكن مكاناً للعبادة وحسب بل كانت محلاً لطلب العلم أيضاً، كما انتشر التدوين في هذا العصر، وشجع الخلفاء والأمراء أهل العلم والمثقفين وأجزلوا لهم بالعطايا والمكافئات، كذلك ساعد انتشار الورق وصناعته في مساعدة الحركة العلمية والثقافية على الانتشار فاتخذوا الورق بدلاً من أوراق البردى والجلود، "وبناء على ذلك ظهر الوراقون فكانت لهم أسواقهم التي ينسخون بها الكتب، وكانوا ممن يجيدون الكتابة والخط ويتقنونها في دقة وسرعة، وربما استخدم كل ورّاق في دكانه عدة كتبة ينسخون له الكتب المهمة، فرخصت الكتب وتيسرت وشاعت"[٢]، وكان من نتيجة ذلك أن انتشرت الثقافة آنذاك وتسهل الحصول على الكتب، كذلك فُتحت الأسواق من أجل العلم فارتادوا سوق المربد بالبصرة، حيث كان منهلاً لشباب البصرة يغدون عليه للقاء الفصحاء من الأعراب والبادية والتحدث إليهم لاكتساب السليقة العربية وتمريناً لألسنتهم "على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبي نواس أنه كان يغدو على المربد بألواحه للقاء الأعراب"[٣].

كما ساعدت حركة الترجمة على ازدهار العلم وانتشاره فقد ترجمت العلوم اليونانية

----

(١) خفاجي، تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، ص١٧.

(٢) الزبيدي، صلاح، دراسات في الشعر العباسي، ص٤٩.

(٣) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، ج٣، ص١٠٠.

والهندية والفارسية وكانت تلك الثقافات من أهم الثقافات وأكثرها تأثيراً في الفكر والثقافة والأدب.

"وقد شجع المأمون الترجمة وأغدق الأموال على المترجمين حتى رُوي أنه كان يعطي لكل مترجم زنة الكتاب الذي يترجمه ذهباً، وكان البرامكة قد عنوا بترجمة الكتب الفارسية بشكل خاص وبعض الكتب الهندية"(١).

وهكذا كان من "أسباب الرقي العلمي في هذا العصر تلك الحركة الكبيرة – أعني – حركة النقل العلمي عن اليونان والفرس والهنود التي عرّفت أهل العربية بالعلوم الكونية القديمة، وأخرجت منهم بعدئذ مشاهير في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والجغرافيا وسواها"(٢).

يقول هدارة في شأن الحضارة الإسلامية في ذلك العصر: "والحقيقة إن الحضارة الإسلامية تبدو -كما وصفها فون جرونباوم – كأنما تلتهم كل ما تصادفه، ولكنها مع ذلك كانت تتخير غذائها تخيرًا دقيقاً، ومن ثم فقد رحبت بفنون الجدل الإغريقية، ومنهج التأويل الرمزي، وسيكلوجية الزهد المسيحي، كوسائل توسع بها دعامتها الأساسية، والحق إن الثقافة العربية بعد أ ن هضمت الثقافات الأجنبية المختلفة لم تصبح ثقافة محدودة بمكان أو زمان أو جنس، ولكنها صارت ثقافة عالمية بكل ما في هذا التعبير من معان"(٣).

وقد شمل هذا التطور والانفتاح الحضاري الشعر فاتسعت أخيلته، وتجددت أغراضه، وابتكرت فيه معاني جديدة فقد " أثرى الأدب في هذا العصر بما ترجم من فلسفة اليونان ومنطقهم، فقد صبغا عقلية الأدباء والشعراء بآثارهما العميقة في التفكير والمعاني وطرافة التقسيم والخيال، كما أثرى كذلك بالمترجم إلى العربية من قصص الهند

----

(١) الزبيدي، صلاح، دراسات في الشعر العباسي، ص٥٤.

(٢) المقدسي، أنيس، أمراء الشعر العربي، ص٥٨.

(٣) هدارة، اتجاهات الشعر العربي، ص١٠٨ و١٠٩.

وأدب الفرس، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير في الأدب العربي، ومن بينهم بشار، أبو نواس، والعتابي (٢٢٠هـ) وغيرهم"[(١)].

يقول أبو نواس وتأثره بالثقافة الهندية التي تعتمد علم النجوم والرياضة في ثقافتها واضحاً في بعض مفرداته [(٢)]:

تحـــيّرتُ والنجـــومُ وقـــفٌ لم يـــتمكنْ بهـــا المـــدار*

لقد تأثرت الحياة الأدبية كما أسلفنا بهذا التنوع والتمازج الحضاري وقد كانت مصادر الثقافة الأدبية في هذا العصر كثيرة إلا أن أهمها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والكتب المؤلفة حولها مما يتصل بالأدب، مثل: مجاز القرآن لأبي عبيدة، ونظم القرآن للجاحظ، والإعجاز للواسطي المعتزلي وكذلك خطب الخطباء وحكم الحكماء، ورسائل الأدباء، وكتب التاريخ والسياسة، وكتب الأدب الجامعة، كالحيوان والبيان والتبيين، وعيون الأخبار، وكتب الكتابة والنقد والبيان، ومنها كتب الفصاحة للسجستاني، والبلاغة للمبرد، ثم كتب الشعراء وأخبارهم وطبقاتهم، وغير ذلك[(٣)].

وهناك من يرى أن الحياة الأدبية في هذا العصر تمتاز بخلال أربع هي: "الشك، والمجون، وحرية العواطف، وسهولة اللفظ، وإذا أردنا مثالاً يختصر هذا العصر ويشخصه فهذا المثال هو أبو نواس"[(٤)].

إن من أشهر أعلام النهضة الأدبية في عصر الجاحظ: أبو نواس، ومسلم، وأبو

---

(١) خفاجي، تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، ص١٧.

(٢) الديوان، ص٧٦.

* وهو من قول أهل الهند أن مدارات الأفلاك يحيط بها مدار واحد، وأن الأفلاك الصغار تدور وتعود إلى المدار، ولكن المدار الأكبر إذا انتهى من دائرته توقف كما كان قبل الحركة فتكون القيامة ويعود الكون سيرته الأولى دواليك) العقاد، عباس محمود، الحسن بن هانئ، ص١٥٠.

(٣) انظر: خفاجي، تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول.

(٤) حسين، طه، حديث الأربعاء، ص٤٩.

العتاهية، وأبو تمام، وغيرهم مثل العتابي وديك الجن.

أما أبو نواس فقد درس على أيدي علماء كبار "فاختلف إلى أبي زيد فكتب الغريب من الألفاظ ثم نظر في نحو سيبويه ثم طلب الحديث، فكتب عن عبد الواحد بن زياد، ويحيى القطان، وأزهر السمان وغيرهم، فلم يتخّلف عن أحد منهم"[(١)].

كذلك درس عند أبي عبيدة بن المثنى وخلف الأحمر وهو من أوسع الرواة حفظاً وأكثرهم رواية لأشعار البادية، وقد تتلمذ على يديه الحسن، وله مع خلف الأحمر القصة المشهورة "أنه استأذن خلفاً في نظم الشعر، فقال له: لا آذن لك في عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة.

فغاب عنه مدة وحضر إليه.

فقال له: قد حفظتها.

فقال: أنشدها، فأنشده أكثرها في عدة أيام، ثم سأله أن يأذن له في نظم الشعر.

فقال له: لا آذن لك إلا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها.

فقال له: هذا أمر يصعب علي، فإني قد أتقنت حفظها.

فقال له: لا آذن لك إلا أن تنساها.

فذهب إلى بعض الديّرة وخلي بنفسه، وأقام مدة حتى نسيها. ثم حضر، فقال قد نسيتها حتى كأن لم أكن حفظتها من قبل.

فقال له: الآن انظم الشعر "[(٢)].

والحقيقة "أن هذا المنهج الذي أخذ به الأستاذ تلميذه، ظاهر فيه أنه إنما أراد إلى تخريج شاعر لا راوية، ومن ثم كان دفعهُ إياه إلى التكثّر من المحفوظ ثم إلى تعمد نسيانه، تحقيقا للغاية من تطبيع الفتى على قوالب النظم الجيّد من غير قتلٍ لملكة الشاعر

---

(١) ابن منظور، أبو نواس في تاريخه، ص٣٣.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص٥٠.

المطبوع فيه"(١).

قال علماء عصره عن علمه أقوالاً كثيرة، قال عنه الجاحظ: "ما رأيت رجلاً أعلم باللغة من أبي نواس وأفصح لهجة مع مجانبة الاستكراه"(٢).

وقال بعض الرواة: "كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر وكان فحلاً راوية عالماً"(٣).

"وكان أبو نواس متكلماً، جدلاً، رواية، فحلاً، رقيق الطبع، ثابت الفهم في الكلام اللطيف"(٤).

وقد قال عن نفسه: "ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب غير الخنساء، فما ظنك بالرجال؟ وإني لأروي مئة أرجوزة لا تعرف"(٥).

وقال الإمام الشافعي: "لولا مجون أبي نواس لأخذت عنه العلم"(٦).

وقال ابن خالويه: "لولا ما غلب عليه من الهزل لاستشهد بكلامه في كتاب الله، وذلك لأنه - أي أبو نواس - تعلم اللغة من أساطينها، ورحل إلى البادية فأخذ عن العرب وحفظ لغاتهم وأتقنها"(٧).

ويقول هدارة: "وكيف نفسر قول أبي نواس:

ألم ترَ الشمسَ حلتْ الحملا   وقام وزنُ الزمانِ فاعتدلا

----

(١) صدقي، عبد الرحمن، ص٤٥.

(٢) ابن منظور، أبو نواس في تاريخه، ص٢١.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص٤٩.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص٢٦.

(٥) المرجع السابق نفسه، ص٥٠.

(٦) الزركلي، الأعلام، ج٢/ ص٢٢٥.

(٧) ابن منظور، أبو نواس في تاريخه، ص٥.

وغنَّـــتْ الطــيرُ بعــد عُجْمَتِهــا واسـتوفتْ الخمـرَ حولهـا كَمَـلاً

إلا أن نؤمن بقول ابن قتيبة في ذلك: "وكان أبو نواس متفننا في العلم قد ضرب في كل نوع منه بنصيب، ونظر مع ذلك في علم النجوم"[(١)].

امتزجت تلك العلوم والحركات الفكرية التي نشأت في هذا العصر في عقل شاعرنا الذي حرص على التعلم وحضور مجالس العلم والأدب، فقد كان يدخل بعض الألفاظ الأجنبية كالفارسية والتي يتقنها في أشعاره وذلك للتملّح أحيانا ولشعوبية غير صادقة أحياناً أخرى، لكن تظل العربية تتعمق في نفسه، يتردد صداها في أشعاره التي تتدفق فصاحة وعذوبة وتجديداً، ولقد رأينا من ارتياده للأسواق وحرصه على امتلاك السليقة العربية من منابعها الأصلية وحفظه لكثير من دواوين العرب القديمة، أنه نسيج متكامل من العلوم والثقافات "من أجل ذلك كانت أبواب الشعر في ديوان أبي نواس كثيرة، حتى أن هذه الأبواب نفسها تنقسم في حقيقتها فصولا عدة: هذا وصف فارسي، وتلك فلسفة إغريقية، وهذا مديح في صورة صادقة للبداوة، هنالك وصف المساجد والأديرة، هنالك وصف للخمر والعبث، وصف للحدائق والأزهار، هنالك جدال في الدين وبحث في ما بعد الموت: في المغفرة والعفو في الآخرة، صور كانت كلها من موضوعات الجدل في جميع طبقات البيئة العباسية، من أجل ذلك شاع شعر أبي نواس، وخمل بشيوعه شعراء كثيرون لا يقلون عن أبي نواس مقدرة وشعرا"[(٢)].

وكما أن هذه العلوم ستؤثر بشكل وبآخر في اتجاهات الشاعر بشعره، فإنها ستبرز أيضاً جانباً سننسبه إليه في الصفحات القادمة من البحث.

----

(١) هدارة، اتجاهات الشعر العربي محمد، ص١١١.

(٢) فروخ، عمر، أبو نواس، ص٧٣.

۞ الحياة الدينية:

إن كانت حانات بغداد والبصرة تعجّ بالخمور وأكثر مرتاديها من المجان والزنادقة، والدور والحانات مليئة بالقيان والجواري والمغنين والمغنيات، فإن مساجد بغداد والبصرة وسائر مدن الخلافة العباسية كان يؤمها جمع غفير من طلاب العلم الذين يحضرون دروس العلماء والفقهاء، فكانت العراق تشهد مجتمعاً مختلف الضروب والتيارات "وطبيعي أن ذلك لم يكن عاماً بحيث يشمل الجيل كله، فقد كان هناك الفقهاء والوعاظ وأهل الصلاح، إنما كان ذلك يجري بين نفر من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دور النخاسة وحانات المجون وبيوت اللهو والعبث"(١).

وكما شهدت العراق ارتفاعاً في موجة المجون شهدت ارتفاعاً آخراً في موجة مضادة لتلك الموجة وهي موجة الزهد، وربما من الطبيعي "أن يكون العراق هو الإقليم الذي شهد ارتفاع هذه الموجة من الزهد ارتفاعاً شديداً؛ لأنه الإقليم الذي شهد أشد موجات الاضطراب السياسي والانقلاب السياسي والاجتماعي في القرن الثاني الهجري، والواقع أن مجتمع القرن الثاني الهجري لم يكن كله لهواً ومجوناً وخلاعة وانحرافاً وشذوذاً، وإنما كانت فيه جوانب خيرة كثيرة، فكما كانت حانات بغداد والبصرة والكوفة وبيوت القيان بها تغصّ بالمجّان والخلعاء والشذاذ الذين التفوا حول جواريها وغلمانها، يعيشون حياة لاهية إلى أقصى درجات اللهو ويستمتعون بمتعها وملذاتها إلى أبعد درجات الاستمتاع، كانت هذه المدن تغص بالوعاظ والعباد والزهاد الذين رفضوا الدنيا وزينتها، وفي كل حلقة من حلقات المساجد وفي كل ركن من أركانها وعاظ يذكرون الناس بفناء الحياة وخلود الآخرة وما ينتظر المتقين من ثواب وما ينتظر العاصين من عقاب"(٢).

فكان عامة الشعب بعيدين عن أجواء المجون واللهو الذي كان غالباً ما يكون

---

(١) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، ج٣/ ص٢٢٠.

(٢) يوسف، خليف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ص٢٦.

مقصوراً على فئات معينة من المجتمع العباسي كما ذكرنا سابقاً، فانتشر هؤلاء الوعاظ الذين اتخذوا من زوايا المساجد حلقات لدروسهم التي يعظون فيها العامة والخاصة أحياناً، فقد كان بعضهم يعظ الخلفاء ويذكرهم، كابن السماك، وصالح عبدا لجليل، وكان بجانب الوعاظ، النسّاك الذين تبتلوا وزهدوا عن ملذات الدنيا، كعبد الله بن المبارك، وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض.

وطه حسين الذي سمى هذا العصر عصر الشك والمجون في مقالاته: "حديث الأربعاء" يعترف ويقول: "فأنت ترى أن من الإنصاف وحسن الوفاء للتاريخ اضطرارنا إلى أن نعترف بأن الشك والمجون لم يكونا كل شيء في ذلك العصر، وإنما كان إلى جانب الشك يقين وإلى جانب الهزل جد"(١).

فانتشرت الكثير من العلوم في هذا العصر ومنها العلوم الدينية التي نشأت "في ظلال الحديث النبوي، وقد أخذ رواته يضيفون إليه ما أثر عن الصحابة لا في تعاليم الدين فحسب بل أيضا ما أثر عنهم وعن الرسول الكريم في تفسير الذكر الحكيم، وبذلك حمل الحديث كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير وقد أخذ يدون تدويناً عاماً منذ أوائل القرن الثاني الهجري"(٢).

ومن أشهر من برز في التشريع: مالك (١٧٩هـ)، الليث بن سعد (٩٢-١٧٥هـ) أحمد بن حنبل (٢٤٠هـ) وغيرهم الكثير. وفي التصوف برز إبراهيم بن أدهم البلخي (١٦٢هـ)، وصالح المرى الزاهد واعظ البصرة (١٧٢هـ)(٣).

وقد ازدهرت في هذا العصر علوم دينية أخرى كعلم الكلام والاعتزال وكانت فرقة المعتزلة من الفرق التي اشتهرت بمساجد البصرة وجذبت الشباب إليها بقوة حججهم وجدالهم وأثّرت في الفكر السائد آنذاك وصبغته بصبغة فلسفية.

---

(١) حسين، طه، حديث الأربعاء، ص٤٢.

(٢) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، ج٣/ ص١٢٦.

(٣) انظر: خفاجي، تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، ص١٩.

كما قد نتج عن انتشار جو المجون واللهو وشيوع الترف والبذخ اتجاهاً في هذا العصر للزهد والتصوّف وإن كانت معالم التصوف لم تتضح في هذا العصر.

ومنهم من يرى أن "نزعة الزهد رد فعل طبيعي للنزعات السابقة المنحرفة وما ترتب عليها من اندفاع طائفة كبيرة من الناس ليغمروا أنفسهم في تياراتها الصاخبة، فظهرت طائفة أخرى أنكرت عليهم هذه الحياة المادية المرتبطة بالأرض ارتباطاً رخيصاً، فمضوا يقفون في وجه تياراتها ويقيمون السدود في طريقها ليقللوا من شدة اندفاعها، وراحوا يصبون فيها ماءاً بارداً ليخففوا من درجة حرارتها التي كانت تجتذب الشباب إليها، كما تجتذب النار الأفاعي، فاتجهوا إلى الزهد والتقشف، وأداروا ظهورهم للحياة ومتعها، ومضوا يدعون الناس إلى عالم روحاني، ويذكرونهم بأن هذه الحياة التي جرفتهم في تياراتها المادية حياة فانية، يقف الموت على حياتها بالمرصاد، وأن وراءها حياة باقية خالدة يحاسب فيها المرء على ما قدمت يداه في حياته الدنيا، وراحوا يعزفون على أوتارهم السود ألحان الموت والفناء، لعل تذكيرهم بانطفاء جذوة الحياة من أجسادهم حينما تمتد إليها يد الموت الباردة يحدث تأثيره في نفوسهم التي طال انغماسها في هذه التيارات الحارة الصاخبة"(1).

والحقيقة أن الاتجاه نحو الزهد لم يكن وليد تلك الظروف التي عايشها المجتمع العباسي، بل كان موجوداً في النفوس دائماً وأبدا إلا أنه يتحرك ويشتد حسب ارتفاع نسبة الفساد الذي يعيشه المجتمع وانخفاضه، فيزداد ويقوى كلما غرق المجتمع في اللهو والمجون وانكب على الملذات، فالزهادة شيء أصيل في المجتمع الإسلامي منذ أن أشرق الإسلام بأنواره على النفوس فأحياها بقيمه وأحكامه التي جعلته ديناً عالمياً يجتاح القارات.

ولعل من أهم الكتب التي أنتجها هذا العصر في العلوم الدينية كتاب الموطأ لمالك، وكذلك كتب المسانيد التي تخلص أصحابها من ترتيب الحديث على أبواب الفقه وأخذوا

---

(1) يوسف، خليف. (د. ت). في الشعر العباسي نحو منهج جديد، القاهرة: دار الثقافة للطباعة، ص٢٨.

يرتبون الأحاديث على أساس رواته من الصحابة، كما ازدهر التأليف في تفسير القرآن الكريم والفقه ازدهاراً كبيراً وقد تعددت مراكز الحياة العقلية العربية في هذا العصر "فنشطت الدراسات الدينية واللغوية في مصر، وتفوقت الشام في الشعر والآداب واللغة"[(١)].

وإن تعددت مصادر الثقافة في هذا العصر إلا أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كانا من أهم المصادر التي استقى منها الشعب ثقافته، وكذلك الكتب التي ألفت في علوم القرآن كمجازه ونظمه كان لها قدراً من التأثير في نفوس من عاش هذا العصر، "ويمكننا أن نقول إن أكثر المذاهب الدينية والفلسفية التي كانت شائعة في القرن الثاني كان لها تأثير بصورة أو بأخرى في اتجاهات الشعر"[(٢)].

فقد تأثرت معاني بعض الشعراء بالعلوم الدينية التي انتشرت في هذا العصر كأبي العتاهية وكذلك شاعرنا النواسيّ فقد "نشأ أبو نواس بالبصرة وقرأ القرآن على يعقوب الحضرمي، فلما حذق القرآن رمى إليه يعقوب بخاتمه وقال له: اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة"[(٣)]، وقد "طلب الحديث، فكتب عن عبد الواحد بن زياد، ويحيى القطان، وأزهر السمان وغيرهم، فلم يتخلّف عن أحد منهم"[(٤)] كما ذكر ابن المعتز في طبقاته "كان أبو نواس عالماً فقيهاً، عارفاً بالأحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وقد تأدب بالبصرة وهي يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً"[(٥)].

وقيل إنه "صحب أهل المسجد والمجان واشتهى الكلام، فقعد إلى أصحابه فتعلّم

---

(١) خفاجي، تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، ص١٦.

(٢) هدارة، اتجاهات الشعر العربي، ص١٠٦.

(٣) ابن منظور، أبو نواس في حياته، ص٢١.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص٣٣.

(٥) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص١١٨.

منهم شيئاً من الكلام"[١].

ويدلّ على معرفته بالكلام ألفاظ من شعره، منها قوله[٢]:

وذات خـــــدّ مــــــورَّد فتانـــــــــة المتجـــــــــرَّد
تأَّمـــــلُ النــــــاس منهـــــا محاســــنها لـــــيس تنفـــــد
الحـــــسن في كــــل جــــزء منهـــــا مُعـــــادٌ مـــــردد
فبعـــــــضهُ في انتهــــــاء وبعـــــــضه يتولَّـــــــــد

ومنها قوله في امرأة اسمها حسُن[٣]:

إنَّ اســم حُـسْنٍ لوجههـا صـفةٌ ولا أرى ذا في غيرهـــا اجتمعـــا
فهــي إذا سُــمِّيَتْ فقــد وصــفت فيجمــع اللفــظ معنيــين معـــا

وقد كان يحضر مجالس المتكلمين لاسيما النظام والـذي قـال فيـه أبي نـواس قـصيدته المشهورة[٤]:

دع عنك لومي فإن اللـومَ إغـراءُ وداوني بـالتي كانـت هـي الـداءُ

إلى أن قال:

فقل لمـن يـدعي في العلـم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ
لا تحظر العفو إن كنت امرأ حرِجاً فــإن حظركـــهُ في الـــدين إزراءُ

وقد يتضح الحديث عن تأثير هذه الحياة الدينية في شعر الشاعر بعد دراستنا لـشعره والقيم الموجودة فيه في الفصول القادمة.

---

(١) ابن منظور، أبو نواس في حياته، ص٢١.

(٢) الديوان، ص١٨٧.

(٣) نفسه، ص٢٠٩.

(٤) نفسه، ص٢٧.

❁ عقيدة أبي نواس وحقيقة زهده:

لم يكن أبو نواس زنديقاً لا يؤمن بدين ولا ملحداً منكراً للأديان كما تخبر بذلك بعض الكتب التي تروي أخباره، تلك التي تحكي عن قصائد كثيرة له فيها استهتار بالدين وتعاليمه والتصريح بارتكاب المعاصي والمحرمات بدون أي رادع أو خوف، وتحكي سجن الخلفاء له بسبب زندقته ومجونه وعفوهم عنه بعد استعطافهم بقصائد منه تحكي عن عقيدته ومعتقده، بل إنه أحيانا وفي غمرة مجونه وإغراقه في المعاصي يعترف أنهم عصاة لكنهم لم يشركوا بالله أو يكفروا به وانظر إلى قصيدة خمرية يذكر فيها مجلسا له ولأصدقائه في بيت خمّار يرتادونه فيقول [(١)]:

طربت إلى خمرٍ، وقصف الدساكر ومنزل دهقان بها غير داثر

إلى ان يقول [(٢)]:

فما زال هذا دأبنا وغذاءنا ثلاثين يوماً مع ليالٍ غوابر

ترى عندنا مايغضب الله كله سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر

وقد تكون مبالغته في قصائده واستهتاره بالقيم الدينية وتصريحه بالسكر ومعاقرة الخمر جهاراً ومقارفة الذنوب، هي ما جلب هذه التهمة إليه، والحقيقة أنه لم يُظلم من قبل من حبسه واتهمه بالزندقة فهو من جلب لنفسه هذه التهمه بكثرة تعرضه للدين واستهتاره بقيمه لحظات سكره وعبثه، رغبة في الشهرة والظهور أحياناً واستجابة لداعي العبث والمجون في نفسه أحياناً أخرى ولعل استجابته لهذا الداعي - أعني داعي الاستهتار والعبث- هو أقوى الأسباب في إيقاعه في مشاكل كثيرة مع السلطة والمجتمع آنذاك لذلك يرى الكثير أنه "أهم شاعر يمثل هذا الفساد الخلقي من جميع نواحيه"[(٣)].

---

(١) الديوان، ص١٦٩.

(٢) نفسه، ص١٦٩.

(٣) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، ج٣/ ص٢٢٠.

فقد رُوي أنه دخل المسجد مرة وهو على أقبح السكر "فقرأ الإمام: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾، فقال أبو نواس: لبيك، فتواثب الناس إليه وشهدوا عليه بالكفر ورفع خبره إلى الرشيد فأمر بإحضاره فأحضر وأحضر معه حمدويه صاحب الزندقة، فأخبره بحاله وسأله عنه فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه وهو يشبه أنه رجل ماجن ليس بزنديق، فقال له الرشيد: قد وقع في نفسي منه شيء فامتحنه، فوضع له صورة وقال ابصق عليها فأهوى بفيه ليقيء عليه فلم يطاوعه القيء فامتخض عليها، فضحك الرشيد منه وعلم أنه ماجن"(1).

ومن شعره الماجن الذي أقام الحجة عليه في المجون حيناً والزندقة حيناً قوله في الخمر (2):

فخـذها إن أردت لذيـذ عـيشٍ ... ولا تعـدل خلـيلي بالمُـدامِ
وإن قـالوا: حـرام قـل: حـرام ... ولكـنّ اللـذاذةَ في الحـرامِ

وقوله(3):

الـراحُ شيء عجيـبٌ أنـت شـاربه ... فـاشرب وإن حمّلتك الـراحُ أوزارا
يـا مـن يلـوم عـلى حمـراء صـافيةٍ ... صِر في الجنـانِ ودعني أسكن النـارا

وترتفع النغمة لديه أحياناً لتصل إلى التطرّف والشك في الدين فيقول (4):

يـا نـاظراً في الـدين مـا الأمـرُ ... لا قـدرٌ صـحّ ولا جـبرُ

---

(1) ابن أحمد، أبوهفان عبدالله. (د. ت). أخبار أبي نواس، تحقيق: عبد الستار أحمد، مكتبة مصر، ص١٢٢و١٢٣.

(2) الديوان، ٥١٩.

(3) نفسه، ص١٠٢.

(4) ابن منظور، أبو نواس في تاريخه، ٢٠٧، لم أجد هذا البيت في ديوان أبي نواس، شرح وتحقيق عبد المجيد الغزالي.

ما صحّ عندي من جميع الذي تذكر إلا الموت والقبرُ

في البداية من المهم معرفة أنه قد نسب الكثير من شعر المجون والخمر والغزل بالمذكر إلى هذا الشاعر، فكان له كثير من الشعر المنحول إليه، يقول ابن المعتز في إحدى قصائد والبة بن الحباب -وهي في المجون والتي ينسبها الناس لأبي نواس-: "وهذا الشعر مما ينحله العامة أبا نواس وذلك غلط؛ لأن العامة الحمقى قد لهجت أن تنسب كل شعر في المجون إلى أبي نواس، وكذلك تصنع في أمر مجنون بني عامر كل شعر فيه ذكر ليلى تنسبه إلى المجنون"(١). كما أشار أبو الفرج الأصفهاني إلى ذلك في ترجمته للحسين بن الضحاك الخليع بأنه "كان إذا شاع له شعر نادر في الخمر نسبه الناس إلى أبي نواس"(٢).

كما ذكر فاغنر -محقق ديوان أبي نواس- هذه الحقيقة والتي جعلت الكثير من الشعر ينسب إليه قائلاً: "لم يجمع أبو نواس نفسه أشعاره وهكذا نفتقد من جانب كثيراً من شعره لاسيما القصائد المصرية التي بقيت غير معروفة في العراق، كما نجد من جانب آخر أشعاراً كثيرة تنسب إليه دون حق خصوصاً في باب الخمريات وغزل المذكر"(٣).

كما أشار شوقي ضيف إلى رواية حمزة الأصفهاني عندما تحدث عن مجون أبي نواس قائلاً: "ونحن لا نريد أن نبرئه من الفحش ولا من الغزل الماجن، إنما نزعم أنه حمل عليه كثيراً في هذا الباب ومن ثم ينبغي أن لا نتسع في أحكامنا عليه، وربما كانت أسوأ رواية لديوانه رواية حمزة الأصفهاني فإنها تمتلئ بالشعر الموضوع ولذلك لا يصح أن تتخذ أساساً لدرسه وبحثه"(٤).

أما فيما يتعلق في المنحول من أخباره فتذكر أمينه الحشاني أن أبا نواس تحول إلى ما

---

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص٨٨.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني. (د. ت). الأغاني، تحقيق: سمير جابر، بيروت: دار الفكر، ج٧، ص١٤٦.

(٣) ديوان أبي نواس، رواية حمزة الأصفهاني. (١٩٥٨م). تحقيق: إيفالد فاغنر، القاهرة وفيسبادن: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج١/ ص٢٢.

(٤) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، ص٢٣٦.

يشبه الشخصية الأسطورية فدخل في قصص ألف ليلة وليلة، كما صُنفت في فحشه ونوادره كتب مستقلة بدأها أبو هفان بكتابه: "أخبار أبي نواس" ثم تطورت من بعده، كما ترى أن شخصيته اقترنت في الغالب بشخصية هارون الرشيد رغبة من القاص في إدماج قصته في كتب القصص والحكايا لعلمهم بشغف القارئ بتتبع أخبار الممتازين، كما تشير إلى كثير من الأخبار والقصائد التي تجد فيها كثير من الخطأ والتناقض التاريخي(١).

وفي الحقيقة أن الجميع متفق بأنه ليس شاعراً إسلامياً أو ذا اتجاه زهدي إلا أنه من المهم في البداية نفي حقيقة الزندقة عنه، يروي أبو هفان في أخباره: "حدثني يوسف بن الداية أن أبا نواس كان محافظاً على صلاته إلا أن يسكر، وكان يقضي ما يفوته منها حين يفيق من سكره"(٢).

كما يشير عبد الرحمن صدقي إلى هذه القصة قائلاً: "وقد ألقي أبو نواس في سجن الزنادقة للمرة الأولى وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره، فلقي فيه حماد عجرد فقال في وصفه: كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم، وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرؤون به صلاتهم، ولاشك عندنا أن القارئ لهذا الحديث يستشعر منه استنكار الفتى ونفوره حين ظهر له أن زندقة حماد عجرد حقيقة لا لهو، وأكبر الظن أن أبا نواس لم يكن يتزندق عن عقيدة وإنما كان يظهر الزندقة تظرفاً وليس هو في ذلك نسيج وحده بل مثال من أمثلة كثيرة العدد على روح العصر"(٣).

ويذكر له ابن المعتز بعض الصفات المحمودة فيقول: "ومما ذكر من خصال أبي نواس المحمودة، ما حدثني به أحمد بن أبي عامر قال: حدثني شحطة قال: كان أبو نواس

----

(١) عبدالله، أمينة. (٢٠٠٦م). الدراسات النقدية الحديثة عن أبي نواس. القاهرة: مجلس الثقافة العام، ص٦٩و٧٠و ٧١.

(٢) أبو هفان، أخبار أبي نواس، ص٤٩.

(٣) صدقي، عبد الرحمن، أبو نواس قصة حياته وشعره، ص٦٧ و٦٨.

عالماً فقيهاً، عارفًا بالأحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وقد تأدب بالبصرة وهي يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدبًا، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين"(١).

ولاشك إن صح هذا الخبر فذلك حجة عليه لا له، لكنها دليل على جانب آخر من حياته غير ذلك الجانب الذي تحكيه كتب الأخبار تلك التي جعلته مرتاداً للحانات نزيلاً فيها لا يهمه سوى السكر والعبث والتهتك فقط لا يكاد يفقه من الدنيا سوى ضروب المتعة والمجون ومعاقرة الخمر ومغازلة الغلمان والجواري.

ويقول ابن خلكان: "ورأيت في بعض الكتب أن المأمون كان يقول لو وصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل قول أبي نواس :

ألا كل حيٍّ هالِكاً وابنَ هالِكٍ ... وذا نَسَبٍ في الهالكينَ عَريقِ
إذا امتَحَنَ الدّنيا لَبيبٌ تكَشَّفَتْ ... لهُ عَنْ عَدوٍّ في ثِيابِ صَديقِ"(٢)

ويقول: "وما أحسن ظن أبي نواس بربه -عَزَّوَجَلَّ- حيث يقول:

تكثر ما استطعت من الخطايا ... فإنك بالغ رباً غفوراً
ستبصر إن وردت عليه عفواً ... وتلقى سيدا ملكاً كبيراً
تعض ندامة كفيك مما ... تركت مخافة النار السرورا

وهذا من أحسن المعاني وأغربها"(٣).

مع تحفظنا على ما ذكره ابن خلكان هنا فعفو الله كبير لاشك، لكن ذلك ليس

---

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص١١٨.

(٢) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين. (د. ت). وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ج/ ٢ ص٩٧.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص١٣٦.

مدعاة إلى مقارفة الذنوب وارتكاب الخطايا اعتمادًا على عفو الله، فالله أخبر عن نفسه بقوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[1]، لكنها حتماً تحكي جانباً من الرجاء كبير، أخطأ الشاعر في تقديره، فالرجاء مع التوبة لا مع مقارفة الذنب والاستمرار فيه، وهذا ديدن المسلم ومنهجه في كل شؤون حياته، والحقيقة أن هذا الشاعر شغل كثيراً من الأدباء والمؤرخين وقليل من لم يتعرض له بكتاب أو مقال أو تعليق، فشخصية النواسي شخصية مثيرة للجدل، تجذب الباحث والمتقصي في الأدب كما أن شعره حكاية أخرى وإبداع ثان، كان له نصيب أيضاً من الدراسة والتحليل.

ويقول طه حسين في هذا الشأن: "على أني لا أستطيع الحكم على أبي نواس أكان هو مسلماً حقاً أم لم يكن، ولعل أصدق حكم ممكن في أبي نواس هو أنه تجاوز حدود الإسلام وازدرى أصوله وقواعده غير مرة في حياته الطويلة، ولنقل إن شعره في الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضاً"[2].

وينفي العقاد في كتابه ما قيل عن زندقته فيقول: "وليقل من شاء ما شاء في زندقته ومجونه وعصيانه ولغو لسانه، فإنه بعد كل ما يقال من هذا القبيل بعيد جدًا أن يحسب من اللادينيين الذين صغر مكان الدين من نفوسهم فلم يشغلهم منه شاغل ولم يكن فيه ولا في أهله ما يهمهم على وجه من الوجوه، وإذا صرفنا النظر عن نوع اشتغاله بشأن الدين، فإنه ليس بين شعراء العربية من عناه هذا الشأن كما عناه، إذ هو لم يذكر مجلساً قط من مجالس لهوه ولا معرضاً من معارض غزله إلا أشار معه إلى جوه الديني أو علاقته الدينية بغير داعية من دواعي الموضوع أو المقام، ولو ذهبنا نستقصي هذه الإشارات لأوشكنا أن ننقل ديوانه غزله ومجونه

مثل قوله في الغزل:

----

(١) الحِجر: ٤٩ – ٥٠.

(٢) حسين، طه، حديث الأربعاء ص١٦٨.

ألا يـــا قمـــر الـــدارِ ويـــا مـــسكة عطـــارِ
ويـــا نفحـــة نـــسرين ويـــا وردة أشـــجارِ
ويـــا عـــرش سـليمانِ إذا هـــم بأســـفارِ
ويـــا مزمـــار داود إذا يـــتلى بأســـحارِ
ويـــا كعبـــة بيـــت الله ذا ركـــن وأســـتارِ
لقـــد أصـــبحت مـــن حبـــك بـــين الخلـــد والنـــارِ

ولا نهاية لهذا المعنى إلا باستنفاد خمرياته وغزلياته، فهو لا يني في قصائده هذه "يتحرش بالدين" والعبادة ويدل تحرشه هذا على العاطفة التي ينم عليها التحرش عادة، وهي عاطفة ليست من العداء وليست من الازدراء ولكنها شغلان يشوبه العبث، واهتمام لا يقوى على الجد ولا على الترك والنسيان، فالتحرش قبل كل شيء اهتمام"(١).

ولو تأملنا قصيدته لتعجبنا على الذي يجبر زنديقاً على ذكر ألفاظ تؤكد حقيقة البعث والجزاء وهي إما الجنة أو النار، ولماذا يذكر أنبياء الله أصحاب الرسالات السماوية التي ينكرها كل زنديق وملحد، بل وذكره للكعبة ووصفها بأنها بيت الله يبين حقيقة انتمائه الديني ومدى تأثره به.

كما تذكر كتب الأدب أخباراً كثيرة تروي حججاً له أشهرها تلك التي نظم فيها التلبية شعراً التي يقول في مطلعها(٢):

إلهنـــا، مـــا أعـــدلكْ
مليـــكُ كـــلُ مـــن ملـــكْ
لبيـــك، قـــد لبيـــتُ لـــكْ
لبيـــك، إن الحمـــد لـــكْ
والملـــك، لا شريـــك لـــكْ

---

(١) العقاد، عباس محمود. (د. ت). الحسن بن هانئ، بيروت: المكتبةالعصرية، ص١٤٨.

(٢) الديوان، ص٤٦٧.

وإن كانت الأخبار تحكي أنه حج لرفقة محبوبته جنان التي أرادت الحج إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يتفاعل مع الموقف الذي أثار عاطفته الدينية لرؤيته الحجاج والمشاعر، "وهو كما ترى حج لم يكن خالصا في أصله لوجه الله -عَزَّوَجَلَّ-، ولم يخل من العبث، ولكن ما أن استتب به المقام في البقعة الطاهرة حتى غلبته نوبة صادقة من الصلاح والتدين نظم فيها أنشودته الدينية البديعة إلهنا ما أعدلك"(١).

يقول عنه أنيس المقدسي: "وإنا لنظلم أبا نواس إذا حصرنا حياته وأدبه في هذه الدائرة التي وضعته فيها كتب المأمون فقد كان غير ذلك، ولكن المجون غلب عليه، وصرف في سبيله مواهبه"(٢).

كما يقول عبد الرحمن صدقي في هذا الصدد: "و القارئ لأبي نواس ينتهي لا محالة إلى أن الشاعر يعترف على نفسه أكثر مما يقترف"(٣).

ويقررّ النويهي أن الشاعر: "ليس كافراً وليس متشككاً، ولكنه في المرتبة التي سموها "منزلة المؤمن العاصي"، والذي يسوقه إلى هذا العصيان ضعف نفساني لا ضعف إيماني، وهذا ما يجب أن نتذكره حين نقرأ له شعراً يحاول فيه أن يوهمنا - ويوهم نفسه - عكس ذلك"(٤).

أما العربي حسن درويش من خلال دراسته للشاعر فيرى أنه " ما شك قط في البعث وما يعقبه من الثواب والعقاب وإن حاول أحيانا أن يخادع نفسه ويقاوم إيمانه العميق فكلها محاولات لتحذير ضميره الذي يؤنبه على سوء سيرته، وهي محاولات أشهد نظائرها في بعض من نعرفهم ممن لا نشك في صدق إيمانهم ولكنهم يتصنعون الشك وعدم المبالاة حين يريدون أن يسهلوا على أنفسهم الخضوع لإغراء لذة وقتية

----

(١) النويهي، نفسية أبي نواس، ص٨٤.

(٢) المقدسي، أنيس، أمراء الشعر العربي، ص١٠٥.

(٣) صدقي، عبد الرحمن، أبو نواس قصة حياته، ص١٨٠.

(٤) النويهي، نفسية أبي نواس، ص١٠٢.

يعلمون أنها آثمة"[١].

حقيقة إن أغلب شعراء هذا العصر والعصور الأخرى قد اتجهوا بشعرهم إلى أغراض أخرى تناسبت وعصرهم وحياتهم وثقافتهم كالمدح والهجاء والفخر والنسيب والرثاء، إلا أن ذلك لا يعني أن لهم نفساً لا تفيق ولا تنيب في اللحظات التي تستدعي ذلك سواء كانت مصادفة أو نجوى.

قد رجح بعض الأدباء والدارسين لشعره صدق زهده وعللّوا ذلك بأسباب كثيرة منها ما ورد في الأغاني من أنه تنسك في آخر عمره[٢].

وما أورده ابن هفان في أخباره، قال: "حدثني محمد بن سعيد: أنه لقي أبا نواس قبل موته بجمعة وقد تأله وتقشف فقال له: يا أبا علي إلى كم يكون الشذوذ عن الله والتهور في الضلالة؟ فقال: لا عدت والله في الضلالة ولا في معصية ما حملت عيني الماء وإن نفسي لتتقطع حسرات على ما فرطت من سوالف ذللي، فلما كانت الجمعة الأخرى قيل لنا: الحقوا جنازة أبي نواس"[٣]. والحقيقة أننا لا نجزم بهذا الخبر فقصائده تحكي غير ذلك ومع هذا لا نستطيع الجزم أيضا بعكس ذلك فتحديد خاتمة شخص ليست بالسهولة التي نتخيلها لكن الحقيقة التي نصادق عليها أنه ندم وتاب غير ذي مرة.

كذلك عللوا صدق زهده بسبب صدق العاطفة وتلك الحسرة التي ترددها أبياته وإلحاحه في طلب العفو والمغفرة، تلك المشاعر التي نقرأها في شعره فتجعلنا نشعر بأنه نادم وتائب إلى الله.

لذا يرى عمر فروخ أن "أبو نواس كان وطيد الإيمان بالله حسن الاعتقاد بأصول الدين، ولكنه كان ينحو في تأويل الفروض والآيات منحى خاصاً به عاماً في كثيرين

---

(١) درويش، العربي حسن. (د. ت). أبو نواس وقضية الحداثة العربي، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ص٣٤٢.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ١٨/ ٢.

(٣) أبو هفان، أخبار أبي نواس، ص٩٩.

من أصحاب الآراء المستقلة، وكان يعتمد عفو الله ويتفاءل بعفوه أكثر مما يتشائم بوعيده"[١].

نجده يعتذر لنفسه في إتيان الذنوب فيقول[٢]:

اتـرك التقصير في الشربِ وخـذها بنـشاطِ

مـن كُميت كسناءِ البرْقِ أضـاءت في البـواطي

لم؟ وعفـو الله مبـذولٌ غـداً عنـد الصراط

خُلـق الغفـرانُ إلا لمـريء في النـاس خـاطي

فهو يرى أن عفو الله ومغفرته ما خُلقا إلا للعصاة والمخطئين.

يقول علي نجيب العطوي عنه: " لم يكن إذن أبي نواس زنديقاً ملحداً، وإنما كان مستهزئاً مسرفاً في الخلاعة والمجون ويؤمن في اعماقه بالله في الوقت نفسه، فليس عجيباً إذن ان يحاول التزهد مرات كثيرة من خلال مسيرة حياته خاصة في آخرتها، بعد ان شبعت نفسه من المعاصي، وبرى الداء جسمه برياً "[٣].

إن النفس البشرية لابد أن تمر بلحظات إفاقة وإنابة نترجمها نحن دموعاً ومناجاة وإعلان توبة، ويترجمها الشعراء إلى جانب ذلك شعراً يحكي حقيقة هذه التوبة أو النوبة التي اعترته فجعلته نادماً تائباً مستغيثاً بربه راجياً عفوه ومغفرته، أما ما حدث بعد تلك اللحظات فهو لا يعنينا بقدر ما يعنينا ما هو بين أيدينا من شعر يحكي تلك اللحظة ويجعلها جديرة بالدراسة من الناحية الموضوعية والفنية، وقد كثرت هذه القصائد والمقطوعات التي تحكي هذه النوبات، نوبات الصحو والإفاقة في ديوان أبي نواس

---

(١) فروخ، عمر، أبو نواس، ص٦٨.

(٢) الديوان، ص١٥١.

(٣) عطوي، علي نجيب. (١٩٨١م). شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة. ط١، بيروت: المكتب الإسلامي، ص٢٩٥.

لذا فهي لم تكن حديث لسان وتصحيح سمعة أو فرداً لعضلات شعره لدى أقرانه فهو لم يحتاج إلى كل ذلك فقد كانت أشعاره الأخرى رائعة فنياً وقد نالت حظوة العامة والخاصة، رددها الصغير قبل الكبير والفقير قبل الغني، فلم كتب ذلك أبو نواس إن لم يكن في لحظتها زاهداً تائبا؟!

لقد تفرقت الأقوال بين الأدباء والمهتمين بسيرة أبي نواس بين جازم بزهده وتنسكه وبين شاك وبين نافٍ لزهده من الأصل، وكل طرف من هؤلاء لديه من الأخبار ما يؤكد صحة اعتقاده ورأيه، فقد كثرت الأخبار التي تحكي عن أبي نواس والتي ذكرنا بعضاً منها في بداية حديثنا في هذا المبحث والتي تبين حقيقة تناقضه وعبثه، فنجده عارفًا بالفتيا ويشرب، عالماً بالأحكام ويصرح بالزنا، ثم نجده تارة نادماً يبكي يطلب المغفرة ويعلن التوبة ويرجو المغفرة، كل ذلك يجعلنا نركن إلى أنه ليس زنديقاً كما أنه ليس متديناً ولكنه شخصية عبثية لا تركن إلى شيء، تتبع هواها أينما حل لا يقيد نفسه بقيود، يعصي ويتوب ثم يعصي ويتوب حسب المواقف والظروف التي يعيشها هكذا نتخيله حتى مات وما تلك القصائد التي قيلت في الزهد سوى نوبات صحو قوية اعترته في لحظة ندم جاءت بعد أكوام من الذنوب أثقلت عاتقه.

يقول في هذا الصدد علي العطوي في تقسيمه لشعراء الزهد "هنالك حالات أخرى تنتابهم فيها صحوة الضمير، وهي فترة المرض، أو فقد عزيز لديهم، أو الكهولة، وما ينتج عنها من تراخي الأعضاء وضعفها، ولكن حتى هذه الأمور برغم قوتها في التأثير على النفوس لا يستمر أثرها فيهم إلا لمرحلة من الوقت قد لا تدوم إلا لأيام إن لم نقل ساعات. وفي مقدمة هؤلاء يتمثل أمامنا أبو نواس الحسن بن هانيء"(١).

ولعلها من رحمات ربي بهذا الشاعر وبنا أن نسمع ونقرأ مقطوعات قيلت في الزهد أبكتنا وحثتنا على الاستقامة، وحفرت في قلوبنا أنه مهما نال الإنسان في هذه الدنيا من الشهوات والملذات فإن ذلك لا يغنيه عن الله ورحمته.

----

(١) عطوي، علي نجيب، شعر الزهد، ص٢٩١.

إن عرضنا لكل ما سبق هو إفهام للقارئ لماهية هذا الشاعر وأسباب تناقضه وعرض للعصر الذي عاشه وبالتالي فهم قصائده التي نحن بصدد تحليلها واستنطاق القيم منها.

إن تحديد اتجاه الشاعر وشعره صعب للغاية "لأن الشعر عاطفة ومعنى ظاهر وباطن، فظاهر المعنى قد يكون دليلاً عليه، وعاطفة الشاعر الخفية أحياناً قد تكون دليلاً عليه، ومع هذا فالمعاني الإسلامية العامة قد يتفق عليها كثير من الدارسين إذا أهملنا صدق العاطفة أو كذبها، إذ لا يهمنا أن يكون الشاعر الإسلامي قد طبق ما يدعو إليه على نفسه وعمل به، لأن الشعراء يقولون مالا يفعلون"(1).

لقد ترك لنا أبو نواس تراثاً رائعاً من القصائد المليئة بالقيم والمعاني الإسلامية، وهذا البحث لا يحصر القيم الإسلامية من شعر هذا الشاعر في قصائد الزهد لديه، بل يتوسع ليستقصي كافة القيم الإسلامية الموجودة في شعره متجنباً بعض الأغراض التي لا تتوافق والاتجاه الإسلامي في الشعر فضلاً عن أن تحوي قيما رفيعة. تلك القيم التي نعتقد أنها جديرة بالقراءة والتحليل ومن ثم الامتثال وإلا فلا خير في قول لا يتبعه عمل.

---

(1) الجهيمان، عبدالله. (١٩٧٤م). اتجاه الشعر الإسلامي في العصر العباسي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية – الأزهر، ص٣١.

الفصل الثاني

القيم الإسلامية في شعر أبي نواس

وفيه خمســة مباحــث :

- المبحث الأول : القيم الإسلامية عند أبي نواس بين النظرية والتطبيق
- المبحث الثاني : القيم الإسلامية في المدح
- المبحث الثالث : القيم الإسلامية في الرثاء
- المبحث الرابع : القيم الإسلامية في الزهد
- المبحث الخامس : القيم الإسلامية في العتاب

❂ مقدمـــــة:

لسنا معنيين في هذا الفصل بشرح أبيات أبي نواس شرحًا أدبيًا محضًا، أو التحدث عن مناسبات قصائده، فقد فعل ذلك الكثير في السابق، لكننا سنستخرج القيم الإسلامية الموجودة في شعره، سنتحدث عن القيمة الإسلامية من خلال الأبيات التي احتوت تلك القيمة، وسنشرح الأبيات محاولين الربط بين القيمة باعتبارها قيمة مجردة، حث عليها الإسلام، وحرص الناس عليها، وبين كونها صادرة من شاعر كأبي نواس، وكذا سنفعل في بقية القيم، سواءً كانت قيماً عقدية، أو أخلاقية، أو تربوية، أو اجتماعية، وهذا من أهدافنا في هذا البحث؛ حتى يستفيد منه أبناء الجيل الذي نعيشه، والأجيال القادمة أيضًا "فما سعادة الأمم بكثرة أموالها، ولا بقوة استحكاماتها، ولا بجمال مبانيها، وإنما سعادتها بأبنائها الذين تثقفت عقولهم، وبرجالها الذين حسنت تربيتهم، واستنارت بصائرهم، واستقامت أخلاقهم، ففي هؤلاء سعادتها الحقة، وهؤلاء هم قوتها الأساسية، وعظمتها الجوهرية"(1)، لذا فنحن نريد أن نستخرج من شعر هذا الشاعر ما نريده نحن في هذا العصر، وفي كل عصر من قيم إسلامية سامية كانت هي السبب في سيادتنا الأرض، وتفوقنا على الأمم يوما ما، فالحديث عن هذه القيم والالتزام بها قد يجعلنا نعيد الالتحاق بركبنا الحضاري الإسلامي، ذلك الركب الذي توقف عن العطاء "عندما اصطدم المسلمون بصخرة الاستعمار، بحيث تجمدت قواهم، وتعطلت قدراتهم الإبداعية، وما زالوا يعانون من هذا الشلل الفظيع ؛ لأن نفوسهم مازالت مقطوعة الصلة بذلك التيار العظيم، الذي أعطاها الدفع القوي في عهود التألق والازدهار... إنه تيار الإسلام، عقيدة، وشريعة، ومنهج حياة، وما يتضمنه كل ذلك من قيم شاملة"(2).

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

(١) السحمراني، أسعد. (١٩٨٨م). الأخلاق في الإسلام، ط١، بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر، ص١٠.

(٢) ابن مسعود، عبدالمجيد. (١٩٨٠م). القيم الإسلامية والمجتمع المعاصر. ط١، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص٥٧.

والأدب يعدّ "مادة ثرية لإكساب الطلاب خبرات وتجارب مختلفة، فكل عمل من أعمالنا الأدبية على مدار العصور المختلفة يحمل في طياته تجارب وخبرات أصحابها الذاتية أو الموضوعية، وبالتالي فإن هذه الخبرات تمكن القارئ أو السامع من زيادة رصيده المعرفي، والثقافي، والقيمي عن طريق اطلاعه على روائع الأعمال الأدبية، التي تزيد خبرته بالحياة، والتي تضيف إلى حياته حيوات مختلفة، فيكتسب عمرًا جديدًا في عمر السنين. أما عن الجانب الوجداني فلا غرو أن الأدب يؤثر في شعور وإحساسات القراء، فكثير من الحقائق التي يعرضها المبدع تجعل القارئ يرضى أو يسخط، يحب أو يكره، و يقبل أو ينفر من هذا العمل"[(١)].

ونحن هنا نحاول قراءة شعر هذا الشاعر قراءة جديدة تغوص في أعماق شعره، فتخرج الدُرّ، وتترك الغث، من مبدأ الحكمة ضالة المسلم، والشعر أولى من غيره في عملية استخلاص تلك القيم، ذلك أن للشعر تأثيرًا على النفس الإنسانية، فهو يؤثر في مشاعرها، ثم تفكيرها، وبالتالي عملها، لاسيما وإن كان هذا الشعر صادرًا من شاعر مجيد أتقن العذوبة والسلاسة، والتدفق أسلوبًا ومعنى.

كما أنها صادرة من شاعر عاش التجربتين، تجربة المجون والعبث، وتجربة الزهد التي لا نجزم أنها رافقته إلى مماته، ولكنها تجربة خاضها، وأثرت فيه. ولعلنا نكون قد أفدنا باتخاذنا الشعر مادة لاستقاء هذه القيم الإسلامية المنشودة فنثيرها، ونخرجها للسطح ؛ ليتمتع بقراءتها كل هاوٍ للشعر، مستمتع فيه، وراغب في التقويم الأخلاقي أيضًا.

ومع حرصنا على إيراد هذه القيم والتحدث عنها إلا أننا لا نستطيع فصل تلك القيم عن الشاعر، ولا تجاهل تأثيره في تلك القيم، وصياغتها الفنية والموضوعية، فالشاعر كالشجرة، وما قصائده إلا ثمارها اليانعة؛ لذا فحديثنا عن القيم سيكون للقيم،

---

(١) عبدالبارئ، ماهر شعبان. (٢٠١١م). التذوق الأدبي: طبيعته-نظرياته-مقوماته-معاييره-قياسه. ط٣، الأردن: دار الفكر، ص٢٩.

ولكن لن نغيّب قائلها عن الحضور لاستحالة ذلك من جهة ؛ ولأن حضوره واجب من جهة أخرى، فنحن نتحدث عن القيم من خلال سياق، وسياقنا هو شعر، ولنفهم الشعر علينا بالشاعر، كما أن في الحديث هذا كشفاً عن جزء من شخصية هذا الشاعر، وطبيعة الإنسان العابث والمتناقض فيه.

سنحاول في هذا الفصل جاهدين الدمج بين القيمة وتوظيفها لدى الشاعر، ومدى مصداقيتها الإسلامية لديه، وأسباب نشاط تلك القيمة، وخمول الأخرى مستعينين على ذلك بما تسعفنا به الذاكرة من حياة الشاعر التي ارتبطت بحديث القيم تلك، ونرجو أن نوفق في ذلك فنعطي القيمة حقها، وننصف الشاعر حقه.

وتجدر الإشارة قبل الولوج إلى أغراض الشاعر والقيم المختزلة فيه أن هناك نوعين من القيم في شعره. قيم إسلامية خالصة، وقيم عربية مشتركة، بمعنى أن الأولى جاء بها الإسلام، ولم تُعرف قبله، والثانية هي قيم موجودة لدى العرب قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أيدها وصبغها بصبغته فثبتت بثبوته، فأصبحت قيمه إسلامية أصيلة، كالكرم، والشجاعة، والمروءة.

المبحث الأول

القيم الإسلامية عند أبي نواس
بين النظرية والتطبيق

القيم الإسلامية عند أبي نواس
بين النظرية والتطبيق.

قد يقف المرء حائرًا حين يتوجب عليه الحديث عن قضية وإصدار حكم عليها، وهو في ذلك ملتزم بالأمانة والصدق في الطرح؛ ليصدر الحكم منه عادلاً، وفي مثل هذه الحالة يتوجب على الباحث أن يستند على مبادئ وأصول تساعده على إبراز ما خفي من أوجه هذه القضية حتى يكون مصيبًا في رأيه وحكمه قدر المستطاع.

فإذا أردنا مثلاً الحكم على صدق زهد أبي نواس، وصدق تلك القيم الإسلامية التي طرحها في شعره مادحًا وراثيًا بها، أو معاتبًا لصديق من حيث تطبيقه العملي لكل ما صدر منه من قيم في تلك الأغراض، أو عدم تطبيقه واقتصاره على الجانب النظري منها. وهل كان شعره الناطق بالقيم الإسلامية مجرد رؤية فنية، أو واقع عملي وسلوك طبيعي للشاعر؟

في مثل هذه الحالة نجد أننا نلجأ إلى حياة الشاعر، وقراءة أشعاره لاستنطاق الحقيقة منها. فبعد دراستنا لحياته من جميع جوانبها، وقراءتنا لشعره تبين لنا أن أبا نواس كان في صراع مع نفسه بين ما يطمح إليه أي إنسان مسلم يريد صلاح حاله، ويرجو التوبة والفوز بالجنة، والبعد عن النار، وبين ما تشتهي نفسه الوثّابة إلى الملاهي والمرح والملذات، ولو كانت تلك الرغبة في حدود المحظور والحرام.

فمثلاً قارن بين هذه الأبيات الصادرة من الشاعر نفسه حيث يقول(1):

انقضت شرّتي فعفت الملاهي ... إذ رمى الشيب مفرقي بالدواهي
ونهتني النهى فملت إلى العدل ... وأشفقت من مقالة ناهِ

ثم قوله (2):

ضحك الشيب في نواحي الظلام ... وارعوى عنك زاجر اللوّامِ

---

(1) الديوان، ص٤٦٥.

(2) نفسه، ص٥٠٩.

فاسقنيها سلافة بنت عشر دبَ في جِرْمِها غذاءُ الحرامِ[1]

هذه الأبيات تمثل حقيقة الصراع الذي يعيشه هذا الشاعر بين رغبات نفسه في حالة الندم ومراجعة النفس وإدراك الحقيقة وحالة اللامبالاة التي يعيشها عندما تتملكه شهواته.

إلا أن أبا نواس في الحقيقة لم يستطع الصبر أمام نزوات نفسه وشهواتها، ولم يستطع تخليص نفسه من أدرانها وآثامها، فلا تعدو توبته مجرد سويعات أفاق فيها من غيبوبة المعاصي التي غرق فيها فبكى وندم وخاف لكننا في المقابل لم نجده يستقر فيها لنقرر أن أبا نواس قد زهد فعلاً.

لذا يعللّ بعض النقاد ذلك بـ "أنه ليس بالأمر الهين أن نرى شخصية كشخصية أبي نواس المتلوثة بأدران الفسق، والفحش، والمجون، والذي أصبح يجلب العار والمذلة لكل من يصاحبه، ليس بالأمر الهين إذًا، أن نجد هذه الشخصية، تزهد في الدنيا، وتخلي ما فيها من لهو، ولعب، وطيش، وتحبس نفسها في عزلة بعيدًا عن الناس"[2].

إن أبا نواس من خلال شعره، ومن خلال ما روي من أخبار عن مسرحياته كان يلقي بكل ثقله وراء نزوات نفسه وشهواتها. فنحن لا نراه إلا مع المنحرفين والفاسقين من أبناء عصره، وممن ساءت سمعته، ولكن أتيحت له بعض الفرص التي استطاع من خلالها أن يتصل بالخيرة الصالحة من علماء ذلك العصر وفقهائها ومحدثيها. فاندمج في حياتهم، ولكن ليست بالقدر الذي يجعله يثور على واقعه الماجن، ومع ذلك فقد تركت بعض رواسب الإيمان في قلبه، فبقيت متخفيّة تحت تلك الطبقة السميكة من الآثام، وفي بعض فترات حياته نراه فيها مستيقظ الضمير يحاول جاهدا الخلاص من الأدران والآثام العالقة بها دون جدوى[3].

فهو في تلك الأشعار، و في غيرها يمر فعلاَ في نوبات صحو حقيقية،

---

(١) في جرمها: في جسمها. الديوان، ص٥٠٩.

(٢) عطوي، علي نجيب، شعر الزهد، ص٢٩٧.

(٣) انظر: هدارة، اتجاهات الشعر العربي، ٣١٦.

فيزهد ليضمن تلك الأشعار الحديث عن التوبة، والتوكل على الله، ورجاء رحمته وغفرانه، لكنه رغم ذلك لم يؤمن بالزهد نظرية يعتنقها، أو واقعاً يطبقه ويتبعه[1]، لذلك نرجح صدق زهده في تلك اللحظات التي ردد فيها تلك الأشعار، إنها لم تكن إذًا مجرد اتجاه فني يسابق فيه شعراء عصره.

"فأبو نواس حاول أن يعمل بما كان يعظ به لهذا لا يمكن أن يرمى بالنفاق بأي حال من الأحوال، وليست المشاعر الأخلاقية والدينية، التي تلوح في بعض قصائده مجرد محاولة للخوض فيما يخوض فيه شعراء عصره من أغراض، بل الأرجح أن تعد تعبيرًا عن عاطفة مخلصة، وإن كانت متحولة"[2]، ولهذا نجد طه حسين يقول في هذا الصدد: "كان أبو نواس في هذا الشعر المخالف لِلأخلاق، وأصول الفضيلة، محبًّا للأخلاق، وأصول الفضيلة، كان يؤثر الصدقَ وينكر الكذب"[3].

إننا نجد أبا نواس يفشل في مجال التطبيق الفعلي لبعض تلك القيم الإسلامية، فعندما يمدح بالعفة فهو يخالف تلك القيمة في مجرى حياته الخليعة، وإذ هو يرّغب في التقوى نجده لا يتقي الله فيما يفعل من معاقرة للخمر ومغازلة للغلمان. وإذ هو يحث على الندم على المعصية والتوبة، فهو سرعان ما يتناسى الندم ليعود لسابق عهده.

ويجدر القول أيضًا في نفس هذا السياق، وهو توظيف الشاعر لبعض القيم في غرض المدح لديه، حيث نجده قد جعل ترديد بعض القيم أمام مادحيه وسيلة لتبرير غاية في نفسه، وسنذكر ذلك أثناء تناولنا للقيم التي يتوفر فيها الشاهد على ذلك، وسنشير إليه حينما يلجأ الشاعر إلى استحضار تلك القيم والمديح بها ؛ لأنها توافق هوى في نفسه فتنقذه من ويلات السجن، لاسيما وأن النواسي كثير التوّرط والمشاكسات التي توقعه في مصائب، فتضطره إلى سلوك هذا المنهج في شعره كثيرا، أو يتخذ بعض تلك

----

(١) انظر: عطوي، علي نجيب، شعر الزهد، ص٢٩١.

(٢) نيكلسن، رينولد. (١٩٦٤م). تاريخ الأدب العباسي، ترجمة وتحقيق: صفا خلوصي، الكويت: المكتبة الأهلية، ص٦٨.

(٣) حسين، طه، حديث الأربعاء، ج٢، ص٩٤.

القيم وسيلة استنزاف؛ لكي تغدق عليه من عطايا الممدوح التي يسرع في إتلافها في المعاصي والملاهي المناقضة لكل قيمة وخلق إسلامي.

وهذا الحديث لا يطبق على كل القيم في المدح والرثاء ذلك أن بعض القيم كانت صدى لمجموعة من القيم التي يستوجب ذكرها في حالتي المدح والرثاء. تلك القيم التي ذكرنا أنها تكونت في مفهوم كل مسلم، فأصبح لزامًا على المادح ترديدها إرضاء للممدوح وللجمهور على حد سواء. إننا نتحدث عن بعض تلك القيم التي وجدنا فيها تناقضًا واضحًا بين الدعوة والتطبيق، وبين العرض والتوظيف لدى الشاعر نفسه، فأحببنا أن نعرج على هذه الفكرة التي استخلصناها من قراءتنا لحياة الشاعر وشعره. فكان مهمًا لدينا الحديث عن ذلك؛ لأننا نتحدث عن قيم نرغب في اتباعها والدعوة إليها فلا نريد من تناقضات الشاعر أن تزعج قارئنا الكريم، بل يتخذ منها أسلوبًا مخالفًا في الدعوة إلى القيم وتطبيقها في مجالات الحياة المختلفة، وتوظيفها لديه في نثره وأشعاره إن كان كاتباً أو شاعراً.

نحن لا نخلي الشاعر من الصدق في استحضار تلك القيمة في نفسه -كما ذكرنا سابقًا- نعم قد يكون هناك اقتناع داخلي بقيمة تلك القيمة لديه، لاسيما وتلك القيم مختزله في ذهن كل مسلم نشأ وتربى في ظل دين شرّع تلك القيّم، ونادى بها في كتابه وسنته.

كل هذا التناقض والصراع الذي عاشه الشاعر بين ميول نفسه ونزواتها، وبين الحقيقة التي يدركها هذا الشاعر المتفقه في العلم، والعالم بكل فن، وهي حقيقة الدنيا الفانية، والتي تحتاج منا لتوبة، ومراجعة، وندم على كل ما فرطنا في جنب الله. هذا التناقض الذي تفسره طبيعة ذلك العصر، وتلك الحياة التي عاشها هذا الشاعر، ثم طبيعة شخصيته التي تكونت في ظل هذه المؤثرات.

المبحث الثاني

القيم الإسلامية في المدح

القيم الإسلامية في المدح

لقد أكثر الشعراء العباسيون من النظم في الأغراض الشعرية القديمة، كالمدح، والهجاء، والرثاء، والنسيب، والفخر، والوصف، والزهد، ونظموا الكثير من القصائد فيها –وإن جدد بعضهم في طرائقها وألفاظها ومعانيها – والتي تتناسب والعصر الذي يعيشون فيه، فطبعوها بطابع بيئتهم، وصوروها بصورة مجتمعهم، فاستحدثت المعاني البارعة، وجددت الأغراض القديمة، وذلك شيء طبيعي ؛ ذلك أن خلال المدح ذاتها تغيرت بعد الإسلام "فوصف الممدوح بالفتوة، وشرب الراح، والمقامرة، والإقبال على الشهوات، أصبح من المساوئ والرذائل التي ينبغي للمسلم أن يتجنبها، ويتحاشاها لينجو بدينه. ومع ذلك كان في شعر المديح الجاهلي مجموعة من الفضائل الإنسانية التي لا تجري عليها أحكام التغيير والتعديل"(١)، كذلك فقد اهتم شعر المديح بالفضائل المعنوية للممدوح، كالكرم، والشجاعة، والمروءة، والعفة، واهتم قليلاً ببعض الخلال الحسية، كجمال الوجه، وعظمة الجسم "إلا أنها لم تكن تقصد لذاتها، بل كانت مقترنة في الغالب بمعان دينية ترمي إليها فأتلاق الوجه دليل على التقوى والورع، وصفاء السريرة، وقوة أسر العينين دليل الذكاء والفطنة، والبسطة في الجسم يقصد بها المهابة، وما إلى ذلك"(٢).

إن غرض المدح من الأغراض التي نالت قسطًا وافرًا من اهتمام الشاعر العباسي، فقد طرَق هذا الغرض كثيرًا شعراء العصر العباسي والعصور السابقة واللاحقة، وقد كان المديح موجهًا للطبقات العليا من المجتمع، كالخلفاء، والوزراء، والولاة، والقادة، ولم يكن يهتم بالطبقات العامة إلا نادراً، فغالباً ما يتصل الشاعر بخليفة، أو أمير، أو وزير، أو والٍ فيمدحه بقصائد عديدة، سواءً كانت تلك القصائد نابعة عن نفس معجبة بأخلاق ذلك الحاكم، أو الأمير، أو رغبة في الوصول إلى بلاطه، والتمتع بمجالسته

---

(١) هدارة، اتجاهات الشعر العربي، ص٣٩٥.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص٣٩٧.

والاستفادة من عطاياه وجزائله، وشاعر كأبي نواس غارق في الملاهي مستمتع في المجون يصعب عليه ولوج عالم الخلفاء والأمراء والوزراء، والذي يتميز بالوقار والهيبة والمسؤولية، مما يتنافى وحياة الشاعر، إلا أنه رغم ذلك ولج هذا الباب سعيًا كغيره من الشعراء لنيل الأعطيات الجزيلة، والتي تتكفل بمدّ حياته بجرعات أكثر من اللهو. يؤيد هذا الرأي خليف يوسف حيث يقول: إن أبا نواس "اتجه إلى شعر المدح، واتصل ببلاط الخلافة ليستعين بما يناله من عطايا وجوائز على الاستمتاع بالحياة إلى أقصى درجات الاستمتاع"[1]، لقد مدح أبو نواس من الخلفاء هارون الرشيد، وابنه الأمين، ومن الوزراء الفضل بن الربيع، وابنيه العباس ومحمد، كما مدح العباس بن عبيد الله، وأمير مصر الخصيب، وله مدائح أخرى متفرقة لكنها لا تقاس جودة ومعنى بمدائحه بأولئك القوم الذين استحق المقام تمجيدهم، وتفخيم عبارات القصيدة تبعا لذلك. والصدق في تلك القصائد جاء متفاوتًا بين البارد الباهت، وبين الصادق، وبين ذلك، وذلك حسب قرب الممدوح من نفس الشاعر أحيانًا أو حسب استحقاق الممدوح لتلك المدائح أحيانًا أخرى، كما تحددها حاجة أبي نواس لعطايا الممدوح،إلا أن الغالب على قصائد المدح لديه هو تكلفها وبرودها.

وهو في مدائحه ينتهج الأسلوب التقليدي غالبًا، وإن كان يشذّ في بعض قصائده ليفتتحها بمقدمات خمرية أو غزلية لاسيما في مدائحه لخصيب مصر.

وفي ذلك يقول محمد زغلول سلام: "مدائحه تجري على سنن الشعر التقليدي، فتبدأ غالبًا بالنسيب، ثم يمدح بالصفات المعروفة للمديح، والتي يتناولها الشعراء، ويجرون فيها على نهج واحد، وإن اختلفت الصور والأساليب، ومن أجمل مدائحه ميميته في الأمين"[2].

كما يرى جورج غريب أنه "في مدحه جاهلي النزعة، مقلد يقف على الأطلال،

---

(١) خليف، يوسف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، ص٥٠.

(٢) سلام، محمد زغلول. (د. ت). دراسات في الأدب العربي، الإسكندرية: منشأة المعارف، ص١١٩.

ويمتطي النياق ويتعمد أوابد اللغة، تحف به الرصانة، ويواكبه جلال الألفاظ، يتحدث إلى المحافظين من جهة، وإلى علماء اللغة والبيان من جهة ثانية. فشخصيته تضيع هنا كما تضيع في سائر أبوابه التقليدية، تخفيها شدة الأسر، وتحبسها الجزالة، فهذا الشاعر الخليع يعرف كيف يترصن ويجاري فحول الشعراء، لاسيما وهو يتلمس سدة الرشيد وعروش البرامكة. وإذا ابتعد في مدح الأمين– لقربه من روحه – عن المهابة نوعًا ما، فعنصر التقليد لا يفارقه يخرجه في مدحه، كما يقصيه في رثائه، عن حضارته البغدادية"(١).

كل ذلك يرجع لنفسية أبي نواس ومزاجيته ، ومع ذلك فقد كانت ألفاظه تفضح مكنون قلبه ذلك أنه لم يكن يحبذ الكذب والتملق، فهو شخصية حرة لا ترى من يقيدها بقوانين، فضلاً عن أن يقيدها بألفاظ. لكنها الحاجة حاجة تلك النفس الوثابة التي لا تشبع.

إن القيم الإسلامية المختزلة في ذهن الشاعر عن صفات الحاكم العادل أو الأمير الكريم أو الوالي الشجاع، ستظهر بشعره لا محالة ؛ لأنه لا يمتلك في مخزونه العقلي غير تلك الصفات التي تكونت في ذهنه، والتي ينتظرها جمهوره بطبيعة الحال، تلك الصفات التي تكونت منذ بزوغ فجر الإسلام، والتي نشأ الناس ومن بينهم الشعراء على الحرص بامتثالها وتطبيقها في ظل شريعة إسلامية شرعت تلك القيم، ونشرتها من مصدريها: القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة. وهذه الصفات تمثل المثل العليا لدى الشاعر حتى لو تكلّف في نظمها، أو بالغ "فالشاعر المادح يملأ تلك المسافة بأجمل الإنسانيات. فهو بذلك يصل الممدوح بمثله الأعلى"(٢).

لذلك ارتأينا أن ندرس القيم في شعر المدح والرثاء رغم تكلّف بعضها إلا أنها في الحقيقة تمثل تلك المثل العليا التي كانت في نفوس الشعراء والممدوحين في ذلك العصر،

----

(١) غريب، جورج. (١٩٦٦م). شعر اللهو والخمر تاريخه وأعلامه، بيروت: دار الثقافة، ص٢١٠.

(٢) شلق، علي. (د. ت). أبو نواس بين التخطي والالتزام، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص٣١٤.

والصالحة لكل عصر. وهذا الحديث لا ينطبق على جميع قصائد المدح، إنه حديث خاص يعتني بتلك القصائد التي وردت فيها قيم إسلامية جديرة بدراستنا، وضربنا صفحا عن القصائد التي اهتمت بخلال الممدوح الحسية.

لقد وجدنا أبا نواس في مدائحه تلك يعرض القيم الإسلامية للخلفاء والأمراء والقادة والوزراء، فيصفهم بالأخلاق الإسلامية التي يجب أن تتوافر فيهم من تقوى، وحكمة، وعدل، وشجاعة، وعلم، وأمانة، بالإضافة إلى حسن التدبير، وذكاء السياسة، وإتقان الإدارة، والعطف على الرعية.

والقيم في شعر أبي نواس منتشرة مترابطة في قصيدة المدح الواحدة، كما أن القيم في أغلب قصائد المدح لديه متكررة، وهذا شأن أغلب الشعراء في عصره، فهناك أفق انتظار يحاكيه الشاعر، وينتظره الجمهور.

ومن القيم الإسلامية في غرض المدح عند أبي نواس:

۞ قيمة التقوى:

التقوى قيمة إسلامية أصيلة، وخير فضيلة يتحلى بها الإنسان في دنياه، وبها يرتفع المؤمن، وتستقيم حياته، ويكون التوفيق حليفه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[(١)].

وقد جعل الإسلام التقوى سبيلاً لتفريج الكروب، والرزق الكريم، قال تعالى: "ومن يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب"[(٢)].

كما يعلمنا النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن ندعو الله ليرزقنا التقى، فيدعو - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - بهذا الدعاء: "اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى"[(٣)]، إن "التقوى في

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) الطلاق: ٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، رقم (٢٧٢١).

الأصل معناها: جعل النفس في وقاية، ولا تجعل النفس في وقاية إلا بالنسبة لما يخاف. فخوف الله أصلها، والخوف يستدعي العلم بالمخوف، ومن هنا كان الذي يعلم الله هو الذي يخشاه، وكان الذي يخشاه هو الذي يتقيه"(١).

ويقول الإمام ابن رجب: "وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه، من غضبه، وسخطه، وعقابه، وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته، واجتناب معاصيه"(٢).

وتكمن أهمية التقوى في حياة الإنسان أنها هي منبع الفضائل كلها، فالرحمة، والوفاء، والصدق، والعدل، والورع، والبذل، والعطاء كلها ثمرات من ثمار شجرة التقوى إذا أينعت في قلب المؤمن،وهي خير زاد الدنيا، والمنجية في الآخرة.

وقد أشاد أبو نواس في مدائحه العامة للخلفاء، والأمراء، والقادة بالتقوى، والخوف من الله، فجعل من التقوى والاستقامة سبب قوي للحياة بخير في ظل سياسة حاكم أعانه الله على الخير، لتقواه وخوفه منه. كما أكد شرعية الحاكم الذي استمدها من جعله التقوى لباس مملكته الذي به يحكم ويأمر، بل جعلها سببًا يؤمله في العفو ممن يخافه؛ لأن من يخافه الشاعر يخاف رب الشاعر.

يقول في مدح هارون الرشيد (٣):

تبارك من ساس الأمور بعلمه	وفضل هاروناَ على الخلفاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى	وما ساس دنيانا أبو الأمناء
إمام يخاف الله حتى كأنه	يؤمل رؤياه صباح مساء

---

(١) طبارة، عفيف عبد الفتاح. (١٩٧٩م). روح الدين الإسلامي. بيروت: دار العلم للملايين، ط١٩، ص٢١١.

(٢) الحنبلي، ابن رجب. (٢٠٠١م). جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٧، ص٣٩٨.

(٣) الديوان، ص٣٠٧.

نجده يصف الخليفة هارون بصفات الحاكم المسلم من تقوى وأمانه، والحقيقة أن هذه الصفات والمثاليات هي سبب رفعته وفضله على باقي الخلفاء فبالأخلاق يسمو الشخص وينال الفضل لاسيما إذا كان تقيًا وأمينًا يخاف الله ويخشاه وكأنه سيلقاه في أية لحظة.

ويقول في قصيدة أخرى يمدحه أيضًا [١]:

هـارون ألفنـا ائـتلاف مـودة   ماتـت لهـا الأحقـاد والأضـغان
في كـل عـام غـزوة ووفـادة   تنبـت بـين نواهمـا الأقـران
حـج وغـزوٌ مـات بيـنهما الكـرى   بـاليعملات شعارها الوخـدان[٢]
يرمـي بهـن نيـاط كـل تنوفـةٍ   في الله رحـال بهـا، ضـعان
حتـى إذا واجهنـا إقبـال الـصفا   حنَّ الحطيم، وأطّت الأركـان[٣]

إلى أن يقول [٤]:

يـصلى الهجـير بغـرّةٍ مهديّـةٍ   لـو شـاء صـان أديمهـا الأكنـان[٥]
لكنـه في الله مبتـذل لهـا   إن التقـيَّ مـسددٌ ومعـان

هنا يمدحه باستقامته ودينه، والذي مثّله غزوه سنة وحجه السنة التي تليها. ولا شك أن هذا منتهى الإيمان بأن ينذر الإنسان حياته، ويقسمها بين الجهاد في سبيله، والحج لوجهه تعالى مع توفر أسباب الركون والراحة له، واستطاعته أن يكتفي بغيره

---

(١) الديوان، ص٣٠٩.

(٢) اليعملات: النياق السريعة، الوخدان: نوع من سيرها. الديوان، ص٣٠٩.

(٣) أطّتِ الأركان: صوتت. الديوان، ص٣٠٩.

(٤) الديوان، ص٣٠٩.

(٥) الأكنان: جمع كن وهو الستر والبيت. الديوان، ص٣٠٩.

للقيام بمهام الجهاد ضد العدو؛ لأنه الملك وسائس الرعية. إلا أنه اختار طريق الله، وما ذلك إلا لتوفيق الله له بسبب تقواه.

ويقول فيه [(1)]:

ملك تطيب طباعه ومزاجه ... عذب المذاق على فم المتذوق
يلقى جميع الأمر وهو مقسَم ... بين المناسك والعدو الموفق
يحميك مما تستسر بفعله ... ضحكات وجه لا يريبك مشرق

إلى أن يقول[(2)]:

إني حلفت عليك جهد أليّة ... قسمًا بكل مقصر ومحلّق
لقد اتقيّت الله حق تقاته ... وجهدت نفسك فوق جهد المتقي

أيضًا هنا يكرر ذات المعنى، ويضيف إليه صفات حسية أخرى، كإشراق وجهه، وحلو طباعه، ولين مزاجه ؛ وما ذاك كله إلا لأنه مؤمن تقي أجهد نفسه في طاعة الله، وتطبيق شرعه، فأنار الإيمان محياه، وعذب طبعه.

ويقول في مدح الخليفة الأمين [(3)]:

أضحى الإمام محمد ... للدين نورًا يقتبس

هنا يمدح الأمين بهديه للدين، ويشبهه بالنار التي يقتبس منها للإضاءة في الظلام.

ويقول فيه أيضًا [(4)]:

أمين الله قد ملكت ملكًا ... عليك من التقى فيه لباس

---

(١) الديوان، ص٣٠٦.
(٢) نفسه، ص٣٠٦.
(٣) نفسه، ص٣١٧.
(٤) نفسه، ص٣٢٣.

إن مُلك الأمين لباسه التقوى، وما ذاك إلا أنه حكم به دولته، وفيه ساس ملكه.

ويقول في مدح الوزير الفضل بن الربيع المكنى بأبي العباس [1]:

مـا مِـنْ يَـدٍ في النّـاسِ واحِـدَة ... كيَـدٍ أبُـو العَبّـاسِ مَوْلاهَـا

نـامَ الثّقـاتُ عـلى مَـضاجِعِهِمْ ... وسَرَى إلى نَفْـسي، فَأَحْياهَـا

قـد كنـتُ خِفْتُـكَ ثـمّ أمّنَنـي ... مِـنْ أنْ أخافَـكَ خَوْفُـكَ اللهُ

فعَفَـوْتَ عنـي، عَفـوَ مُقتَـدِرٍ ... حَلّـتْ لَـهُ نِقَـمٌ، فألغاهَـا

يذكر أن من يثق بهم تغافلوه فناموا عنه حتى أتى الفضل وأحيا نفسه بعد إملاق. ولم يكتف بذلك بل إنه أمنه بعد خوف، وما ذلك إلا لتقواه وخوفه من الله، فعفا عنه رغم أنه حريٌّ به أن يثأر منه لزلات كثيرة صدرت من الشاعر.

قيمة العفو:

العفو قيمة عربية مشتركة، وجدت قبل الإسلام، وحرص عليها العرب في الجاهلية، وضربت فيها الأمثال كما رويت قصص كثيرة عن العفو، فكان مكرمة وفضيلة قبل الإسلام وبعده إلى عصرنا الحاضر، فنجد المسلم دائما ما يحرص لنيل شرف العفو، وإسقاط العقوبة عن كل من آذاه، أو نال منه. وذلك لمكان تلك الخلة من نفوس العرب والمسلمين، وما ذاك إلا لتأثرهم بمعاني القرآن الكريم. وليس أشمل من ارتباط العفو باسمه تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [2]. كما ذكر -عَزَّوَجَلَّ- فضل تلك الصفة، وما لصاحبها من أجر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [3].

---

(١) الديوان، ص٣٤٨.

(٢) النساء: ٩٩

(٣) آل عمران: ١٣٤.

كذلك حبًا واقتداء بالرسول -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والذي أورد الأحاديث الكثيرة التي يحث فيها أمته على الامتثال بتلك الصفة ما استطاعوا، مبتدئاً بنفسه لترسيخ هذه القيمة في نفوس أصحابه وأمته، وما أكثر عفوه -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- منها أنه كان -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- نائمًا في ظل شجرة، فإذا برجل من الكفار يهجم عليه، وهو ماسك بسيفه ويوقظه، ويقول: يا محمد، من يمنعك مني. فيقول الرسول -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بكل ثبات وهدوء: «الله» فاضطرب الرجل وارتجف، وسقط السيف من يده، فأمسك النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- السيف، وقال للرجل: «ومن يمنعك مني؟»، فقال الرجل: كن خير آخذ. فعفا النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عنه[(1)].

والعفو سبيل للعزة والرفعة بعكس ما يظن البعض من أن إسقاط العقوبة، والأخذ بالحق هو ضعف وتخاذل. وهذا الدرس النبوي يعطينا قيمة العفو الحقيقية للإنسان، ويعكس مفهوم الضعف بالعفو إلى العزة والارتقاء.

عن أبي هريرة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -قال: قال رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[(2)]، ولعل أكثر المستشعرين لقيمة العفو هو شاعرنا لاحتياجه إليها في كثير من فترات حياته، فقد أنشد القصائد والمقطوعات يتغنى بهذه القيمة في مدح من يرجو عفوهم عن زلاته وهفواته. فالعفو من شيم الكرام، فضلاً عن كونه سلوكًا إسلاميًا نبيلاً.

قال أبو نواس هذه الأبيات مادحًا مستنجدًا بالرشيد، وهو في السجن[(3)]:

---

(١) متفق عليه من حديث جابر، البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة، رقم (٢٩١٠)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف، رقم (٨٤٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة - رضي الله تعالى عنهم- باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

(٣) الديوان، ص٣٠٨.

بِعَفوِكَ بَل بِجودِكَ عُذتُ لا بَل ... بِفَضلِكَ يا أَميرَ المُؤمِنينا

فَلا يَتَعَذَّرَنَّ عَلَيَّ عَفوٌ ... وَسِعتَ بِهِ جَميعَ العالَمينا

فَإِنّي لَم أَخُنكَ بِظَهرِ غَيبٍ ... وَلا حَدَّثتُ نَفسِيَ أَن أَخونا

نجده يتغنى بالعفو في هذه المقطوعة مرسلاً إياها للرشيد، لعلمه مكان هذه الصفة من نفوس المسلمين أجمع، والحكام والملوك على وجه الخصوص، ذلك أن للحاكم سلطة لا تعدوها سلطة، فإن عفا فعن مقدرة، وإن تجاوز فمن كرم، وإن لم يعف فالأمر أمره، ولا معقب لحكمه ولا ناقد. وقد قيل أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. لذا نجد أبا نواس يستنجد بجود الرشيد وفضله، ويرجوه أن لا يحظر عليه عفوًا أحاط به كل شعبه. ويبرر استنجاده بعدم خيانته للرشيد في حال غيابه كما أنه لا ينوي ذلك.

أيضًا قال هذه الأبيات في مدحه للأمين (١):

خليفةٌ يعتني بأُمَتِهِ ... وإنْ أَتَتْهُ ذنوبُها غَفَرَا

حتى لوِ استْطاعَ من تَحَنّنِهِ ... دافعَ عنها القضاءَ والقدَرَا

يمدح الخليفة برعايته لشعبه ومغفرته لذنوبها إن أخطأت، ولو قُدر له أن يمنع ما ينزل من قضاء وقدر لفعل. والحقيقة أن الشاعر يتحدث ضمنيًا عن ذنوبه وتجاوزاته في المجون والخمر وغيرها. والبيت الثاني فيه مبالغة عرف فيها الشاعر في مدحه، وإلا فكل قضاء ينزل للإنسان خير، وإن كان في ظاهره شرا، ولا يدرك ذلك إلا مؤمن تقي.

يقول في مدح أبي العباس (٢):

حَلَفتُ بِرَبِّ ياسينٍ وَطَهَ ... وَأُمِّ الآيِ وَالذِكرِ الحَكيمِ

لَئِن أَصبَحتُ ذا جُرمٍ عَظيمٍ ... لَقَد أَصبَحتَ ذا عَفوٍ كَريمِ

يقسم أبو نواس بالآيات والسور بأن عفو الفضل أكبر من جرمه.

---

(١) الديوان، ص٣٢٢.

(٢) نفسه، ص٣٤٧.

ويرسل إليه هذين البيتين أيضًا فيقول[1]:

أقلني قد ندمت على ذنوبي وبالإقرار عذت من الجحود
وإن تصفح فإحسان جديد سبقت به إلى شكر جديد

يذكر ندمه على ما صنع وبإقراره بجرمه تاب عن جحود النعمة، فإن يصفح ويعفو عنه فإن ذلك سيضاعف من إحسانه إليه.

وفيه يقول أيضًا [2]:

يا فضل قد أودعتني عظة ما بعدها غلط ولا سهو
وبرئت مما تستريب به فليهنني بك ذلك البرو
واقبل أبا العباس عذري من لفظ الصبي مذاقه حلو
إن ضاق عفوك وهو ذو سعة عني فليس بواسع عفو
وأنت الذي ألف السماح فما غيرُ السماح لقلبه لهو

هنا يوجه الخطاب للفضل بحوار هادئ يوهم بصدق الشاعر وجديته، فهو لم ينس وصية أوصاه إياها الفضل والتي أفادته جدًا حتى إنه لم يعد يرتكب الريب، ويهني نفسه على ذلك.

ثم يدخل في الموضوع المهم لديه فيعتذر، ويطلب منه قبول العذر والعفو عن أخطائه، فإن لم يسعه عفوه، وهو ذو العفو الكبير فلن يسعه عفو سواه. وهنا يشير بحق إلى معنى العفو الحقيقي. ثم يعود ويمدحه مرة أخرى بالسماح الذي يحبه الممدوح ويفضله، فهو الذي يؤنس قلبه، ويلهو به.

والحقيقة أن "هناك مسلكًا أنبل من ذلك، وأرضى لله. وأدل على العظمة والمروءة أن يبتلع غضبه فلا يتفجر، وأن يقبض يده فلا يقتص، وأن يجعل عفوه عن المسيء نوعًا

---

(١) الديوان، ص٣٤٤.

(٢) نفسه، ص٣٤٧.

من شكر الله الذي أقدره على أن يأخذ بحقه إذا شاء"(١).

وقد وعى البعض هذا المفهوم الإسلامي فعفا الكثير عن أبي نواس رغم الإساءة والخطأ، تاركًا حق نفسه في الاقتصاص والعقوبة لهذا المسيء لله تعالى، معطيا إياه فرصة مراجعة النفس ونهرها عما يقبحها من فعل أو قول.

على صعيد آخر يتعلق بحياة أبي نواس وشخصيته فإن الباحث فيها والقارئ لتلك الأبيات يدرك بلا ريب مدى الضعف في مصداقية الشاعر في عرضه لتلك القيمة، وأبعادها الإسلامية.

إن هذه القيمة إسلامية نعم لكن يبدو لنا أن الشاعر وظفها توظيفًا أسقط قيمتها الإسلامية في سبيل تحقيق الغاية لدى الشاعر، فقد جعل الشاعر من العفو وسيله لاسترضاء الممدوح، ورفع شأنه لينال مراده، وهو الخروج من السجن تارة أو النجاة من حكم ما تارة أخرى. لذا لم تكن تلك القيمة حاضرة في خيال الشاعر لقيمتها الإسلامية بقدر ما هي قيمة مهمة استغلها الشاعر فجعلها وسيله لتبرير غايته، وهي الخروج والانطلاق إلى الحياة والعبث مرة أخرى. فهذه القيمة وإن أثّرت بالممدوح إلا أنها لم تؤثر في سلوك المادح، ولم تقومه وتجعله شاكرًا ممتنًا غير سالك للطريق المعوج مرة أخرى. والدليل كثرة تكراره الاستجداء بتلك القيمة، فالقصائد تلك صدرت أغلبها من السجن الذي كان المحرك لدوافع الشاعر، وكثرة سلوكه المنحرف، واستمراره في المجون الذي أقعده الحبس مرات عدة.

❁ قيمة العدل:

وهي قيمة إسلامية وإنسانية ضرورية للفرد والمجتمع. وقد شرّع الإسلام هذه القيمة، بل وجعلها مطلبا وأساسا في التعامل مع كل شؤون الحياة.

---

(١) الغزالي، محمد. (١٩٩٤م). خلق المسلم، ط٥، الإسكندرية: دار الدعوة، ص١١٨.

وقد وردت في القرآن الكريم، وجعلها الله تعالى من صفات الرسل ومن مقومات الحياة، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[(1)].

وليس ثمة تنويه بقيمة القسط أو العدل أعظم من أن يكون هو المقصود الأول من إرسال الله تعالى رُسُله، وإنزاله كتبه؛ فبالعدل أُنْزِلَتِ الكتب، وبُعِثَتِ الرسل، وبالعدل قامت السموات والأرض[(٢)].

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[(٣)]، ويقول أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨﴾[(٤)]، قال ابن كثير: "أي لا يحملنَّكم بُغْض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كُلِّ أَحَدٍ صديقًا كان أو عدوًّا"[(٥)].

وفي قصة أسامة بن زيد مع المرأة المخزومية خير دليل على حرص الرسول – عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ – على مبدأ العدل وترسيخه.

"وقد أعلن الإسلام مبدأ "العدل" في العقيدة والشريعة والأسرة والعهود والقضاء، وكل شؤون الحياة. ومن هنا صار العدل التزامًا للمسلم في كل ميادين حياته

----

(١) الحديد: ٢٥

(٢) انظر: القرضاوي، يوسف. (٢٠٠١م). ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ص١٣٣.

(٣) النساء: ١٣٥

(٤) المائدة: ٨

(٥) ابن كثير. (د. ت). تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد محمد، ومحمد السيد رشاد، ومحمد فضل العجماوي، وعلي أحمد عبدالباقي، وحسن عباس قطب، المملكة العربية السعودية: مؤسسة قرطبة، ٣/ ٥٦.

الروحية والمادية، ومناطًا للثواب على صالح الأعمال. فالعدل الحقيقي لا يلتمس حقًا، بعيدًا عن شريعة الله تعالى؛ لأن شريعة الله تعالى هي العدل"[١].

وبالتالي فقد كانت صفة العدل من الصفات التي تستوجب المدح، والتي ترفع صاحبها عن شبهات الظلم الذي يفسد سيرة الحاكم، والأمير، والصغير، والكبير. لذا مدح أبو نواس الخلفاء، والوزراء، والأمراء بالعدل في السياسة والحكم، وهي صفة يطرب لها الحاكم وكل مسؤول فهي أساس قبول الجمهور لحكمه، وتقبل سياسته.

يقول أبو نواس في مدح الرشيد [٢]:

لا غرو ينفرج الدجى عن وجهه ... عدل السياسة، حبه إيمان

يمدحه بالعدل في حكمه وسياسته لشعبه، والذي أوجب حبه الذي عده من الإيمان.

وفي مدح الأمين يقول [٣]:

إمامُ هُدىً عمّ الأنامَ بعَدْلِهِ ... وجارَ على الأموال في الحكْمِ واعتدى

يمدح الأمين بالعدل الذي شمل كل الخلق. ولكنه رغم عدله جائر على الأموال يبذلها، ويبالغ في عطاياه لكرمه، وكبير جوده.

ويجدر القول إن أولى الناس بالعدل الحاكم، فالحاكم الصالح يجب أن يكون منصفا عادلا ولا تأخذه في الله لومة لائم، قال تعالى بعد أن مكن ذا القرنين من الناس في مغرب الشمس، وحكّمه فيهم، وأظفره بهم، خيّره إن شاء قتل وسجن، وإن شاء منّ وأفدى، فقال ذو القرنين: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[٤].

----

(١) السحمراني، أسعد، الأخلاق في الإسلام، ص١٧٢.

(٢) الديوان، ص٣٠٩.

(٣) نفسه، ص٣١٢.

(٤) الكهف: ٨٨.

وقد كان لكثير من حكام المسلمين، تاريخ مجيد في تحقيق العدل، ودفع الظلم. وقد بلغ من السيرة الطيبة لعمر بن عبد العزيز في هذا المجال أن قيل: "إن الله تعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز". ويقال إن الخوارج كفوا عن محاربته، حين لمسوا من عدالته، وسيرته الطيبة أمورًا كريمة[1].

يقول النواسيّ في مدح العباس بن عبيد الله من قصيدته التي مطلعها "أيها المُنتابُ عنْ عُفُرِهْ"[2]:

تأخُذُ الأيْدي مظالَمَها ... ثمّ تَسْتَذري إلى عُصُرِهْ[3]

يمدحه فيقول إن كل من تنزل به مظلمة، فهو يحمل تلك المظلمة إلى حيث حصنه ومعقله فيأخذ بحقه وما ذاك إلا لعدله، فهو لا يرضى الظلم، ويحكم بالعدل، ويقتص لأهل المظالم.

قيمة الكرم:

كان الكرم من أروع صفات العرب قبل الإسلام، وبه ضربت الأمثال، ورويت الأخبار، إلا أن الكرم في الجاهلية كان بدافع الرياء، وحب الشهرة في الغالب. لكن عندما جاء الإسلام، وأصّل لهذه القيمة، فجعلها خالصة لوجهه تعالى، بل لقد عدّ الرياء في الإنفاق والعطاء والصدقة شركا أصغر، يوقع صاحبه في المهالك، وقد حث الإسلام على العطاء فرغّبنا الله -عَزَّوَجَلَّ- فيه في أكثر من موضع من القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم

---

(١) الأخلاق في الإسلام، ص١٧٥.

(٢) الديوان، ص٣٢٧.

(٣) عُصره: العصر بالتحريك الملجأ. الديوان، ص٣٢٧.

(٤) البقرة: ٢٦١.

بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾[١]، وصفة "كريم هي من صفات الله تعالى وأسمائه، ولكن يجب أن نعلم بأن الله تعالى هو الكريم المطلق الكرم، المطلق العطاء"[٢].

ثم أكد الرسول -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- هذه الصفة مبتدئًا بنفسه، فقد كان أجود الناس وأكرمهم في العطاء والإنفاق، فقد أتاه رجل يطلب منه مالاً، فأعطاه النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- غنمًا بين جبلين، فأخذها كلها، ورجع إلى قومه، وقال لهم: أسلموا، فإن محمدًا -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- يعطي عطاء من لا يخشى الفقر [٣]. كما تروي عنه السيدة عائشة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا- أنهم ذبحوا شاة، ثم وزعوها على الفقراء؛ فسأل النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- السيدة عائشة: «ما بقي منها؟» فقالت: ما بقي إلا كتفها؛ فقال النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ-: «بقي كلها غير كتفها»[٤]، وكذلك تمثل الصحابة بالكرم خلقًا زينوا به سيرتهم، وأرضوا به ربهم، ودل ذلك على تمام إيمانهم، فكما قيل لا يجتمع البخل والإيمان في قلب مسلم ذلك أن البخل خوف من القادم، وحرص على الدنيا فتنافى ذلك مع التوكل الذي هو من صميم الإيمان.

"والحق أن الكرم طريق السعة، وأن السخاء سبب النماء، وأن الذي يجعل يديه ممرًا لعطاء الله يظل مبسوط اليد بالنعمة، مكفول اليوم والغد بالغدق الدائم من رحمة الله وكرمه... فليستمسك الإنسان بعرى السماحة، وليسارع إلى سداد ما يلقاه من ثغرات، ولينظر إلى المحتاجين الذين يقصدونه نظرته إلى أسباب التجارة الرابحة"[٥].

---

(١) البقرة: ٢٧٤.

(٢) السحمراني، أسعد، الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، ص١٩٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- شيئًا قط فقال لا، وكثرة عطائه، برقم (٢٣١٢).

(٤) رواه الترمذي، صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- رقم (٢٤٧٠).

(٥) الغزالي، محمد، خلق المسلم، ص١٢٨.

يقول في مدح هارون الرشيد:

وإلى أبي الأمنـاء هـارون الـذي   يحيـا بـصوب سـمائه الحيـوان(١)

إلى أن يقول(٢):

متـبرّج المعـروف، عـرِّيض النـدا   حَـصِرٌ بِـلَا منـه فـمٌ ولـسان

للجـود مـن كلتـا يديـه محـرك   لا يـستطيع بلوغـه الإسـكان

يقول إنه يعيش على خير وعطاء هارون جميع الأحياء، فعطاؤه كالمطر الذي يحيي الأرض بهطوله فتنمو وتعشب. ثم يقول إنه ذو إحسان ساطع ظاهر، فمعروفه مشهور كشهرة الحسناء بعد تبرج، يتعرض بنداه لطلابه حتى قبل أن يطلبوه، أخرس عن قول لا، فهو لا ينطق بها في كلام، أي لا يرفض طلبًا، يداه دائمة الحركة بالعطاء، ولا قبل للجمود والإسكان أن يقطعا تلك الحركة، حركة الجود والعطاء الدائم.

ويقول في مدح الأمين (٣):

وجيـه محمـد شـمس   وملـك محمـد عـرس

وكفّـاه تجـودان   بـما لا تأمـل الـنفس

فـما في جـوده مـنّ   ولا في بذلـه حـبس

شـهيداي عـلى مـا قلـت   فيـه الجـن والإنـس

يمدح الأمين بأنه يهب بما يفوق آمال النفس والمتمني، جوده، لا يشوبه منّ ولا قطع، يشهد على قوله ذلك الإنس والجن.

وفيه أيضًا يقول (٤):

---

(١) الحيوان: الحياة. الديوان، ص٣٠٩.

(٢) نفسه، ص٣١٠.

(٣) نفسه، ص٣١٧، ٣١٨.

(٤) نفسه، ص٣١٩.

أقـــــول، والغيْــــــثُ دانٍ   يكـــــادُ يُــــدْفَعُ بالْيَــــدْ
يـــا غيْـــثُ أبْـــرِقْ وأرْعـــدْ   محمّـــدٌ منـــك أجـــودْ
عـــلى الأمـــينِ يمـــينٌ   بـــالله، ربّ محمّـــدْ
أنْ لا يقـــولَ لـــراجٍ   رجـــاهُ: لا، عـــن تعمّـــدْ

يقول إن المطر يهطل بغزارة حتى ليكاد أن يصده صدًا بيده. ويطلب من الغيث أن يرعد ويبرق ما يشاء، فلن يصل لجود محمد مهما بلغ هطوله، وغزارة مطره ؛لأن الأمين أقسم بالله يمينًا أن لا يرد أحدًا طلبه أبدًا متعمدًا.

ويمدحه قائلاً (1):

مَلِـكٌ إِذا عَلِقَـت يَـداكَ بِحَبلِـهِ   لا يَعتَريـكَ البُـؤسُ وَالإِعـدامُ

يقول إنك متى ما علقت بحبال كرمه ونلت ثقته فإن الفقر والهم سيبعدان عنك للأبد.

ويمدحه بقوله (2):

مـــا ارْتَـــدْ طَـــرْفُ محمّـــدٍ   إلاّ أتـــى ضرّاً ونَفْعَـــا
قـــاد النّـــدى بعِنانـــهِ   وتـــسرْبل المعـــرُوفَ دِرْعـــا
لمـــا اعتمـــدتُ عـــلى نَـــدا   ك أريتَنـــي وِتْـــرًا وشـــفْعَا
فعـــصَا نـــداهُ براحتـــي   أعلـــو بهـــا الإفـــلاسَ قرْعـــا

يقول إنه يضر وينفع بنظرته، إن شاء قتل، وإن شاء أعطى، وأنه أصبح يسوق الكرم، وكأنه يجره برسنه، حتى أنه اتخذ من المعروف درعا يلبسه، ويتحصن به، وقد اعتمد الشاعر على عطائه فمنحه أنواع العطاء المفرد والمزدوج، حتى غدا أبو نواس لا يخاف من الإفلاس ؛ لأنه أمسك عصا كرمه التي قرع بها الإفلاس، وأوسعه ضربًا.

---

(1) الديوان، ص٣١١.

(2) نفسه، ص٣١٥، ٣١٦.

والحقيقة أن أولى الناس بالكرم الأغنياء والحكام ؛ ذلك أن لديهم من أسباب الغنى ما يحول بينهم وبين الخشية من الفقر، والنفوس تتطلع إليهم، وتعقد الآمال عليهم، وإن كان الكرم محمودًا لكل أحد حتى المعدم الفقير الذي بكرمه يفوق الغني رفعة ومكانة وذكرًا.

ويقول في مدح العباس بن عبيد الله من قصيدته التي مطلعا أيها المنتاب من عفره[(١)]:

فاسْـــلُ عـــن نَــوْءٍ تؤمِّلُـــهُ ... حـــسبُكَ العبــاسُ مــن مَطَــرِهْ
ملـــكٌ قَـــلّ الـــشبيهُ لَـــهُ ... لم تَقَــعْ عــيْنٌ عــلى خطَــرِهْ

يقول تغافل عن أي مطر تأمل بهطوله وانهماره؛ لأن العباس يكفيك أمره فيمطر عليك بوافر عطائه أكثر مما تأمل من انهمار المطر وبركاته.

وهذه القصيدة في مدحه أيضاً يقول فيها [(٢)]:

أنـــا في دُنْيـــا مـــن العبّـــ ... ـــــاسِ أغْـــــدُو وأروحُ
هاشِـــــميّ، عبـــــدَليّ ... عنـــده يغلـــو المـــديحُ
علَـــمُ الجـــودِ، كِتـــابٌ ... بـــينَ عينيـــهِ يلـــوحُ
كـــلّ جـــودٍ يـــا أمـــيري ... مـــا خَـــلا جُـــودَكَ، ريـــحُ
إنّـــما أنـــت عطايـــا ... أبَـــــدًا لا تَـــــسْتريحُ
بُـــحَّ صـــوتُ المـــالِ ممّـــا ... منْـــكَ يـــشْكُو، ويـــصيحُ
مـــا لهـــذا آخِـــذٌ فـــوق ... يديـــــهِ أو نـــــصيحُ
جُـــدْتَ بـــالأموالِ، حتـــى ... قيـــلَ مـــا هـــذا صـــحيحُ

---

(١) الديوان، ص٣٢٧.

(٢) نفسه، ص٣٣٠.

صُــــوِّرَ الجـــــودُ مِثـــــالاً فلـــــــهُ العبّـــــــاسُ روحُ
فهْـــــو بالمـــــالِ جَـــــوادٌ وهْـــوَ بـــالعِرْضِ شَـــحيحُ

يقول إنه يسكن بنعيم في دنيا العباس، ويصفه بأنه من بني هاشم، وعبدليّ نسبة إلى عبد الله. ثم إن كرمه واضح للعيان، يتضح من عينيه كعلم يخفق ويلوح، وكل عطاء سوى عطائه فهو هباء لا ينفع؛ لأن عطاياه أبدًا لا تستريح فهي في شغل دائم مع طالبيها. إن المال ليصرخ ويستنجد طالبًا النجاة من التلف، فهذا الممدوح فتك به من كثرة الإنفاق والعطايا. حتى أن المال لينهمر ويتدفق على من يقصده، وما من ناصح مخلص يفلح في ردعه أو إيقافه عن هذا البذل والسخاء. لقد جاد بالأموال جودًا كبيرًا، أصبح يشكك به من يسمعه. ولو كان الكرم تمثالاً أو روحًا ما كان ليصير غير العباس. إنه كريم بالمال بخيل بالعرض.

ويقول في مدح الفضل بن الربيع(1):

والله مـــــن شـــــاء نـــــصر وأنـــت وإن خفنـــا الحـــصر
وهــــــرّ دَهْــــــرٌ وكَـــــشَرْ عــــن ناجِذَيْــــهْ، وبَــــسَرْ
أغنيـــتَ مـــا أغنـــى المطـــرْ وفيـــكَ أخـــلاقُ اليَـــسَرْ

يقول إن الله ينصر من يشاء ثم يمدحه بالكرم، فهم لا يخشون البخل معه في جميع حالات وتقلبات الدهر، فهو يعطي ويجود كالمطر المنهمر المتدفق مع خلق لين سهل.

ويقول في مدح العباس بن الفضل (2):

يــداه كــالأرض والــسماء، فــما تــنقص قطريــه كــف مخلــوق
فــإن يكــن مــن ســواه شي فمنــ ــه، وهــو في ذاك غــير مــسبوق

----

(1) الديوان، ص٣٣٦.

(2) نفسه، ص٣٤٢.

فكم ترى من مجوّد أظهر العبا   س منه طباع مستوق[1]

يصفه بالكرم حتى أن كرمه فضح جود غيره من المدعين الكرم، وكشف زيفهم؛ لأن كرمه طبع أصيل فيه غير متصنع ولا زائف. يقول أحدهم في هذا الشأن: "ويكون الكرم عند صاحبه سجية متأصلة في نفسه انطلاقًا من قواعد النظام التربوي الذي أعدّ عليه، وساهم في تقويم شخصيته منذ الصغر؛ لأن الكرم ليس الصرف فحسب، وإنما هو سلوك في الإنفاق مقترن بطيب النفس، ونابع من نيّة الخير، لذلك ترى الكريم غير متكلّف، ولا ساعٍ إلى مظاهر تعبّر عن اصطناع يكمن وراءه هدف آنٍ، أو مصلحة معينة"[2].

وفي مدحه أيضًا [3]:

لئن سميت عباسًا   فما أنت بعباس
لدى الجود، ولكنك   عباس لدى الباس
وبالفضل لك الفضل   أبا الفضل على الناس

يقول إنه ليس عباسًا عند الطلب، بل هو بسّام في الجود، عباس في القتال، فهو يرهب العدو بقسمات وجهه العابسة والغاضبة منهم، ثم إن له الفضل على الناس أجمع، فهو أبو الفضل كاسمه، إنه يلعب باسم الممدوح وكنيته في مفردات تجعل من ذلك الاسم والكنية مدحة تبقى أبد الدهر.

وفيه أيضًا يقول [4]:

ما عدلَ العبّاسَ في جوده   رامٍ بدَفّاعَيّهِ، تيّارُ

----

(١) المستوق: الزيف. الديوان، ص٣٤٢.

(٢) السحمراني، أسعد، الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، ص١٢٩.

(٣) الديوان، ص٣٥١.

(٤) نفسه، ص٣٣٨.

ولا دَلــــوحٌ أَلِفَتْــــهُ الــــصَّبَا لــــدْنٌ عــــلى الملمــــسِ خَــــوّارُ[1]
حتــى غــدا أَوْطَــفَ مــا إنْ لــه دون اعتنــاق الأرض إقــصارُ[2]
يــا ابــن أبي العبــاس أنــتَ الــذي ســـــماؤهُ بـــــالجودِ مِـــــدْرَارُ

يقول إن جوده لا يعدله شيء حتى البحر، ولا السحاب المنهمر الذي تعصف به ريح الصبا أي ريح الشمال، ثم يصف هذه السحب باللين وكثرة الجلبة من الرعد. ثم يتبع ذلك بوصف آخر للسحاب المنهمر المشبه بكرم الممدوح بأنه يدنو إلى الأرض حتى ليكاد أن يلمسها؛ وذلك لقرب نوال الممدوح من طالبيه، إنهم لا يجهدون للوصول لعطائه أبدًا. ثم يكرر ذات المعنى في البيت الرابع.

ويمدح الربيع أبو الفضل بنفس القصيدة قائلاً [3]:

كـــأنّ ربيعًـــا كاســـمِه جـــادَه منفهِـــقُ الأرجـــاء مهـــمارُ
يـــسقيه مـــا غَـــرّدَ ذو عُلْطَـــةٍ في فَـــنَنٍ العِـــبريّ هَـــدّارُ

يقرنه بالسحاب الكثير الهطول والانهمار، والذي من أسبابه الربيع كاسمه، هذا الربيع يظل يروي مادام الحمام المطوق يسجع على أغضان العبري، أي السرو الذي ينبت عبر النهر.

ويقول في مدح محمد بن الفضل أيضًا [4]:

يُجَـلُّ عَـن التّـشْبيهِ جُـودُ مُحمّـدٍ إذا مَرِحَـــتْ كَفّـــاهُ بـــالهَطلانِ
يُغِبّــكَ مَعْــروفُ الــسّماءِ وكَفُّــهُ تَجـودُ بـسحّ العُـرْفِ كـلَّ أوانِ[5]

---

(١) الدلوح: السحاب الكثير الماء. لدن: لين. الديوان، ص٣٣٨.

(٢) الأوطف: الغمام المسترخي لكثرة مائه. اعتناق الأرض: عناقها. إقصار: كف وانتهاء. نفسه، ص٣٣٨.

(٣) نفسه، ص٣٣٩.

(٤) نفسه، ص٣٥٥.

(٥) يغبك معروف السماء: أي يزورك ويأتيك الحين بعد الحين. ومعروف السماء: الغيث. نفسه، ص٣٥٥.

يرى أن كرم محمد جل عن التشبيه، لاسيما إذا ما نشطت يداه، وبدأت بالهطول.

إنه يشبه يدي الممدوح بالسحاب المنهمر، إلا أن يدي الممدوح فاقت السحاب جودًا وتدفقًا؛ إذ إن السحاب ينهمر مرة، ويكف أخرى، ويد محمد تنهمر أبدًا.

ويقول في مدح الخصيب أمير مصر[1]:

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا	فأيّ فتىً بعد الخصيب تزور
فتى يشتري حسن الثناء بماله	ويعلم أن الدائرات تدور
فما جازه الجود ولا حل دونه	ولكن يسير الجود حيث يسير

إنه يتعجب هنا ويستفهم فيقول إنه إذا لم يزر مصر أرض ممدوحه فمن الأحرى بالزيارة إذن؟

هذا الخصيب الذي يهب المال لينال الثناء وهو يعلم أن الدنيا لا تبقى على حال واحدة، وأن الأيام دول ؛ لذا فإن أمر اكتناز المال لا يعنيه. ولنا وقفة مع هذا المعنى تتنافى مع القيمة التي نحن بصددها ؛ ذلك أن الكرم كما قلنا والعطاء يجب أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى، لا رغبة في الثناء والمدح، ولعل النواسي أصاب شيئًا من الحقيقة في قصيدته تلك؛ إذ أن ذلك دأب المدوحين إلا من رحم الله.

أما البيت الثالث فيمدحه برائعة من روائع مديح أبي نواس فيقول إن الكرم لم يكن ليتجاوزه يومًا، أو ليحل دونه إنما الكرم يسير حيث يسير، إنه يرى في الخصيب شخصًا أصبح الكرم ملازمًا وقرينًا له، يرحل معه ويبقى، ونرى هنا أنه فاق معنى زياد بن الأعجم في بيته الذي مدح فيه ابن الحشرج، والذي قال فيه [2]:

إن السماحة والمروءة والندى	في قبة ضربت على ابن الحشرج

فقد قيد الشاعر السماحة، والمروءة، والكرم بالقبة عكس شاعرنا الذي ادعى

---

(١) الديوان، ص٣٦٤.

(٢) ديوان زياد العجم. (١٩٨٣م). تحقيق: د. يوسف حسين بكار، الأردن: دار المسيرة، ط١، ص٦٥.

أن الكرم يسير حيث يسير الممدوح، وبذلك جعل الكرم ملازما له لا يفارقه بعكس القبة.

ويمدح الخصيب أيضًا بهذه المقطوعة قائلاً [1]:

أنتَ الخصيبُ، وهذه مصرُ ... فَتَدَفَّقَا فكلاكما بَحْرُ
لا تقْعُدا بيَ عن مدَى أمَلي ... شيئًا، فما لكما به عُذْرُ
ويحقّ لي، إذ صِرْتُ بيْنكما ... ألاّ يُحِلّ بساحتي فَقْرُ
النيلُ ينعشُ ماؤهُ مصرًا ... ونداكَ ينعشُ أهلَه الغمْرُ [2]

يخاطب الممدوح فيقول أنت خصيب ومصر ثرية، فكلاكما يتدفق كالبحر بالعطايا والأرزاق. وهو يرى أن لا عذر للممدوح ولا لمصر أن يقصرا دون تحقيق أمله، فمن حق من ينزل بهما ألاّ ينال ساحته الفقر والإملاق، فالنيل يحيي الأرض بعطائه، كما أن جودك وعطاءك الكثير يحيي من يطلب معروفك.

ويقول في مدح إبراهيم بن عبيد الله [3]:

مالَ إبراهيمُ بالما ... لِ كَذا غَرْبًا وَشَرقا
فَكَفاني بُخلُ مَن يَخ ... نُقُ حَلقَ الكيسِ خَنقا
واجِدًا مِن غَيرِ وَجدٍ ... لاوِيًا خَطمًا وَشِدقا
قَسَمَ الرَحمَنُ لِلأُ ... مَةِ مِن كَفَّيكَ رِزقا

يقول إن كرم إبراهيم عم الشرق والغرب، وقد أغناه وكفاه من سؤال كل بخيل يكنز ماله ويصره في الكيس ويقفله كأنما يخنق المال فيه خنقا. فكأنه يحقد على هذا الكيس بدون وجه، فيلوي أنفه وشدقه، بمعنى أنه يقفل فمه من شدة بخله.

---

(١) الديوان، ص٣٦٣.

(٢) الغمر: الغامر الكثير. نفسه، ص٣٦٣.

(٣) نفسه، ص٣٧٢.

والبخل من أبشع الصفات الإنسانية التي تدل على تعلّق صاحبه بالدنيا، وصدق الله العظيم إذ قال -سبحانه-: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(١)]، ثم يعود الشاعر للممدوح ليقرر أن الله قسم للأمة من كفيه رزقًا فعم كرمه وخيره كل الأمة.

قيمة العفة:

العفة قيمة إسلامية، ومطلب إنساني لا تستقيم الحياة بدونه، ومتى ما فقدت تخبطت الإنسانية في أوحال الرذيلة، وطغى الجانب الحيواني على الإنسان، فأصبح المجتمع قطيعًا من الحيوانات يعيش بلا قيد ولا ضابط يحمي له حرمته، ويحفظ له نسله واستقراره الجمعي.

إن العفة في معناها العام "هي اجتناب ما لا يحل ولا يجمل، وصد النفس عن تتبع شهواتها الدنيئة، أو السير وراء أطماعها الرديئة"[(٢)].

وهي قيمة بعيدة عن شاعرنا، لكن ذلك لم يمنعه من التغني بها، والثناء على ممدوحيه، ووصفهم إياها، فهي وإن كانت غائبة لدى فئة من المجتمع، لاسيما المجّان منهم فهي حاضرة وبقوة بأوساط المجتمع، من يتصف بها يرتقي، ومن يفقدها يسقط ويهون لدى الناس. فانتهاك العفة من خوارم المروءة عند المسلمين، وسبب انتقاص ورذيلة. وهذا سبب من أسباب نقمة المجتمع على شاعرنا الذي ضرب العفة بحائط المجون، واللهو، والتهتك، فنال من أقوال معاصريه ما أنقص من قدره رغم فحولته الشعرية وظرفه وكرمه. فالعفة خط أحمر لدى المجتمع المسلم ولا يزال.

----

(١) الحشر: ٩.

(٢) الدجوي، أحمد سعيد. (١٩٩٧م). فتح الخلاق، تحقيق: عبدالرحيم مارديني، ط٢، دمشق: دار المحبة، ص٨٥.

يقول بمدح الفضل بن الربيع[(١)]:

عـــفُّ المـــداخلِ والمخـــا　　　رِجِ، والغَريـــزَة، والـــضّمير

يصفه بالعفة بجوارحه كلها، فهو عفيف الباطن، كماهو عفيف الظاهر. عفته ليست رياء، بل هو نقي الضمير، طاهر الغريزة كما هو طاهر الجوارح ظاهرها وباطنها.

ويمدح العباس بن عبيد الله قائلاً [(٢)]:

فهْـــو بالمـــالِ جَـــوادٌ　　　وهْـــوَ بـــالعِرْضِ شَـــحيحُ

إنه يجود بالمال أي جود، ولكنه في المقابل حريص أي حرص على عرضه وشرفه.

وقال يمدح نفسه بالعفة [(٣)]:

عـــف ضـــميري هـــازل　　　لفظـــي وفي نظـــري عرامـــه[(٤)]

لا أســـــتهش إلى الـــــصبا　　　إذ لـــيس تتبعنـــي الملامـــة[(٥)]

متلطـــــف لا أشرئـــــب　　　ولا تـــوبخني الملامـــة[(٦)]

يقول إن ضميره عفيف، ولو كان يرنو بنظره إلا أنه غير جاد بل يهزل، إنه يتجنب اللهو حتى لا يندم، ثم هو يمشي بلطف لا يرفع رأسه حتى يبعد عن التوبيخ واللوم. ولكن هل هذا هو حال النواسي؟ لا نعتقد ذلك، لذا فالعفة أبعد ما تكون عن شاعرنا في أيام فتوته، إلا أنه ربما يستخدمها لمدح نفسه أمام من يستجدي غرامه، فيظهر عفته واكتفاءه بالنظر فقط. إنه يعلم في قرارة نفسه مكانة هذه الصفة في نفس المتلقي ؛ لذا وصف بها ممدوحيه، وعبثًا حاول أن يصف بها نفسه.

---

(١) الديوان ص٣٤٥.

(٢) نفسه، ص٣٣٠.

(٣) نفسه، ص٣٨٢.

(٤) عرامه: قوة. نفسه، ص٣٨٢.

(٥) لا أستهش: لا أرتاح. نفسه، ص٣٨٢.

(٦) لا أشرئب: أشرأب: مد عنقه لنظر. نفسه، ص٣٨٢.

❁ قيمة الجهاد والدفاع عن الدين:

هذه القيمة ولدت من رحم الإسلام، وعرفها المسلمون بعد أن شرعها الله في كتابه وحث عليها في سنة نبيه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فالجهاد من سنن الخالق -عَزَّوَجَلَّ- في هذا العالم، فالله -عَزَّوَجَلَّ- يعلم "أن قوى الباطل لابد أن تقف في وجه الحق والعدل، ومن هنا شرع -سبحانه- الجهاد في سبيله، لنشر دينه، وحمايته من المبطلين الفاسدين"(١).

فشرع الله الجهاد للمسلمين، ووضح قيمة الجهاد بالنفس والمال، وجعل جزاء المجاهدين الجنة. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ﴾(٢).

وقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «لغدوة في سبيل الله، أو روحة خير من الدنيا وما فيها»(٣).

فالجهاد من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله، عن ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قلت يا رسول الله: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» (٤).

"إن الجهاد في الإسلام يرتكز على الاعتقاد بأن الإسلام هو دين الحق، وكان هذا

----

(١) السحمراني، الأخلاق في الإسلام، ص٨٧.

(٢) التوبة: ١١١.

(٣) متفق عليه من حديث أنس، البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله، وقاب قوس أحدكم من الجنة، رقم (٢٧٩٢)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، رقم (١٨٨٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها (٥٢٧)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله - تعالى- أفضل الأعمال (٨٥).

الاعتقاد دافعا للمسلمين الأوائل إلى تحقيق انتصارات وفتوحات يشهد بها العالم"(١).

ولكن غلب على الناس اليوم الفهم المغلوط لقيمة الجهاد، ومسوغاته، وأحكامه، وشروطه، واتخذه الغرب وسيلة لإلصاق التهم بالإسلام بحجة الإرهاب، والقتل، والتدمير، والحقيقة "إن الحرب في الإسلام محصورة في دائرة ضيقه جدًا، وفي حدود الضرورة القصوى، بعيدًا عن الغدر والخيانة، وعن قتل النساء والشيوخ والعجزة والأسرى، والتعذيب والتمثيل، وإفساد المياه، والحدائق، والزروع، والبيوت. وبذلك كان الفتح الإسلامي فتحًا للقلوب، وتطييبًا للنفوس"(٢). وهكذا كانت فتوحات المسلمين في العصور السابقة، دفاعاً وهجوماً تستدعيه الحاجة، ولنا في صرخة تلك المرأة التي وصل نداؤها المعتصم ليهب نجدة لها قائداً جيشه محرراً تلك الأرض التي نهبت عنوةً، ومدافعاً عن شرف امرأةٍ من المسلمين استنجدت به.

"كما أدرك غير المسلمين أن الحرب - مع كراهية النفس لها- هي أفضل بكثير من التخاذل والاستسلام، يقول الكاتب الفرنسي دومر: من ينكر أن الحرب هي مئة مرة أفضل من خسارة الاستقلال، وفقدان الشرف الوطني"(٣).

لقد كانت قيمة الجهاد في عصر أبي نواس حاضرة بقوة على عكس زماننا هذا، بل وتعدّ من أعظم المحاسن، وأشرف الأعمال، وهي سبيل لتخليد اسم رافع لواء الجهاد على أعداء الدين، والمحارب للطغاة والمشركين؛ لذا فقد امتدح الشاعر الخلفاء والوزراء والأمراء بهذه القيمة التي تطرب الممدوح، وتطير بصيته في آفاق المعمورة، فتجعل اسمه مربوطًا بالشرف، والعزة، والشجاعة، والهيبة.

---

(١) عثمان، عبد الكريم. (١٩٧٩م). معالم الثقافة الإسلامية. ط٣، الرياض: مؤسسة الأنوار للنشر والتوزيع، ص٥٦.

(٢) السحمراني، الأخلاق في الإسلام، ص٩٨.

(٣) انظر: السحمراني، الأخلاق في الإسلام، ص٩١.

قال هذه القصيدة يمدح فيها الرشيد، وهو في السجن[(١)]:

بَــــراكَ اللهُ لِلإِســــلامِ عِـــزًّا ... وَحِــصنًا دونَ بيــضَتِهِ حَــصينا

لَقَـد أَرهَبـتَ أَهـلَ الـشِركِ حَتّى ... تَـــرَكتَهُمُ وَمـــا يَتَـــذَمَّرونا

تَــزورُهُمُ بِنَفـسِكَ كُــلَّ عــامٍ ... زِيــارَةَ واصِــلٍ لِلقاطِعينـــا

وَلَـو شِـئتَ اِكتَفَيـتَ إِلى نَعـيمٍ ... وَقـاس الأَمـرَ دونَـكَ آخَرونـا

فَشَفِّع حُسنَ وَجهِكَ في أَسيرٍ ... يَــدينُ بِحُبِّــكَ الــرَحمَنَ دينـا

يقول أن الله اختص الرشيد لعزة هذا الدين وحمايته، وجعله الله للدين حصنًا منيعًا يذود عنه، وينافح عن بيضة هذا الدين، وأنه أخاف الملحدين والكفار حتى جعلهم يتذمرون، ثم يشير إلى أنه لو شاء لاكتفى بالراحة والخلود للنعيم ولكن شجاعته وحبه للجهاد ونصرة الدين جعلته يقوم بهذا الأمر ولو أنه مخول لإسناد هذه المهمة لغيره.

ويقول في مدحه[(٢)]:

أَلِفــت منادمَــة الــدماء ســيوفه ... فلقلّـــما تحتازهـــا الأجفـــان

حتــى الــذي في الــرحم لم يــك ... صورة لفـؤاده مـن خوفـه خفقـان

حذر امرئ قصرت يداه على العدا ... كالــدهر فيــه شراســة وليــان

إن سيوف الرشيد لا تُغمد في أغمادها، بل هي مشهورة دائمًا، تسيل الدماء منها، فتلازمها ملازمة النديم لنديمه. إن شجاعته وهيبته أرهبت الأعداء حتى أنها أخافت النطفة في الرحم، والتي لم تُخلَق بعد. وتلك لا شك مبالغة مقصوده من الشاعر.

إنه كالدهر يلين للناس تارة، وتارة يعصف بهم، فيغدو فاتكًا شرسًا حينما يغضب أو يُعصى.

----

(١) الديوان، ص٣٠٨.

(٢) نفسه، ص٣٠٩، ٣١٠.

ويقول فيه أيضًا[١]:

وأخفت أهل الشرك حتى أنه　　　لتخافك النطف التي لم تخلق

يكرر ذات المعنى السابق في البيت الثاني. فيقول: إنه أرهب وأخاف المشركين أعداء الدين حتى النطفة التي لم تخلق بعد لتخافه وترهبه من شدة هيبته، وبطشه، وقوته، وهي مبالغة في المدح كالسابقة.

ويقول في مدح الفضل بن الربيع[٢]:

أعلى مجاريك الخطر　　　أبوك جلَّى عن مُضر
يوم الرواق المحتضر　　　والخوْفُ يقْري ويذَرْ[٣]
لما رأى الأمرَ اقمطر　　　قام كريما فانتصر[٤]
كهزةِ العضبِ الذكر　　　ما حس من شيء هبر[٥]
وأنْتَ تَقْتافُ الأثَرْ　　　من ذي حُجولٍ وغُرَرْ
مُعيدُ وِرْدٍ وصَدَرْ　　　وإنْ عَلا الأمرَ اقتدَرْ

يمدحه فيقول: إنه لا يخاف من الأهوال فهو جسر يقتحمها ويمتدحه بوالده الذي كشف وأبان عن فروسية بني مضر. ويصف أحد الأيام التي خاضها في الحرب، حيث كان الخوف يجمع الناس ويفرقهم وذلك لكثرة الموت فيه، فلما اشتد الأمر قام الممدوح كالسيف الحاد الذي يفتك بمن حوله، وهو في ذلك يقتفي آثار الخيل المقتحمة يقبل ويدبر على القتال، وإن اشتد الأمر وعسر فإنه يصمد ويقدر على مواجهة أي خطب.

---

(١) الديوان، ص٣٠٦.

(٢) نفسه، ص٣٣٥، ٣٣٦.

(٣) يقري ويذر: يجمع ويفرق. نفسه، ص٣٣٥.

(٤) اقمطر: اشتد. نفسه، ص٣٣٥.

(٥) العضب الذكر: السيف. هبر: قطع. نفسه، ص٣٣٥.

إلى أن يقول فيها:

مــن جــذْبِ ألــوَى لــو نــترْ　　إليـــهِ طـــودًا لا نـــأطَرْ[1]
صـــعْبًا، إذا لاقـــى أبَـــرْ　　وإن هفـــا القـــوْمُ وقـــرْ
أو رهبـــوا الأمْـــرَ جَـــسَرْ　　ثـــمّ تـــسَامَى فَفَغَـــرْ

وهنا يصفه بالقوة الجسمانية، فهو قوي شديد لو أراد أن يجذب جبلاً لأعوج ومال الجبل، وإن أراد خصمًا فإنه سيغلبه لا محالة، وإن استخف القوم فإنه يحتفظ بوقاره، ثم إنه مقدام، حيث يتخلف الآخرون يفغر فاه من شدة الحماسة والغضب.

ويقول في قصيدة أخرى في مدح العباس بن الفضل[2]:

أَغلَـــبُ أَوفى عَـــلى بَراثِنِـــهِ　　يَفـتَرُّ عَـن كُلَّـحِ الـشَبا روقِ[3]
كَـــأَنَّما عَينُـــهُ إِذا اِلتَهَبَـــت　　بـارِزَةَ الجَفْـنِ عَـينُ مَخنـوقِ
لَمّـــا تَـــراءَوكَ قـــالَ قـــائِلُهُم　　قَـد جـاءَكُم قـابِضُ البَطـاريقِ
فَانـــصَدَعوا وِجهَـــةً كَـــأَنَّهُمُ　　جُنـــاةُ شَرٍّ يُنفَـــونَ بِـــالبوقِ

يشبهه بالأسد الكالح المكشر في وجه فريسته وكأن عيني الممدوح من بروزهما واحمرارهما عينا مخنوق وذلك من غضبه وشدة حنقه على أعداء هذا الدين. وما أن لمحوه حتى تنادوا بينهم، وصاحوا قد جاءكم من يستولي على الملوك والبطارقة، فتفرقوا وتصدعوا، وكأنهم يصاح بهم كي يشردوا.

----

(١) ألوى: شديد. نتر: جذب بجفاء، طود: جبل، انأطر: اعوج. الديوان، ص٣٣٦.

(٢) نفسه، ص٣٤٣.

(٣) الأغلب: الأسد. الكلح: جمع كالح وهو المتكشر في عبوس. والشبا: المراد بها أسنانه تشبيها لها بالشباة، وهي إبرة العقرب. وروق: جمع روقاء، والروق أن تعلو الثنايا العليا عن السفلى. نفسه، ص٣٤٣.

ويقول في مدح محمد بن الفضل [(1)]:

وإنْ شَبَّتِ الحَرْبُ العوانُ سَما لها ... بصَوْلَةَ لَيثٍ في مَضاءِ سِنانِ [(2)]

فلا أحَدٌ أسْخى بِمُهْجَةِ نَفسِهِ ... على المَوْتِ منهُ، والقَنا مُتَدانِ

يمدحه بالشجاعة في الحرب التي ما أن تشتعل حتى يهب محمد لها بشجاعة ليث ومضاء سيف، ولن تجد أسخى منه نفسًا للموت حين تشتد المعركة وتتدانى الرماح. إنه يرخص نفسه في سبيل الله.

ويمدح العباس بن عبيد الله بالشجاعة قائلاً [(3)]:

وإذا مَجَّ القَنا عَلَقًا ... وتراءى الموتُ في صُوَرِهْ

راحَ في ثِنْيَيْ مُفَاضَتِهِ ... أسَدٌ يدْمَى شبَا ظُفُرِهْ

تتأبّى الطّيرُ غُدْوَتَهُ ... ثِقَةً بالشّبْعِ من جَزَرِهْ

يقول إنه حين يبدأ القتال فتبصق الرماح الدم، ويوشك الموت أن تبصره العيون لقربه. وحين يرتدي الدروع الواسعة يبدو كالأسد الذي ينقض على فريسته، وينشب أظفاره فيها، حتى أن الطيور الجائعة حين تعلم به تتبعه، وتقصد مكانه لثقتها بأنها ستشبع من جثث قتلاه، حيث إنه يكثر الفتك بأعداء الدين.

وقال في مدح خصيب مصر [(4)]:

وأطرق حيّات البلاد لحيّه ... خصيبية التصميم حين تسور

سموتَ لأهلِ الجوْرِ في حال أمنِهمْ ... فأضحوا وكلٌّ في الوثاق أسِيرُ

يقول: إنه أذل أعداء هذه البلاد حتى أنهم أحنوا رؤوسهم من شدة خوفهم

(١) الديوان، ص٣٥٥.

(٢) الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد مرة. نفسه، ص٣٥٥.

(٣) نفسه، ص٣٢٧.

(٤) نفسه، ص٣٦٤.

من توثبه، وأنه قيَّد أهل الظلم، وأسر كل عدو متربص لهذا الدين، ولهذه البلاد.

وفي مدحه أيضًا[1]:

زَهابالخصِيبِ السيْفُ والرّمحُ في الوَغَى وفي السّلْمِ يزْهُو مِنْبرٌ وسَرِيرُ

يصفه بالشجاعة فهو بالحرب يتقن حمل السيف، وبالتالي الفتك بالأعداء، كما يتقن في السلم الخطابة والحكم.

وقال يمدح عبد الوهاب بن مايسان أحد أشراف الفرس[2]:

كم نار حرب ضلالة أطفأتها ورضاع جهل كدته بفطام

يصفه بأنه يخمد كل نار فتنة وضلالة يقوم بها أعداء الدين كما أنه يقطع دابر كل جذوة ثورة لجاهل ناقم من هذا الدين، وهذه الدولة.

قيمة الرحمة:

هي قيمة إسلامية أصيلة، لا يمكن الزعم بأنها قيمه عربية وجدت قبل الإسلام، وإن كان البعض يتصف بها إلا أنها لم تعتبر قيمة يسمو بها الشخص، ويمدح من أجلها، ولعل في وأد البنات في الجاهلية خير دليل على غياب قيمة هذه الصفة في نفوس العرب، وإن كان البعض رحيمًا إلا أن رحمته لا تعدو قلبه، ولا يفاخر بها، بل نجدهم يفاخرون بالعكس كالغلظة والجفوة كما مر من حديث الأعرابي الذي تعجب من تقبيل الرسول لحفيده.

"والحقيقة أن الرحمة في أفقها الأعلى، وامتدادها المطلق صفة المولى- تباركت أسماؤه- فإن رحمته شملت الوجود، وعمت الملكوت"[3].

---

(١) الديوان، ص٣٦٦.

(٢) نفسه، ص٣٧٩.

(٣) الغزالي، محمد، خلق المسلم، ص٢١٢.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[(١)].

وقد قيل لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ادع على المشركين والعنهم! قال: «إنما بعثت رحمة لم أبعث لعانًا»[(٢)].

فالأخلاق عنوانها الرحمة "رحمة من الإنسان لأخيه الإنسان، والرحمة من الإنسان للحيوان فلا يجهده، أو يحمله فوق طاقته، وقصة المرأة التي نص الحديث على أنها عذبت بهرتها مشهورة، فهي لم تطعمها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض. والرحمة تكون للطبيعة، فلا يعبث بثرواتها التي هي خيرات أمده الله بها"[(٣)].

فالرحمة قيمة إنسانية ضرورية الوجود والتطبيق؛ ذلك أن "سبب شقاء الإنسانة انعدام الرحمة في الحكم، وفي التشريع، وفي التعامل بين الناس، فإذا جاء الرسول بالرحمة فمعنى ذلك أن رسالته رسالة إنقاذ للإنسان من ظلم الإنسان، وقسوة الإنسان"[(٤)].

لقد حضرت هذه القيمة في شعر أبي نواس قليلاً؛ ذلك أنه غالبًا ما يمدح الشعراء بصفات القوة، والشجاعة، والكرم، والدفاع عن الدين، والعدل، والعفو الذي أنشده كثيرًا، واستجدى به ممدوحيه، ولعله اضطر في بعض الأحيان أن يستجدي الممدوح بقيمة إسلامية أخرى غير العفو كالرحمة، والتي يعلم أن لها صدى في نفس كل مسلم، لاسيما ومن بيده أن يكون رحيمًا بالعفو عنه، أو قاسيًا شريرًا إذا سجنه.

يمدح أبو العباس فيقول[(٥)]:

أبا العَبّاسِ ما ظَنّي بِشُكري   إِذا ما كُنتَ تَعفو بِالذَميمِ

---

(١) غافر: ٤٠.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم (٢٥٩٩).

(٣) السحمراني، الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، ص١٠٢.

(٤) حسن، أيوب. (١٩٨٥م). السلوك الاجتماعي في الإسلام. ط٤، الكويت: دار البحوث العلمية، ص١٨٨.

(٥) الديوان، ص٣٤٧.

وَإِنّي وَالَّـــذي حاوَلـــتَ مِنّـــي   لَمُعـــوَجٌ دَفَعـــتَ إِلى مُقـــيمِ
وَكُنـــتَ أَبًـــا سِـــوى أَن لَم تَلِـــدني   رَحـــيمًا أَو أَبَـــرَّ مِـــنَ الـــرَحيمِ

يخاطب الممدوح فيقول له كيف يحق لي أن أشكرك إذا ما أنت عفوت عن ذميم ما حصل مني، ثم يؤكد له أنه دفعه للاستقامة، وسلوك الطريق الصحيح، فاستقام بعد اعوجاج، ثم يذكره برحمته له، وأنه كان أحن من الأب عليه، فهو أب له وإن لم يلده.

❁ قيمة الحلم:

لقد كان العرب الأولون يفخرون بأنهم يلقون الجهل بجهل أشد. فيقول شاعرهم

ألا لا يجهلـــن أحـــد علينـــا   فنجهـل فـوق جهـل الجاهلينـا[(١)]

حتى جاء الإسلام فبدأ يحد من هذا الاندفاع، ويقيم أركان المجتمع على الفضل، فإن لم يتحقق فالعدل، والعدل لن يتحقق إلا إذا ضبط الإنسان عقله، وسيطر على غضبه[(٢)].

والحلم صفة من صفات الله -عَزَّوَجَلَّ- والحليم من أسمائه الحسنى قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ وكان الرسول -عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- يوصي أصحابه بالحلم والسكينة، ويحذر من الغضب ضاربا لهم أمثلة حية من تصرفاته مع بعض الجهلة من الأعراب، والتي فيها يتمثل -عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- بضبط النفس، والحلم، والأناة.

والحلم هو: ضبط النفس عند الغضب، والصبر على الأذى من غير ضعف ولا عجز ابتغاء وجه الله تعالى، وقيل في الأدب العربي: "ليس الحليم من ظلم فحلم

---

(١) ديوان عمرو بن كلثوم، (ص٧٨)، والقرشي، أبو زيد. جمهرة أشعار العرب، ص٣٠٠، والتبريزي، شرح القصائد العشر، ص٢٨٨، وابن النحاس، شرح القصائد المشهورات (١/ ٢/ ١٢٥).

(٢) انظر: الغزالي، محمد، خلق المسلم، ص١١٦.

حتى إذا قدر انتصر، ولكن الحليم من ظُلِم فحلم، فإذا قدر غفر"[1].

فالحلم في أصله شجاعة أمام النفس الغاضبة، يرتقي بها إلى أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة، وقد قيل "من حلم ساد"، فكم من امرئ ساد قومه بحلمه، كالأحنف بن قيس، وعرابة بن أوس.

يقول أبو نواس في قصيدته التي مطلعها "خلق الشباب" في مدح الرشيد[2]:

هَـذا أَمـيرُ المُـؤمِنينَ اِنتاشَـني	وَالـنَفسُ بَـينَ مُخَنجَـرٍ وَمُخَنَّـقِ
فَاِقذِف بِرَحلِكَ في جَنابِ خَليفَةٍ	سَـبّاقِ غايـاتٍ بِهـا لَم يُـسبَقِ
نَفسي فِـداؤكَ يَـومَ وابِـقَ مُـنعَمًا	لَـولا عَواطِـفُ حِلمِـهِ لَم أُطلَـقِ
حرَّمتَ مِن لَحمي عَلَيكَ مُحَلَّلاً	وَجَمَعتَ مِـن شَـتّى إِلى مُتَفَـرِّقِ

يقول إن الخليفة أنقذه من الموت بعد أن كادت روحه تزهق وتصل حد الحلقوم والخناق، ثم يخاطب نفسه فيقول: اقذف بمطيتك في رحاب ملكٍ سبّاق لكل معروف، ولا قبل لأحد أن يتخطاه في ذلك. لقد حرّم الخليفة عليه لحمه بعد أن كان حريًّا به أن يحلله بسبب كثرة مجونه ومعاصيه، - فيفرّق لحمه وينثره، ولكنه اختار أن يعفو عنه ويجمعه بعد شتات، وما ذلك إلا لحلمه وكبير عطفه على الشاعر. وهذا تصرف إسلامي وإنساني، "فالمصلحون العظماء لا ينتهون بمصاير العامة إلى هذا الختام الأليم، إنهم يفيضون من أناتهم على ذوي النزق حتى يلجئوهم إلى الخير إلجاء. ويطلقون ألسنتهم تلهج بالثناء"[3].

وهو سلوك إسلامي فيه الكثير من التربية والتقويم لسلوك بعض المنحرفين عن جادة الصواب من المسلمين ممن لم تتكرر كثيرا لديهم، تلك التصرفات المعوجة. هذا الحلم عنهم فيه فرصة كبيرة لإعادة إصلاحهم، وإيقاظ ضمائرهم بعد طويل غفلة.

---

(١) الزهراني، محمد مسفر. (١٩٩٦م). صور مشرقة، الرياض: مكتبة شمس المعارف، ص٣٩.

(٢) الديوان، ص٣٠٥.

(٣) الغزالي، محمد، خلق المسلم، ص١١٣.

قيمة إجارة المستجير:

هذه القيمة وجدت قبل الإسلام لدى العرب في الجاهلية وجاء بها الإسلام فهي من خصائص هذه الأمة، ومن القيم الإسلامية الموروثة.

يقول الشاعر في مدح إبراهيم بن عبيدالله[1]:

إذا كان إبراهيم جارك لم تجد   عليك بنات الدهر من متقدم
هو المرء لا يخشى الحوادث جاره   فخذ عصمة منه لنفسك تسلم
لقد حط جار العبدري رحاله   إلى حيث لا ترقى الخطوب بسلم

يقول إذا كان الممدوح جارك فإنه سيكون حصنًا حصينًا لك ضد حوادث الدهر وآفاته، فمن استجار أو اعتصم به فإن السلامة طريقه، ثم يكرر ذات المعنى في البيت الثالث، فيقول إنه يؤمّن مستجيره بحيث لا ترتقي إليه الخطوب، ولا تصل إليه النوائب.

ويقول في مدح العباس بن عبيد الله من قصيدة "أيها المُنتابُ عنْ عُفُرِهْ"[2]:

ثمّ أدناني إلى ملكٍ   يأمنُ الجاني لدى حُجرِهْ

لقد امتطى ذلك البعير الذي أنزله إلى ملك يأمن كل من ينتجعه ويقبل عليه.

ويقول في مدح الخصيب [3]:

ولمّا أتَتْ فُسْطاطَ مصْرٍ أجارَهَا   على رَكبِها، أن لا تزالَ، مجيرُ

هنا يذكر أن ركبانهم أُعينت لما وصلت مصرًا، وما ذلك إلا أن الخصيب مازال يجير من يستجير به.

---

(١) الديوان، ص٣٦٨.

(٢) نفسه، ص٣٢٧.

(٣) نفسه، ص٣٦٥.

ويقول في مدح عبيد الخادم (١):

ويقـصُرُ كـفُّ الـدهرِ عمّـن أجَـارهُ ويرعى من الآفات من حيث لا يـدري

يمدحه بأنه يؤمّن من استجاره من ويلات الدهر، ويحميه من المصائب؛ ومع ذلك فهو لا يدري به لأن إنقاذه وحمايته للناس كافة لا تقتصر على أحد.

(١) الديوان، ص٣٧٣.

المبحث الثالث

القيم الإسلامية في الرثـاء

القيم الإسلامية في الرثــاء

هذا الغرض لا يختلف عن أخيه المدح، غرض تطرق إليه معظم الشعراء في كل العصور، فمن مدحه الشاعر في حياته نجده يعود ليرثيه بعد مماته، كما يرد أن الشاعر أحيانًا يرثي شيخًا صالحًا فقدته الأمة، وهو لم يتعرض لمدحه في حياته، أو يرثي ابنا، أو زوجة، أو صديق لم يسبق أن مدحهم كما قد يرثي الشاعر نفسه.

لكن يبقى الرثاء مدحًا لخلال المرثي من خلال لغة أكثر حزنًا، ومعانٍ أكثر تفجعًا ولوعة؛ لذا يغلب الصدق عليه غالبًا، فالمدح له غاياته التي تحتمل الصدق، والتملح، أو النفاق. أما الرثاء فتبقى غايته خالصة بين الراثي والمرثي التي انتهت صلته بهذه الدنيا، ورحل عنها.

ومراثي أبي نواس قليلة في الجملة مقارنة بقصائده في الأغراض الأخرى، ولهذا الأمر أسباب تتعلق بشخص أبي نواس ونفسيته، وقد أشار الكثير من النقاد إلى هذا الأمر، فعمر فروخ يرى أن "الرثاء قليل جدًا في ديوان أبي نواس، ولكنه يمتاز بعاطفة قوية تجنح بالشاعر أحيانا إلى المبالغة. لم يكن الحزن مذهب أبي نواس، ولكن هذا لم يمنع عاطفة أبي نواس من البروز في هذا الفن، فلقد رثى أستاذيه والبة بن الحباب وخلفًا الأحمر رثاءً مخلصًا فأجاد، وله في الأمين أبيات قليلة، ولكنها مشهورة"(١).

أما طه حسين فيقول: "كما أن مدح أبي نواس في أكثر الأحيان ليس بالصادق ولا الممتاز فرثاؤه قليل الخطر، بل ربما كان الرثاء أضعف شعر أبي نواس، فلم يكن أبو نواس رجلاً محزونًا، ولا ميالاً إلى الحزن. وإنما كان رجلاً مبتهجًا بطبعه. أو كان هو الابتهاج. فليس غريبًا أن لا يجيد الرثاء، وليس غريبًا أن يتكلفه أو يضطر إليه. أما صلات المودة التي كانت تصل بينه وبين الناس، فلم يكن أكثرها يقوم على الجد، وإنما كان يقوم على اللذات فكان أبو نواس مدينًا لأصدقائه بالابتسام لا العبوس، ومن هنا لا تكاد تشعر

---

(١) فروخ، عمر، أبو نواس، ص١٠٤.

بشيء من الألم حين تقرأ مراثيه القليلة. وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق في رثائه إلا مرة واحدة، وذلك حينما رثى الأمين بهذه الأبيات.

طوى الموت ما بيني وبين محمد   وليس لما تطوي المنية ناشرُ"(١)

لذلك نلاحظ أنه إلى جانب قلة قصائده في الرثاء جانبًا آخر من التكلف الشكلي الذي اضطره إلى ركوب موجة الألفاظ الغريبة والوحشي من المفردات.

وقد يتساءل القارئ عن قلة هذه القصائد بالرغم من كون الشاعر شخصية اجتماعية لها العديد من المعارف والأصدقاء، وقد فقد بعضهم، لكنه لم يعبأ بالكثير منهم، ولم يرث إلا قلّة قليلة من أصحابه. وربما نجد في هذا القول للعربي درويش جوابًا مقنعا لهذا التساؤل حيث يقول: "إن شاعرنا إنما أراد الرفاق أحياء، يغنم وإياهم متع الحياة، فإذا ماتوا وكل أمرهم إلى الله"(٢).

نعم هذا هو الجواب الأقرب لمن فهم نفسية هذا الشاعر وطبيعة حياته.

ومراثي أبي نواس مثل مدائحه تمامًا عامة وخاصة، أما العامة فهي التي رثى بها الخلفاء، والأمراء، والقادة الذين مدحهم في حياتهم، والتي غلب عليها طابع الرثاء التقليدي من تمجيد لخلال الميت وندبه، والإشادة بتقواه، وكرمه، وعدله، وحلمه، ورحمته برعيته، وغيرها من القيم التي سبق وذكرناها في غرض المدح، لذلك رأينا أن نتحدث في غرض الرثاء عن قيم أخرى تجنبا للتكرار؛ لأن القيم التي وجدناها في الرثاء هي ذاتها قيم المدح- وإن اختلفت النبرة- وهي لا تهمنا بقدر القيمة ذاتها. وبالتالي فقد كانت مراثيه العامة تفتقد الصدق والعاطفة كمرثيته في الرشيد التي يقول فيها (٣):

----

(١) حسين، طه، حديث الأربعاء، ١٦٢.

(٢) درويش، العربي حسن. (د. ت) أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٢٩٩.

(٣) الديوان، ص٤٣٨.

النــاس مــابين مــسرور ومحــزون   وذي سقام بكف المـوت مرهـون
مــن ذا يــسر بــدنياه وبهجتهــا   بعـد الخليفـة ذي التوفيـق هـارون

وقد نستثني منها مراثيه للأمين، والتي نلمس الصدق فيها، وذلك لقربه مـن نفـس الشاعر، فقد أحب أبو نواس الأمين بعد أن نادمه وعاشره.

قال يرثي الأمين(1):

طوى المـوت مـا بيني وبـين محمـدٍ   ولـيس لمـا تطـوي المنيـة نـاشِرُ
فـلا وصــل إلاّ عـبرةً تـستديمها   أحاديث نفـسٍ مالهـا الـدهر ذاكـرُ
وكنتُ عليـه أحـذرُ المـوت وحـده   فلـم يبـق لـه شيء عليـه أُحـاذرُ

كما رثى البرامكة مع قلة اتصاله بهم فقال فيهم (2):

إن البرامكــــة الـــذين تعلمـــوا   فعـــل الملـــوك فعلمـــوه الناســـا
كـانوا إذا غرسـوا سقوا وإذا بنـوا   لم يهـــدموا لبنائـــهم أساســـا
وإذا هموا صنعوا الصنيعة بالورى   جعلـوا لهـا طـول البقـاء لباسـا

نجده يـرثيهم بمـدحهم بكـرائم أفعـالهم وجميـل صـنائعهم قبـل مـوتهم، مـن عطـاء وجود وفك أسير وإغاثة ضعيف، وأن أعمالهم لم تكـن ناقـصة مبتـورة، بـل هـم إذا فعلـوا أتموا فعلهم، واستمروا به.

أما المراثي الخاصة فهي التي رثى فيها صديقا، أو حبيبا، أو معلّما علّمـه وأحبـه فقـد رثى صديقه مكتشف عبقريته والبة بن الحباب في مقطوعته التي مطلعها (3):

فاضـــت دموعـــك ســـاكبة   جزعًـــا لمــــصرع والبـــة

-----

(1) الديوان، ص٤٣٧.
(2) نفسه، ص٤٣٨.
(3) نفسه، ص٤٣٥.

كما رثى معلمه خلفًا الأحمر حياَ وميتًا، ورثى راويته أبا البيداء كما رثى أصدقاء له يقول في أحدهم [(١)]:

أحقــا منــك أنــك لــن تــراني ... عــلى حــال وأني لــن أراكــا
وأنــك غائــب في قعــر لحــد ... ومــا قــد كنــت تعلــوه علاكــا
فـلا ضـحكتْ، وقـد غُيبتَ سِنِّي ... ولا رقـأت مـدامع مـن سـلاكا

كما له مراثِ عدة في نفسه منها قوله [(٢)]:

دَبَّ فِيَّ الفَنــاءِ سُــفلاً وَعُلــوا ... وَأَراني أَمــوتُ عُــضوًا فَعُــضوا
لَــيسَ مِــن ســاعَةٍ مَـضَت لِيَ إِلّا ... نَقَــصَتني بِمَرِّهــا بِيَ جُــزوا
ذَهَبَــت جِــدَّتي بِطاعَــةِ نَفــسي ... وَتَــذَكَّرتُ طاعَــةَ اللهَ نِــضوا
لَهــفَ نَفــسي عَــلى لَيــالٍ ... وَأَيّــامِ تَمَلَّيــتُهُنَّ لِعبًــا وَلَهــوا
قَــد أَسَــأنا كُــلَّ الإِســاءَةِ ... فَــاللَهُمَّ صَــفحًا عَنّــا وَغُفــرًا

وقوله [(٣)]:

شـعرميت أتـاك في لفـظ حـي ... صـار بـين الحيـاة والمـوت وقفـا
انحلـت جـسمه الحـوادث حتـى ... كـاد عـن أعـين الحـوادث يخفـى

مراثي أبي نواس في العموم قليلة، وأغلبها مقطوعات قصيرة ما عدا قصيدتين قالهما في أبي البيداء وأستاذه خلف الأحمر، وقصيدته تصاريف الزمان، وليس غريبًا أن يكون أبو نواس قصير النفس في مراثيه، فهو شخصية غير ميالة للحزن، وأجواء الكآبة والموت، إنه يعيش الحياة ساعة بساعة، فكيف به يحب هذا الحديث الذي يشغله عن دنياه، ويذكره بما يتهرب عن ذكره ويخشاه.

----

(١) الديوان، ص٤٣٥.

(٢) نفسه، ص٤٣٦، ٤٣٧.

(٣) نفسه، ص٤٣٧.

أما ما يهمنا هنا في مراثيه فهو تلك القيم التي أنشدها فيمن رثاهم، وجعلها من أسباب رثائهم وندبهم، تلك القيم التي تمثلوها أحياءً فأنشدها بعدهم من رثاهم، وجعلوها ميسم فخر لهم، ومصدر بقاء لذكرهم، أما تلك المراثي التي ترثي الميت لذاته ولقربه من الشاعر فإنا أغفلنا النظر عنها لخلوها من القيم موضوع البحث.

من القيم الإسلامية في غرض الرثاء:

۞ قيمة العلم:

هذه القيمة قيمة إنسانية عظيمة عرفت قبل الإسلام، لكنها كانت قليلة، بل نادرة لدى العرب في الجاهلية، فأصحاب العلم والمعرفة بالقراءة والكتابة، وبعض الذين قرؤوا الكتب السماوية يعدون على الأصابع، ذلك أن العلم لم يكن مصدر فخر للعرب كالكرم، والشجاعة، أو جالبًا لمنفعة أبدًا كالتجارة، أو سقاية الحجاج أيام الجاهلية.

أما بعد ظهور الإسلام، وتنزيل القرآن فقد تغيرت الموازين بالكامل -أعني موازين التقييم- فاستجدّت قيم لدى العرب وغير العرب من المسلمين، وهي قيم شرعها الإسلام من خلال نصوص كتابه وسنته.

إن العلم يعد من أعظم القيم في الإسلام بعد التوحيد، فهو أول عمل يؤمر به خاتم الأنبياء قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾(١) وهي أول آية تنزل على محمد -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تأصل هذه القيمة في نفسه ونفوس أمته.

وقد كان دعاء من قبلنا طلب الزيادة في العلم قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾(٢)، والعلم سبب لرفعة صاحبه، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(٣).

---

(١) العلق: ١.

(٢) طه: ١٤١.

(٣) المجادلة: ١١.

ويقول -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهّل الله له به طريقًا إلى الجنّة»(1)، إن العلم الشرعي أولى العلوم بالمعرفة والدراسة لتقويم أمور الدين والدنيا، ومعرفة الحلال والحرام، ثم تأتي العلوم الأخرى التي حث الإسلام على طلبها والانتفاع منها، وجعلها طريقًا للجنة، "فعلوم الحياة مساوية لعلوم الآخرة في خدمة الدين، وتجلية حقائقه"(2).

وقد كان الرسول -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- يفرج عن الأسير من غزوة بدر إن علم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وذلك بدلاً من الفدية المالية التي كان المسلمون حينذاك في أشد الحاجة إليها لعلمه -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- أن "العلم للإسلام كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدين مستقرًا له إلا عند أصحاب المعارف الناضجة، والألباب الحصيفة"(3).

إن العلم يزيل ظلام التخلف والجهل، ويرتقي بالأمم إلى أعلى المراتب، وقد كان دأب الصحابة والتابعين والخلفاء من بعدهم إقامة العلم وتعليمه واستمر هذا ديدن الخلفاء من بعدهم، حتى إنك لتعجب أن شاعرًا مثل أبي نواس في مجونه ولهوه عالمًا بكثير من العلوم الدينية، كعلوم القرآن، والحديث، والعلوم اللغوية، والنحوية، بل إنه كان يتكبد عناء السفر والرحيل للبادية لاستقاء اللغة من منابعها الأصيلة، وما ذاك إلا ارتدادًا لروح عصره الذي كان يبجل العلم، ويحترم حامله، لذلك لا غرو أن رثى أبو نواس أستاذه خلفا الأحمر، أستاذه في الشعر وعلوم العربية، وراويته أبا البيداء الذي رثاه

---

(1) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي، أبواب العلم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب فضل طلب العلم، رقم (٢٦٤٦)، وابن ماجة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١٠٧٩).

(2) الغزالي، محمد، خلق المسلم، ص٢٢٧.

(3) المرجع السابق نفسه، ص٢٢٣.

في قصيدته التي مطلعها [١]:

هـل مخطـئ حتفـه عفـر بـشاهقة   رعــى بأخيافهــا شــثًا وطباقــا

يقول فيها [٢]:

زارَ الحِــمامُ أبــا البَيــداءِ مُخْتَرِمًــا   ولم يُغـادِرْ لـهُ في النّـاسِ مِطرَاقَـا [٣]

وَيْلُمّـهِ صِـلُّ أصْـلالٍ، إذا جَفَلُـوا   يرَوْنَ كـلّ مُعَـيّ القَـوْلِ مِغْلاقَـا [٤]

زار الموت أبا البيداء الذي قل شبيهه ونده فأجهز عليه، وقد كان داهية ذكيًا يعرف كل معجز في التعبير، غريب اللفظ، وكل كلام وحشي مغلق.

ثم يستمر في رثائه قائلاً [٥]:

ومِــنْ قَلائِـدَ قَـدْ قَلّـدتَ باقِيَهـا   مـن أهـل فنـك أجيـادا وأعلاقـا

صِـلٌّ، إذا مـا رآهُ الْقـوْمُ عامِـدَهمْ   أزاحَ نــاطِقَهُمْ صَــمتاً وَإطْراقَــا

فلَـيس للعلْـمِ في الأقـوامِ باقيَـة   عاقَ العَواقي أبـا البَيداءِ، فانعاقَـا

لقد كان لهذا الراوية من الفنون التي يتقنها نفائس كالقلائد التي تعلق في العنق. وعندما يحضر يسكت الناس فيصمتون لدهائه، وكثرة علمه. وليس للعلم بقية وخلف بعد أن قامت دون أبي البيداء عوائق الموت التي أخذته.

وقد رثى أستاذه خلفًا الأحمر بعد موته في قصيدته التي مطلعه [٦]:

---

(١) الديوان، ص٤٣١.

(٢) نفسه، ص٤٣٢.

(٣) مخترمًا: آخذًا له، مطراقًا: نظيرًا وشبيهًا. نفسه، ص٤٣٢.

(٤) نفسه، ص٤٣٣.

(٥) نفسه، ص٤٣٢.

(٦) نفسه، ص٤٣٢.

لا تئل العصم في الهضاب، ولا   شغواء تغدو فرخين في لجف

حيث يقول فيها (١):

لا يَهِمُ الحاءَ في القراءة بالْـ   ـحاءِ، ولا لامَها مع الألِفِ

ولا يُعَمّي معنى الكلامِ، ولا   يكون إنْشادُهُ عن الصّحُفِ

وكان ممّنْ مضى لنا خلفًا   فليس منه إذْ بان من خلَفِ

لقد كان خلف يتقن العلوم، ومنها علم التجويد، والقراءة التي يتقنهما إتقانًا بليغًا، فلا يوهم بالقراءة، ويبدل الحركات أو الحروف.

ثم يصفه بصفات العالم الذي لا يتعمد التمويه والتعمية ليوهم من أمامه بعمق فكره ومعرفته. ويصفه بأنه حافظة ذكي لا يتلو من الكتب، بل من ذاكرته، وهذا يدل على غزارة معرفته واتساعها.

ثم يختم القصيدة بأنه كان خلفًا لعلماء صالحين بذلوا العلم للناس، فلما مات لم يبق من يخلفه، أو يماثله في علمه.

أما هذه المرثية فاستثنائية حيث إن لها قصة مع الشاعر وأستاذه * يقول فيها (٢):

تروغ الطباق والنزع والألف   أودى جميع العلم مذ أودى خلف

من لا يعد العلم إلا ما عرف   قليذم من العياليم الخسف

فكلما نشاء منه نغترف   رواية لا تجتنى من الصحف

في الشطر الأول بيان لما قبله من الأبيات، والتي يصف فيها حتمية الموت، ثم يشرع في الشطر الثاني برثاء خلف، فيرى أن العلم مات بموته، وما ذلك إلا لمعرفته كل الفنون

---

(١) الديوان، ص٤٣٣.

* قالها في رثاء خلف الحمر وكان اقترح رثاءه وهو حي وقد عرضها عليه فاستجودها. نفسه، ص٤٣٤.

(٢) نفسه، ص٤٣٤.

والعلوم، حيث إنه لا يستصعب عليه أمر، فهو بحر زاخر بالعلوم، وبئر لا ينضب من الفنون.

يغترف طلبة العلم من علمه ما شاؤوا من رواياته، والتي لن يجدوا لها نظيرًا في الصحف، إنه موسوعة تتحرك، وكتاب ناطق.

❁ مجموعة من القيم الأخلاقية:

في بعض مقطوعات وقصائد الرثاء لأبي نواس مجموعة قيم ومكارم أخلاقية مترابطة من الصعب فصلها عن بعض، وتخصيصها بالحديث كل على حدة؛ لذا رأينا أن نتحدث عن هذه القيم من خلال شرح المقطوعة، أو الأبيات ذاتها، فالتخصيص والعنونة لا يهمنا بقدر ما تهمنا القيمة التي ذكرها الشاعر في هذه الأبيات.

وقد جمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: "هو أن يكون المرء كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برًا وصولاً، رضيًا، حليمًا رفيقًا، عفيفًا شفيقًا، لا لعانًا، ولا سبابًا، ولا نمامًا، ولا مغتابًا، ولا عجولاً، ولا حقودًا، ولا بخيلاً، ولا حسودًا، هشاشًا، بشاشًا، يحب في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله"[1].

يقول في رثاء نديمه الأمين[2]:

أيـــا أمــينَ اللهِ مـــنْ للنّـــدَى	وعِصْمة الضَّعْفَى، وفَكِّ الأسِيرْ
خلّفْتَنَــا بعْــدَكَ نبْكــي عَــلى	دُنْيــاكَ والــدّينِ بــدمْعٍ غزيــرْ
يــا وَحْــشَتَا بعْــدَك! مــاذا بنَــا	أحلّ من ضَنكٍ صُروفَ الدهورْ

يرثي الأمين ويناديه متسائلاً من للكرم والجود بعده، ومن يعصم الضعيف من جور القوي، ومن يفك الأسير من قيد الظالم أو العدو.

لقد كان الأمين غوثًا، وعطاء، وفرجًا لكل ضعيف، وأسير، وطالب معروف.

ثم إنه يبكي بعده لمصاب الدين والدنيا به. ثم يجد نفسه يعيش وحشة بعد فقده، وقد حلت عليه ويلات الدهر ونوائبه، فكأن الأمين كان في حياته يحميه صروف هذا الدهر وويلاته بعطائه ومواقفه معه.

---

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين، القاهرة: دار الريان للتراث، ج٣، ص٧٠.

(٢) الديوان، ص٤٣٧ و٣٣٨.

ويقول في رثاء أبي البيداء[1]:

يا ربّ عَوُراءَ ذي قُرْبَى كتَمْت ولـو ... فشَتْ لألقَتْ على الأعناقِ أطواقَا
ومن قَوارعَ قـد أخرَسْـتَ ناطقَهـا ... يحمِلْنَ مِنْ مُخطَفاتِ القومِ أوْساقَا
فقلـت لا حـصرا بـما وعـت أذنـا ... داعٍ، وَلا نَدُسًـا للإفْـكِ خلاّقَـا

لقد كان أبو البيداء يستر قبيح ما يصنعه الأقارب فيه، ولو أنه أفشا ما قالوا، أو فعلوا للحقتهم وصمة العار إلى الأبد، وأنه لا يرضى بأن يتحدث أمامه الآخرون بالكلام القارص أو المسيء، بل يجعلهم يصمتون، وكان يحمل عنهم أحمالهم.

والحق أن الصمت عن الأذى وكظم الغيظ من عظيم ما يفعله المسلم، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾[2]، والستر على الإخوان، وقبيح صنائعهم قيمة جليلة يفعلها عالي القدر، المترفع عن سفاسف الأمور، بل إن ذلك مما يجعل المسيء يراجع نفسه، ويحتقر ذاته التي أهانت ذلك الشخص، وترفَّعَ عن أخذ حقه، وأوكلها إلى رب العالمين.

قال -عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- لأبي هريرة: «يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق»، قال أبو هريرة: وما حسن الخلق يا رسول الله؟ قال: «تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك»[3].

فيجب أن يتحلى العلماء بالأخلاق الفاضلة، وتكون معاملتهم مع الناس بحسن الخلق، فهم قدوة الأجيال، ومحط الأنظار، وإن كانت هذه الأخلاق جديرة بالامتثال على كل مسلم إلا أنها على صاحب العلم والدين أوجب.

---

(١) الديوان، ص٤٣٢.

(٢) آل عمران: ١٣٤.

(٣) الأزدي، معمر بن راشد. (١٤٠٣هـ). جامع معمر بن راشد: تحقيق: حبيب الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، (١١/ ١٧٢).

وفي رثاء أستاذه خلف الأحمر يقول[1]:

أنْسَى الرزايا ميّتٌ فُجعتُ به   أمْسَى رهينَ التراب في جدَفِ
كان يُسنّي برفقة عَلَقًا   في غير عِيٍّ منه، ولا عُنُفِ
يجوبُ عنك التي عشيتَ بهَا   من قبلُ حتى يشفيكَ في لُطُفِ

لقد كان من مصاب الشاعر بموت أستاذه صدمة كبيرة أنسته سائر المصائب التي حدثت من قبل، هذا الميت الذي كان يُيّسر للمودة بخلقه الطيب، وقلبه الودود من دون عيّ في الكلام، ولا تعنيف في القول.

ثم إنه يزيل عنك كل ما ضللت، أو كنت قد عشيت به، ثم يعالجك، ويبرئك من دائك بلطف بالغ دون قسوة.

إنه حسن الخُلق دمث الطبع لين هين، ولا شك أنها قيمة خليقة بالمسلم اقتداء بسيد الخلق قدوتنا الذي وصفه الله في محكم تنزيله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2].

---

(١) الديوان، ص٤٣٣.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

المبحث الرابع

القيم الإسلامية في الزهد

القيم الإسلامية في الزهد

الزهد غرض شعري نظم فيه الشعراء العباسيون الكثير من قصائدهم، فعُرِف به البعض، وكانوا زهادًا في الحقيقة كما نظم فيه آخرون لا يعدون زهادًا، إنما كان طرقهم لهذا الغرض مجرد اتجاه فني، نافسوا فيه شعراء عصرهم، كما كان هناك صنف ثالث شعراؤه من المجان إلا أنهم نظموا في هذا الغرض في لحظات زهد حقيقية انتابتهم، وأجادوا فيه، ومن هؤلاء الشعراء شاعرنا أبو نواس.

ولك أن تتخيل كيف لشاعر طار صيته في الخمر، وقضى معظم حياته يتغنى بها ويعاقرها، متهتكًا ماجنًا ضاربًا بكل أعراف المجتمع السائدة آنذاك عرض الحائط مطلقا العنان لشهواته أن ينظم في مثل هذا الغرض ويجيد فيه، أما نحن فنرى أنه من الغريب أن لا ينظم مثل هذا الشاعر بالأخص في غرض الزهد، ذلك أن لديه من الأسباب ما يكفيه ليطرق هذا الغرض، فالجميع يعصي ويتوب، وهذه حقيقة وطبيعة بشرية لكن شعر أبي نواس الماجن الخليع و المعاقر للخمر جهارا، والمعلن عن فجوره أمام الملأ كل ذلك يجعله مع كمية العلوم التي يحويها عقله والمختزلة في ذهنه منذ صغره، والآثام التي تثقل كاهله، عُرضة لهزات الوجدان، ويقظات الضمير، والتي تدعوه ليزهد ولو كان زهده لا يعدو أيامًا، أو حتى ساعات.

إن أبا نواس على الرغم من سجله الحافل بكل أنواع الانحرافات إلا أن هناك جزءا من شعره لم يخل من تصوير الجانب الخيّر في مجتمعه، فكما كانت هناك أحاديث لاهية ماجنة تظهر في شعره، في المقابل كانت هناك أحاديث أخرى تصور لنا جانبًا آخر من حياة الشاعر يظهر فيه نادمًا تائبًا يسأل الله العفو والغفران. وهذه الأحاديث تمثل نوبات الصحو والندم التي كانت تعتري نفسه، فتملأها رهبة وخوفًا من المصير المحتوم للبشر(١).

---

(١) انظر: خليف، يوسف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، ص٦٤و٦٥.

نعم لقد كان شعر أبي نواس في الزهد نفحات من الإيمان اعترته في لحظة ضعف، وصيد خاطر من خواطر الندم الذي هز وجدانه غير مرة "فأنتج لنا في أيام زهده أجمل العبر التي يمكن للمرء أن يستمدها من هذه الحياة الدنيا؛ ذلك لأنها صدى صادق لتجارب خاضها الشاعر، وردود فعل لعبث عاشه في مجالس اللهو والقصف، لا كما يصف الزهاد الذين عاشوا على هامش الحياة، ولم يعرفوا آفاقها، ويجربوا شرورها، ويغرقوا في لهوها ومفاسدها"(١).

"إن شعر أبي نواس في الزهد لا يتضمن نظريات في التصوف، ولا يكشف عن تبحر صاحبه في مجالات الزهد، وتقوى الله، بل هو يتضمن "نظرات" في الزهد والتدين، ومجموعة "خبرات" في سوء الحياة الدنيا التي تنتهي بالفناء. وهي خبرات مُجرِّب عرف اللهو والإثم، ومارسهما حق الممارسة... والحقيقة أن هذه الأشعار كلها، إنما تطابق حياة أبي نواس مطابقة تامة، وهو يطل من كل بيت فيها بحياته العابثة الماجنة، ولا يفتأ يذكر في كل مقطوعة ما فرط منه في حياته، فيظهر الندم عليه، ويطالب نفسه بنسيان ما فات. ولهذا السبب نجد مشكلة عفو الله تشغل حيزًا كبيرًا من شعره الزهدي، فهو يقر بإثمه، ولكنه يرجو عفو الله، ويظهر ثقته بحصوله على هذا العفو"(٢).

ويبدو لنا بعد قراءة مطولة في تاريخ حياة أبي نواس، وطبيعة شخصيته، وقراءة مقطوعاته في الزهد أن الشاعر لم ينظم هذه المقطوعات في فترة محددة من حياته، ربطها البعض بآخر أيامه، بل نرى أنه نظمها على فترات متباعدة موزعه بين سني عمره التي قضاها بين مجونه ولهوه، وبين نوبات الصحو ولحظات الإفاقة التي تعتريه لحظة ندم، وخوف، ورهبة.

وقد أشار محمد النويهي إلى أن حياة أبي نواس "ما ختمت بهذه التوبة النهائية المزعومة، وإنما ختمت بالتحسرّ العظيم على الخمر حين حرم عليه الأمين شربها...

----

(١) الزبيدي، صلاح، دراسات في الشعر العباسي، ص٧٢.

(٢) درويش، العربي حسن، أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر، ص٣٣٧و٣٣٨و٣٤٠.

فأشعاره في الزهد موزعة على شتى الفترات التي تخللت حياته كلها، وليست محجوزة على مرحلة واحدة نهائية ختمت بها حياته"[1].

وفي هذا الصدد يقول محمد مصطفى هداره بعد أن مثل لعدد من شعراء الزهد في القرن الثاني الهجري: "وفيما عدا هؤلاء الشعراء الزهاد في القرن الثاني نجد تيار الزهد يمتد إلى شعراء آخرين لم يعرفوا بالزهد قط، بل ربما كانوا إلى المجون، والتهتك، والإباحة أقرب وألصق، ولكن هذا التيار الزهدي ربما ظهر عندهم في فترات صحو كانت تنتابهم -وهذا ما أعتقده- وهو يفسر وجود شعر في الزهد لشاعر كأبي نواس"[2].

والحقيقة أننا لا نستطيع الجزم بماذا ختم الشاعر حياته؟ وهل استمر على نفس منواله في الحياة من لهو ومعاقرة للخمرة؟ أم ختمها بتوبة صادقة؟

ذلك أن تحديد خاتمة شخص ما من الصعوبة بمكان، فالقلوب بين يدي الرحمن يقلبها كيف يشاء، إلى جانب اختلاف الروايات التي تذكر بعضها توبته، وتنفيها أخبار أخرى، وكل فريق يدلي بقصص تؤيد ذلك الرأي، وتستشهد بشواهد شعرية من الشاعر، لذا فتوبته قبل مماته من عدمها موضوع نعجز عن الجزم فيه، وإنما نذكر ما نطمئن له من الآراء التي نعتقد بصحتها، والتي تحكي عن فترات متباعدة من حياته لا ترتبط بختامها.

إلا أننا نرى أن بعض مقطوعات الزهد لديه جاءت على لسانه في آخر حياته، تلك الأبيات التي يتحسر فيها على مضي عمره الذي أنفقه في معصية الله، والتي يصور فيها سرعة مرور الزمن بلمح البصر وغروره بالدنيا، وأشرنا إلى ذلك عند تحليلنا للأبيات التي تضمنت هذا المعنى، وهي لا تتعدى خمس مقطوعات.

أما عن صدقه في نوبات الصحو التي تعتريه في فترات متفرقة من حياته فيشي بها ما قاله من مقطوعات في مواضيع شتى في الزهد، تناولت فضيلة التقوى، والحث على

---

(١) النويهي، نفسية أبي نواس، ص١١٦.

(٢) هدارة، اتجاهات الشعر العربي، ص١٩٤.

التوبـة، والنـدم عـلى المعـصية، والتـدبر في مخلوقـات الله الدالـة عـلى عظمـة هـذا الخـالق ووحدانيتـه إلى غـير هـذه مـن الموضـوعات التـي سـيرد الحـديث عنهـا في هـذا المبحـث، وسيشعر القارئ أثناء قراءة تلك الأبيات وتحليلها بغيـة استنطاق القـيم منهـا مـدى هـذا الصدق التي تعجّ فيه تلك الأبيات، ذلك أن العاطفة الشعرية الـصادقة تـأبى إلا الظهـور من خلال سياق متكامل من المفردات، والنغم، والصور يـشعر بهـا متـذوق الـشعر لأول وهلة من قراءة أشعاره، مع إمكان شاعر كأبي نواس التنصلّ من صدق العاطفة بمقدرتـه الفنية إلاّ أنه آثر الصدق؛ لأنه في الحقيقة صادق في تلك الساعة لا أكثر.

وأغلب الموضوعات التي أكثر مثل هؤلاء الشعراء المجّان من ذكرها، في مرحلة مـا بعد المجون، هي التوبـة والاسـتغفار لله، والتـضرع لـه، وطلـب الرحمـة منـه، والاعـتراف بالـذنب، والخـوف والنـدم والـصبر، وتـصوير الرحيـل، وبكـاء الـشباب، وذكـر المـوت والآخـرة، وشـكوى الـدنيا، وهـم في ذلـك يلجـؤون إلى الحكـم والمثـال البليغـة المرتبطـة بواقعهم المعاش(1).

ومن القيم الإسلامية في شعر الزهد لدى أبي نواس:

❁ قيمة الدعاء والمناجاة:

لقـد نـاجى الله الكثـير مـن الـشعراء في هـذا العـصر بقـصائد متفرقـة حتـى هـؤلاء الشعراء الذين لا يحسبون من هذا التيار، بل والذين أساؤوا إليـه أحيانًـا، مثـل أبي نـواس الذي له الكثير من القصائد التي يناجي فيهـا الله، ويتـضرع إليـه بأبيـات يملؤهـا الخـشوع والرجـاء، فيعـترف فيهـا باسـتحقاقه العبـادة؛ لأنـه الملـك القـادر، والخـالق الأعظـم لهـذه المخلوقات في الأرض، والتي يتأملها الشاعر في لحظة إفاقـة عقـل، ليعـترف بعظـيم خلـق الإله، وبجودة صنعه، ودقته وإحكامه، فيلين، ويخضع، ويندم، ويعترف بقـصيدة ينـاجي

---

(١) انظر: أبوزيد، علي ابراهيم. (١٩٨٦م). زهد المجان في العصر العباسي، بيروت: دار الثقافـة للطباعـة والنشر، ص٢١١.

فيها ربه بأنه الإله الأعظم المستحق للعبادة، لا أحد سواه.

كما كثرت في قصائد المناجاة لديه ترديد عبارات ومعاني التوبة والموت، والحث على التقوى، والإكثار من طلب المغفرة، والعفو، والندم على ما فات.

يناجي الله في هذه الأبيات فيقول[1]:

يـا رب إن عظمـت ذنـوبي كثـرةً ... فلقـد عـلمتُ بـأن عفـوك أعظـم
إن كـــان لا يرجـــوك إلا محـــسن ... فـبمن يـــلوذ ويـستجير المجــرم
أدعوك يـا ربي كـما أمـرت تـضرعًا ... فـإذا رددت يـداي فمـن ذا يـرحم
مـــالي إليـك وسيلـــة إلا الرضـــا ... وجـــميل عـــفوك ثـم أني مـسلم

نراه في هذه الأبيات خاشعًا يملؤه الأمل؛ لأن عفو الله أعظم مـن كـل شيء، فمهـما بلغت ذنوبه من العظم والكثرة فعفو الله أكبر وأعظم لكل من تاب واستغفر، إنه يتساءل بقلب أحرقته الـذنوب وأذوتـه المعـاصي إن كـان لا يرجـو عفـوك إلا مـن أحـسن وعمـل صـالحًا، فمـن للمجـرم المسرف عـلى نفسه؟ وأنـت ربـه. إنـه يرفـع يديـه متـضرعًا راجيًـا ويسألك أن لا ترد يديه صفرًا! لأن من لم ترحمه أنت وأنت من وسـعت رحمتـه كـل شيء. فمن يرحمه إذن؟

إنه يسلم بالرضا والعفو في كل أحواله، ثم إنه مسلم. وأي اعتماد وتوكـل أكـبر مـن إسلام المرء ورجائه عفو الله ورضاه بما كتب.

وفي مقطوعة زهدية أخرى يناجي فيها ربه قائلاً[2]:

أيـــا مـــن لـــيس لـــه مجـــير ... بعفـــوك مـــن عـــذابك أســـتجير
أنـــا العبـــد المقـــرّ بكـــل ذنـــب ... وأنـــت الـــسيّد المـــولى الغفـــور
فـــإن عـــذبتني فبـــسوء فعـــلي ... وإن تغفـــر فأنـــت بـــه جـــدير

----

(١) الديوان، ص٤٦٤.

(٢) نفسه، ص٤٥٨.

أفرّ إليك منك.. وأين إلاّ يفرّ منك المستجير

في هذه المناجاة صراخ واعتراف. اعتراف بالذنب، وصراخ بطلب العفو، إنه يعترف بكل إثم ارتكبه. هذا الذنب الذي سيكون سبب عذابه في الآخرة إن لم يصفح عنه ربه الغفور، ثم إنه يصرخ ويستنجد من عذاب جهنم بعفو الله، هذا العفو الذي شمل به كل خلقه.

إنه يهرب من سوء فعله، ولكن هيهات فهو يفر من الله إليه، كيف لا والله -عَزَّوَجَلَّ- الملجأ والمنجى لكل عبد آبق، وعاص نادم، ومتحسر على جميع ما أسرف. إنه رغم ذنوبه يغلب عفو الله ورجاؤه على كل ما سواه.

ومن لنا غير الله، وهو القائل في الحديث القدسي: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[1].

يقول أحدهم في هذا الصدد: "وأبو نواس الماجن شاعر الخمريات، والغزل بالمذكر، تتناثر في ديوانه أبيات إسلامية رائعة في الزهد والإلهيات، قد تفوق في معانيها وإحكامها ما قاله أبو العتاهية -على كثرته- من أشعار الزهد، ولعل أبا نواس كان يصحو من غفلته، وتسمو روحه فترتفع إلى خالقها معترفة بالذنب مؤملة الرحمة والغفران، ومن المحتمل أنه قال هذه الأبيات في الزهد بعد توبته -إن صحت هذه التوبة- كما ورد في الأغاني. وسواء كان قد قالها في فترات صحوه أو قالها بعد توبته وتنسكه فهي قوية ومؤثرة، تتغلغل في كلماتها معاني الندم والحسرة، والاعتراف بكل صغيرة وكبيرة... فالإثم يصرخ في أعماق أبي نواس، والذنوب الكبيرة تجعله حائرًا متسائلاً بمن استجير؟ وإلى أين أفرّ؟ لكن الأمل يراوده في عفو الله الواسع، ورحمته التي

---

(١) رواه الترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم (٣٥٤٠).

وسعت كل شيء"(١).

ولعل أجمل مناجاة وابتهال نطقت به أحرف النواسي هي ابتهاله في الحج التي قال فيها(٢):

إلهنا ما أعدلكْ مليك كلّ من ملكْ
لبيك قد لبيتُ لكْ لبيك إن الحمد لكْ
والملكُ لا شريك لكْ ما خاب عبدٌ سألكْ
أنت له حيث سلكْ لولاك يا ربي هلكْ
لبيك إن الحمد لكْ والملك لا شريك لكْ
كل نبي ومَلَكْ وكل من أهلّ لكْ
وكل عبدٍ سألكْ سبّح أو لبّى فلكْ
لبيك إن الحمد لكْ والملك لا شريك لكْ
والليلُ لمّا أن حلكْ والسابحات في الفلكْ
على مجاري المنسلكْ لبيك إن الحمد لكْ
والملك لا شريك لكْ يا خاطئًا ما أغفلكْ
اعمل وبادر أجلكْ واختم بخيرٍ عملكْ
لبيك إن الحمد لكْ والملك لا شريك لكْ

القارئ لهذه الأبيات سيتفاعل معها، وستؤثر في وجدانه هذه الألفاظ التي تناغمت مع المعاني فأهدتنا نفحات إيمانية تذكرنا بعظيم غفلتنا، وبكبير عفوه، وعظيم جزائه، إنها تبعث فينا الرغبة والرهبة والرجاء والأمل بهذا الإله الرحيم العادل، فتزيدنا

---

(١) الجهيمان، اتجاه الشعر الإسلامي في العصر العباسي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، ص٤١.

(٢) الديوان، ص٤٦٧.

إيمانا، وتزيد الهمة لنحج مرة ومرة وأخرى. فالشعراء من أكثر الناس تأثرًا بما يشاهدون، ومن أقدرهم على التعبير عن مشاعرهم، وبالتالي فإن تعابيرهم ستكون قويه صادقة صادره عن عاطفة انفعلت مع الموقف فأنتجت شعرًا ذا أسلوب قوي ومؤثر حتى لو كانت نفس الشاعر عاصية منحرفة عن الطريق المستقيم، إلا أن ذلك لا يعني أنها ميتة لا تشعر، ولا تحس، ولا تفيق.

لقد "كانت سبحة من سبحات الروح التي لا تخلو النفس البشرية مهما يكن من ضلالها أو إنكارها في لحظة من لحظات الاتصال بالقوى الغيبية العلوية"(١).

وفي مناجاة أخرى يناجي أبو نواس نفسه بعدما أثقلت الذنوب كاهله فلم يعد يحتمل ذكرها وشخوصها أمام عينيه في ليله ونهاره(٢):

يا نُواسِيُّ تَوَقَّر	وَتَجَمَّل وَتَصَبَّر
ساءَكَ الدَهرُ بِشَيءٍ	وَبِما سَرَّكَ أَكثَر
يا كَبيرَ الذَنبِ عَفوُ اللَهِ	مِن ذَنبِكَ أَكبَر
أَكبَرُ الأَشياءِ عَن أَصغَرِ	عَفوِ اللَهِ أَصغَر
لَيسَ لِلإِنسانِ إِلّا	ما قَضى اللَهُ وَقَدَّر
لَيسَ لِلمَخلوقِ تَدبيرٌ	بَلِ اللَهُ المُدَبِّر

يناجي نفسه ويخاطبها طالبا منها الأخذ بالوقار والصبر، فيقول إنه مهما ساء الدهر إليك بشيء فإنه أحسن إليك بأضعاف ما أحزنك. فمهما كبرت ذنوبك فعفو الله أكبر. إن أكبر الأشياء في الحياة هي أصغر حجما من أصغر ما يغفره الله.

ليس لبني آدم غير ما قضاه الله وقدره لهم. إن الله هو المدبر لشؤون خلقه لا البشر، خذ بأسباب النجاة، ولا تخف، وتوكل على الرازق المدبر الغفور الرحيم.

---

(١) صدقي، عبدالرحمن، أبو نواس قصة حياته وشعره، ص٨٩.

(٢) الديوان، ص٤٦٥.

❁ قيمة التقوى:

التقوى قيمة إسلامية أصيلة[1]. وللحديث عن التقوى، والحث على التوبة حضور في شعر النواسي فكأنه في هذه المقطوعات يرسل رسائل لمن جاء بعده بأن التقوى هي الخيار الأفضل للحياة السعيدة، هذه الحقيقة الحاضرة في وعيه دائمًا، والتي غالبا ما يستشعرها لحظات طغيان المعاصي على قلبه ليشعر بعدها بالضعف والخوف يهز وجدانه، فيعبر عن ذلك بتلك المقطوعات التي تحث على التقوى والتوبة قبل فوات الأوان.

يقول في هذه المقطوعة[2]:

سبحان علاّم الغيوب ... عجبًا لتصريف الخطوب
تغدو على قطف النفوس ... وَتَجتَني ثَمَرَ القُلوبِ
حتى متى، يا نفسُ، تَغَـ ... ـتَرّينَ بالأملِ الكذوبِ
يا نَفسُ تُوبي قَبلَ أنْ ... لا تستطيعي أن تتوبي
إن الحوادث كالرياح ... عليك دائمة الهبوب
والموتُ شرعٌ واحدٌ ... والخلق مختلفو الضروب
والسّعْيُ في طَلَبِ التُّقَى ... من خير مكسبة الكسوبِ
ولقلما ينجو الفتى ... بتقاه من لطخ العيوب

في هذه المقطوعة يخاطب النفس الإنسانية المغترة بالأمل الكاذب والمتعلقة بدنيا الغرور، ويقرر أن كل ذلك زائل؛ لذا يرجو منها التوبة والاستعجال في طلبها قبل فوات الأوان، إن من يستسلم للدنيا وملاهيها حتما سيلهي عن آخرته، هذا ما عاشه أبو نواس وأدركه أخيرًا. لذا فهو يرسل في هذه الأبيات خلاصة تجربة شخصية اغترت بالدنيا

---

(١) انظر: قيمة التقوى مبحث القيم الإسلامية في المدح، ص٥٩.

(٢) الديوان، ص٤٦٢.

وزينتها. إنه يريد لهذه النفس أن تتدارك غفلتها بتوبة صادقة، وهداية نصوح، فإن النفس معرضة للخطأ، وذلك شأن العباد كما أخبر نبينا -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- بقوله: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»(١).

لذا كان من الأفضل أن تكثر هذه النفس من الاستغفار لرب غفور للذنب، ثم إن المصائب تهب علينا دائمًا كالرياح، وهناك حقيقة تنتظر كل البشر، وهي الموت، لذا فإن خير مكسب للعبد في دنياه هو طلب التقوى، بل حتى التقي لا يخلو من العيوب، فالكمال وحده لله تعالى.

وهذه الأبيات من مقطوعة أخرى يقول فيها (٢):

من اتقى الله فذاك الذي ... سيق إليه المتجر الرابح
شمرّ فما في الدين أغلوطة ... ورح لما أنت له رائح

يقرر أن التقوى هي التجارة الرابحة. ويدعو إلى أن نتجه إلى هذا الدين المنزه عن الخطأ والضلال.

۞ قيمة التفكر والتدبر:

إن التفكر والتدبر قيمة وعبادة تتعلق بالقلب، وتستخدم العقل، حيث يُعمل الإنسان عقله في أسرار الآيات الكونية والشرعية متأملاً متدبرًا بديع صنع الباري، مشاهدًا الآيات العظيمة في هذه الأرض، وكيف خلق الله هذا الكون بدقة، وتنظيم، وجمال يخلب الألباب، وقد دعانا الله في محكم تنزيله إلى هذه القيمة العظيمة من خلال وصفه لعباده المؤمنين فقال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا

---

(١) رواه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥١).

(٢) الديوان، ص٤٦٣.

خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1]، ودعانا الله إلى التأمل في ذواتنا، قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[2]، كما دعانا في آيات كثيرة إلى التفكر في حال الدنيا، وسرعة زوالها، وتبدل أحوالها، وأن نتفكر في أحوال الأمم السابقة، كيف بادوا ؟ ولم يخلدوا.

هذه القيمة قليلة الحضور في شعر أبي نواس الزهدي ذلك أن طبيعة حياة الشاعر أجبرته على التأمل والتدبر في أمور أخرى، قضى معظم حياته متأملا فيها، واصفًا لها كالخمر والنساء والغلمان. لكنه ما إن يفيق حتى يسترجع عقله وقلبه فيتأمل ويتفكر، ثم يبدع في صياغة تلك التأملات، فهو شاعر ذو حس مرهف، والشاعر فنان، والفنان يعرف الإبداع إذا رآه، ويشد انتباهه فيتفكر فيه ويتأمله، لينتج من هذا الوعي والتدبر صورة تأسر القلوب، وتزيد إيمانها بالرب خالق هذا الكون ومدبره.

يقول متأملاً متدبرًا لعظيم صنع الباري في خلقه [3]:

سبحان من خلق الخلق	من ضعيف مهين
يسوقه من قرار	إلى قرار مكين
في الحجب شيئًا فشيئًا	يحور دون العيون
حتى بدت حركات	مخلوقة من سكون

في هذه المقطوعة الرائعة يصور أبو نواس مشهدًا من مشاهد عظمة الخالق في خلقه، إنه مشهد تكوّن الجنين في بطن أمه، هذا المشهد الذي حير الأطباء فألفوا فيه المجلدات العظيمة المليئة بالنظريات والتجارب والصور والنتائج، اختصر أبو نواس كل هذه العمليات العلمية في أربعة أبيات صورت لنا المشهد كاملاً، هذا المشهد المقتبس من

----

(١) آل عمران: ١٩١.

(٢) الذاريات: ٢١.

(٣) الديوان، ص٤٦٤.

قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

ويقول متفكرًا متسائلاً عن حال الأمم السابقة [2]:

أيـــــن مَـــــنْ كـــــان قبلكـــــم … مِـــنْ ذوي البـــأسِ والخطـــرْ؟

ســـــائلوا عـــــنهم المـــــدائن … واســـــــتبحثوا الخـــــــبر

ســـــبقونا إلى الرحـــــيلِ … وإنّـــــا علـــــى الأثـــــرْ

مـــــنْ مـــــضى عبـــــرةٌ لنـــــا … وغـــــدًا نـحـــــن مُعْتَبَـــــر

يتساءل متعجبا! عن حال الأقوام التي مضت، وكان لها من العظمة والقوة نصيب كبير.

ويدعونا إلى أن نسأل عن مصير هؤلاء الأقوام، ونتفكر ونتدبر عن طريق ما خلفوا من مدائن وقصور خربة حينها سنجد خبرهم. لقد ارتحلوا عن تلك المدائن وخلفوها عظة لمن بعدهم. وكأننا بتلك الآثار تنطق وتصيح إنكم على الأثر فاستعدوا للرحيل، وتأهبوا للقاء الله.

وذلك مصداقا لقولة تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[3]. إن لنا فيمن مضى عبرة إن أحسنا التدبر والتفكر بما آلت إليه مصائرهم بعد أن أمضوا قرونًا في هذه الأرض ينحتون من الجبال بيوتًا، وينعمون بوافر من عطايا الله لهم من بأس وقوة وعظمة.

---

(١) المؤمنون: ١٢-١٤.

(٢) الديوان، ص٤٥٩.

(٣) الروم: ٩.

ويقول هذه الأبيات من مقطوعة أخرى [1]:

تبـــارك رب دحـــا أرضـــه   وأحكـــم تقـــدير أقواتهـــا
وصـــيّرها محنـــة للـــورى   تغـــرّ الغـــوي بغزواتهـــا
فـــما نرعـــوي لأعاجيبهـــا   ولا لتـــصرف حالاتهـــا
ننـــافس فيهـــا، وأيامهـــا   تـــردد فينـــا بآفاتهـــا
أمـــا يتفكـــر أحياؤهـــا   فيعتـــبرون بأمواتهـــا

يمجد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- الذي مد الأرض لعباده، وجعل فيها من أسباب الرزق والخير ما يكفل لكل إنسان قوته، ثم إنه جعلها فتنة تفتن الغوي الضال الذي لا يحسن التعامل مع نعم الله في أرضه فيستسلم لشهواته فيها.

فهو وكل شاكلته لا يعدل عن غيّه مع أن الدنيا تطالعنا كل يوم بالأعاجيب، انظر لقول الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [2]، إن الذي يتدبر في أحوال الدنيا، وما يجري فيها يدرك قدرة الله في خلقه، وكيف أن هذه الدنيا لا تبقى على حال، فكم من عزيز ذل، وذليل عز، وكم من غني افتقر، وفقير استغنى، وكم من مريض عاش، وصحيح مات، هذا التباين في أمور نعيشها كل يوم يحتاج فقط إلى قلب يتدبر، وعقل يتفكر؛ ليستشعر قدرة الله في خلقه.

ثم إنه رغم ذلك فالناس تتنافس في هذه الدنيا، وتكيد لبعضها بعضًا مع أنها لا زالت تنزل فيهم ويلاتها وخطوبها، ولكنهم لا يتعظون، وأي عظة أكبر للأحياء بما آل إليه الأموات، كل هذه الأمور فقط تريد من يتدبر فينقذ نفسه قبل فوات الأوان.

---

(١) الديوان، ص٤٥٨.

(٢) يونس: ٢٤.

❁ قيمة ذكر الآخرة وحتمية الموت والحساب:

الموت هذا المصير الغائب الحاضر في وعينا، والحقيقة المؤكدة لمصير كل حي، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾[1].

الموت هذه اللفظة التي أرهقت أبا نواس، وأبكته، وأوجعته، هذه الحقيقة التي هرب منها الشاعر لنقيضها الدنيا يعب من ملذاتها، ويقطف من شهواتها ما تلذ له نفسه متغافلاً هذا المصير المحتوم، لكن هيت لنفسه أن تنسى، وأي نفس تنسى مصيرها! ففي كل نوبة صحو، ولحظة ندم يفيق ليتذكر مآله، وماذا أعد لهذا المصير، فيغيب في معترك من المشاعر النادمة والحزينة، وهو في حديثه عن الموت "يخاطب عقل الإنسان، ويحاول أن يثير هذا العقل ويدفعه إلى التفكر. فهو لا يريد منه أن يؤمن إيمان خوف ووجل، بل يريد منه أن يؤمن إيمان المتبصر الواثق مما يعمل، وهو في طرقه لهذا الباب يسلك مسلكًا مغايرًا لأبي العتاهية الذي يولول وينوح محاولاً مخاطبة العاطفة وإثارتها، حتى يدفع الإنسان إلى التوبة"[2].

لقد قدم لنا أبو نواس شعرًا يصور هذه الحقيقة بنظر شاعر، مسرف، نادم، فخرجت مقطوعاته تصرخ بالندم والخوف لتقرر هذه الحقيقة وتصورها لنا، وتكررها مرارًا الموت الموت الذي لا مفر منه.

إنه "يتخذ من الموت قارعًا ومنبهًا، ومن الحشر، والحساب، والثواب، والعقاب، وسيلة لتنبيه الغافلين، وتقريع اللاهين"[3] فنجده في كل بيت يذكر نفسه قبل أن يذكرنا كم أن هذا المصير قريب.

---

(١) آل عمران: ١٨٥

(٢) عطوي، نجيب، شعر الزهد، ٢٩٦.

(٣) درويش، العربي حسن، أبو نواس وقضية الحداثة في شعره، ص٣٤٠.

انظر لهذه المقطوعة التي يقول فيها [1]:

المـــــوتُ منّـــــا قريــــبٌ ... ولــــــيس عنــــا بنــــازح
في كـــــلِّ يــــومٍ نعِـــــيٌّ ... تـــــصيحُ منـــــه الـــصَّوائحْ
تشجى القلوب، وتبكـــــي ... موَلْــــــوِلاتُ النَّـــــوائحْ
حتـــى متـــى أنـــت تلهـــو ... في غَفْلــــــةٍ، وتُمـــــازِحْ؟
والمـــــوتُ في كـــلِّ يـــومٍ ... في زنـــدِ عيـــشِكَ قـــادِحْ
فاعمَــــلْ ليـــومٍ عبـــوسٍ ... مـــن شـــدّةِ الهـــوْلِ كـــالِحْ
ولا يغُرَّنْـــــــكَ دنيـــــا ... نعيمهـــا عنــــك نــــازحْ
وبُغْـــضُها لــــك زَيْـــنٌ ... وحبهـــا لـــك فاضـــح

إنه يقرر حتمية هذا المصير القريب، والذي لن يبعده عنا أي قدر؟ إنه قدر بحد ذاته. يحكي هذا المصير تلك النفوس التي يتخطفها الموت بين ظهرانينا نسمع بها كل يوم، وتصج آذاننا نوائح من فقدهم، أليست هذه أقدارنا أيضًا؟ فلم اللهو والغفلة؟ وإلى متى الغرور بدنيا زائلة نعيمها مفقود؟وحبها يقودك للهلاك، وكرهها خير لنا. إنه في هذا البيت يردد معنى هذه الآية الكريمة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ ﴾[2].

قال تعالى في وصف مشاعر هؤلاء المسرفين يوم القيامة حين يصدمون بوقوعها: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾[3].

"إن هذا الإحساس-على ما به- يلذع الذين توهموا الخلود في الأرض، وربطوا مصيرهم بترابها. وهو إحساس صادق إذا قيست أيام الدنيا بأيام الآخرة...

---

(١) الديوان، ص٤٦٠.

(٢) فاطر: ٥.

(٣) النازعات: ٤٦.

ولكنه إحساس مخدوع مضلل لمن مرّت به الأصباح والأمسيات، وكرّت عليه الشهور والدهور، وغدا وراح، وتعب واستراح، ومع ذلك فهو في غفلة عن يومه وغده، ظل يعبث ويسترسل في عبثه حتى إذا استرخت أجفانه على عينيه، ودخل ظلام الموت، تيّقظ بعنف! وهيهات! ! لقد صحا بعد فوات الوقت"(١).

لذلك فالفائز من أدرك هذه الحقيقة قبل فوات الأوان وأعدّ العدة لاستقبال ربه بالأعمال الصالحة. وهذا ما يحاول أبو نواس أن يذكرّنا ونفسه بتلك الحقيقة التى يتجاهلها الإنسان، ويسعى جهده في هذه الدنيا الفانية.

ويتغنى بذات اللحن في قصيدة أخرى قائلاً(٢):

إنّ للموتِ أخذةً	تسبقُ اللمحَ بالبصرْ
فكأني بكم غدًا	في ثيابٍ مِنَ المَدَرْ
قد نُقلتم من القصو	رِ إلى ظلمةِ الحُفَرْ
حيثُ لا تُضربُ القبا	بُ عليكم، ولا الحُجَرْ
حيث لا تظهرون فيها	للهو ولا سمر
رحم اللهُ مسلمًا	ذكرَ اللهَ فازدجرْ
غفرَ اللهُ ذنبَ مَنْ	خافَ فاستشعرَ الحذرْ

يقرر حقيقة مزعجة لكل مسرف على نفسه، لاهٍ في دنياه، وهى أن الموت لا يستأذن أحدًا، بل إنه زائر يخطف الروح بلمح البصر لا ينتظرك حتى تستعد، أو تتأهب للقاء الله، إنه قدر محتوم منذ خلقت. ولهذا كان حريًا بالمسلم أن يعلم أنه ضيف في هذه الدنيا التى قد يسرقه منها الموت، وهو في عز شبابه، أو أوج عزه، أو قمة صحته! هذه المعايير لا يعترف بها القدر.

(١) الغزالي، خلق المسلم، ص٢٣١ و٢٣٢.
(٢) الديوان، ص٤٥٩.

ثم يصور أبو نواس مصير هؤلاء البشر، وقد رحلوا من القصور المشيدة إلى حفرة في الأرض يعلوها التراب، حيث لا قبب ولا حجر تضرب عليهم، هذا المعنى استقاه الشاعر من قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[1].

لذا فالمحظوظ من خاف واستشعر حقيقة الدنيا، واستعد للآخرة بخير زاد من الطاعات والأعمال الصالحة. وليرحم الله من اتعظ بذكره، والله يغفر الذنوب جميعًا.

ويقول في قصيدة أخرى [2]:

اصبر لمر حوادث الدهر	فلتحمدن مغبة الصبر
واجهد لنفسك قبل ميتتها	واذخر ليوم تفاخر الذخر
فكأن أهلك قد دعوكَ فلم	تسمع وأنت محشرج الصدرِ
وكأنهم قد زينوكَ بما	يتزود الهلكى من العطرِ
وكأنهم قد قلبوك على	ظهر السرير وظلمة القبر
يا ليت شعري كيف أنت	إذا غسلت بالكافور والسدرِ
أو ليت شعري كيف إذا	وضع الحساب صبيحة الحشرِ
ما حجتي فيما أتيت، وما	قولي لربي بل وما عذري
أن لا أكون قصدت رشدي أو	أقبلت ما استدبرت من أمري
يا سوأتا مما اكتسبت ويا	أسفي على ما فات من عمري

يدعو نفسه، ومن يخاطبه للصبر على خطوب الدهر، فبالصبر تفرج الكربات، وتزيد الدرجات، ويكون الصابر في معية الله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[3]، ثم يدعو

----

(١) النساء: ٧٨.

(٢) الديوان، ص٤٥٧.

(٣) الأنفال: ٤٦.

لإدخار الفضل ليوم يتفاخر الناس فيه بما ادخروا من طاعات وعبادات، ثم يصف حالة الإنسان حين يموت، وفي الحقيقة هو يصف نفسه لعلها تستفيق، وهذا ما تشي به الأبيات الأخيرة. كيف به وقد مات وأهله ينادونه، وهو لا يستطيع سماعهم، أو الرد عليهم؟. ثم إنهم بعد أن تيقنوا برحيله بدأوا يبثون عليه العطر كحال معظم الموتى عند موتهم! ثم يتعمق أكثر ليصف كيف يقلبونه على ظهر السرير، وهو جثة هامدة ليلبسونه كفنه، وليعدّوه لظلمة القبر، ثم يتساءل بحسرة وخوف عن مصيره، وهو على ظهر السرير، وقد غُسل بالسدر والكافور، وهو لا يشعر بشيء يا ترى ما هو مصيره؟ وكيف سيكون حاله يوم القيامة عندما يبدأ الله بمحاسبة خلقه. ما حجته أمام الله فيما اقترف؟ وماذا سيكون عذره على تقصيره ؟ أسئلة ملحة قويّة تشعرك بعظيم المسؤولية يوم القيامة، وأنه لا فرار من أعمالنا في ذلك اليوم الذي تنشر فيه الصحائف، ولا تخفى خافية.

إنه نادم أشد الندم على تقصيره فيما فات من عمره! حتمًا هو نادم فهذه المقطوعة تقطر حسرة وندمًا نشعر به في كل حرف فيها! وهيهات أن يخفى مثل هذا الصدق على ناقد.

ويخاطب نفسه قائلاً (1):

رضيت لنفسك سوآتها … ولم تأل جهدا لمرضاتها
وحسنت أقبح أعمالها … وصغرت أكبر زلاتها
وكم من طريق لأهل الصبا … سلكت سبيل غواياتها
فأي دواعي الهوى عفتها … ولم تجر في طرق لذاتها
وأي المحارم لم تنتهك … وأي الفضائح لم تاتها
وهذي القيامة قد أشرفت … تريك مخاوف فزعاتها

---

(1) الديوان، ص٤٥٨.

وقد أقبلت بمواعيدها وأهوالها فارع لوعاتها
وأني لفي بعض أشراطها وآياتها، وعلاماتها

يقول لقد ارتضيت لنفسك هذه السيئات، وسعيت جهدك لإرضاء مطالبها، فكنت تزين أعمالها القبيحة، وتهوّن زلاتها الكبيرة في سبيل إرضاء ذاتك، فسلكت كل الطرق التي تؤدي بك إلى الغواية، ولم تدع سبيلاً من سبل اللذة والهوى إلا وطرقته. بل إنك انتهكت المحارم، وأتيت كل ما يفضح. فإلى متى هذا اللهو قد يستمر وقد بدأت أشراط الساعة بالظهور لتنبأنا بقربها؟ هذه العلامات التي أخبرنا بها الرسول -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- فهو يستهدي بعلامات قربها وأشراطها المذكورة، والتي يعيش بعضًا منها.

إنه يحاول بهذه الأبيات أن يستشعر قرب القيامة ليخاف ويتوب، ويستعد لهذا اليوم المهول الذي يشيب فيه الرضيع من هوله.

ويقرر قائلاً[(1)]:

كُلُّ نَاعٍ فَسَيُنعى كُلُّ باكٍ فَسَيُبكى
كُلُّ مَذخورٍ سَيَفنى كُلُّ مَذكورٍ سَيُنسى
لَيسَ غَيرُ اللهِ يَبقى مَن عَلا فَاللهُ أَعلى

نعم هذه هي الحقيقة.. لا بقاء للمنعي ولا الناعي ولا المبكي ولا الباكي، وكل مذخور سيبدّده الزمن، وتأتي عليه الأيام، ومن كان يُذكر فمصيره النسيان؛ لأن هذه حال الدنيا، وسنة الحياة.

كلهم في رحيل من هذه الدنيا دار العبور إلى دار القرار. كل شيء يفنى غير وجه الله العلي العظيم، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[(2)]،

---

(١) الديوان، ص٤٦٢.

(٢) الرحمن: ٢٦-٢٧.

إنه يفسر هذه الآية شعرًا.

يصف الدنيا في هذه الأبيات قائلاً [(١)]:

ســـــكن يبقـــى لـــه ســـكن	مـــا لهـــذا يـــؤذن الـــزمن
نحـــــن في دار يخبرنـــــا	ببلاهـــا نـــاطق لحـــن
دار ســـوء لم يـــدم فـــرح	لامـــرئ فيهـــا و لا حـــزن
كـــل حـــيًّ عنـــد ميتتـــه	حظـــه مـــن مالـــه الكفـــن

هذه الدنيا ليست بدار قرار فسكانها لا يبقون في مساكنهم، بل يتحولون عنها لسكن آخر حيث القبر، ثم الآخرة، وهي السكن الدائم والدار الأخيرة، ذلك ما يعلنه الزمن، يخبرنا بهذه الحقيقة إنسان فطن، فهي دار تتأرجح فيها الأقدار بين الحزن والفرح، لا تدوم على حال واحدة، ولا يصحب المرء من ماله ودنياه تلك سوى كفنه الذي يلفه ميتًا.

ويقول واعظًا [(٢)]:

ألا تـــأتي القبـــور صـــباح يـــوم	فتـــسمع مـــا تخـــبرك القبـــور
فـــإن ســـكونها حـــرك تنـــادى	كـــأن بطـــون غائبهـــا ظهـــور

للقبور لغة صامتة لكنها موحية أشدّ إيحاء. فسكونها يحكي قصة من فيها، وينادي إلى التأمل في مصائرهم هذا المشهد الصامت الحيّ، يوحي بالمصير الأخير لبني البشر، وهو الموت. فأي حكاية أعمق من صمت القبور؟

(١) الديوان، ص٤٦١.

(٢) نفسه، ص٤٦٠.

قيمة الندم على المعصية:

الندم على المعصية خير من الاستمرار فيها، فالندم يدلّ على حياة القلب واستشعاره الخوف من الله، والندم شعور بالتقصير تجاه ما جناه الإنسان على نفسه من معاصي وذنوب، لذا فهو طريق إلى التوبة، وهو من أهم شروط قبولها، قال رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «كل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون» [1]، إذًا لابد أن يكون هناك خطأ وتوبة.

وقد وصف الله تعالى في كتابه الكريم عباد الرحمن، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾ [2].

فمن منا لم يلج باب المعاصي؟! قال -عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-: «ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» [3]. فالهلاك هو الاستمرار على المعصية والإصرار عليها. فالمعاصي تستوجب التوبة والندم والبكاء والإقلاع عنها، أما من فرح بالمعصية، وتلذذ بها، فهذا ميّت القلب في إيمانه غبش.

والحقيقة أن الندم مفردة تليق بأبي نواس مبنى ومعنى، وحياته دليلنا على ذلك خمرياته و مجونه و غزله الفاحش، ثم تهتكه وفحشه واستهتاره بكل قيم المجتمع الإسلامي. لكن هذه القيمة أبت إلا أن تحضر في شعره؛ لأنه أحس بها وتغلغت في أعماقه، ويبدو لنا أنها لم تكن مرتبطة بمرحلة متأخرة من عمره كما يقول البعض. بل نرى أنها حاضرة في لحظات الإفاقة والصحو التي كانت تعتريه، والتي صاحبته طوال حياته.

---

(١) سبق تخريجه في ص١٠٤.

(٢) الفرقان،: ٦٨، ٧٠.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة (٢٧٤٩).

يقول متحسرًا على نفسه [(١)]:

كـم ليلــة قــد بــت أهــو بهــا ... لــو دام ذاك اللهــو للاهـــي
حرمهـــــا الله وحللتهـــــا ... فكيـــف بـــالعفو مـــن الله

يتحسر على تلك الليالي التي قضاها في معصية الله، يلهو ويرتشف من كأس الملذات ما طاب له، ذلك اللهو الذي لا يدوم لأي لاهٍ. إنه يتحسر مرة أخرى على تلك الليالي التي أحل فيها ما حرم الله، وتمادى في لهوه غاية التمادي فكيف يرجو عفو الله؟!

ويقول نادما [(٢)]:

مــا حجتــي فــيما أتيــت، ومــا ... قــولي لــربي بــل ومــا عــذري
أن لا أكــون قــصدت رشــدي أو ... أقبلـت مـا اسـتدبرت مـن أمـري
يــا ســوأتا ممــا اكتــسبت ويــا ... أسفي على ما فات من عمري

إنه هنا يصرخ ندمًا وألمًا على ما فرط في جنب الله، فما حجته أمام الله ؟ وماذا سيقول؟ وما العذر لكل هذا الغي؟ واقتراف الذنوب؟ وعدم استفادته من وقته؟ يقول أحد النقاد معقبا على هذه الأبيات: "ألا نشعر في هذا القول الرقيق الصادر من أعماق القلب بالندامة الصادقة، والإيمان الكلي بالله، ألا يصدر من هذه الكلمات أحر التأوهات والزفرات التي تحرق الأفئدة، وتذيب القلوب"[(٣)].

يا سوأتا هذه المفردة التي تعجّ ندمًا وأسفا على كل ما مضى من عمره، وهو مقصر يقترف الذنوب، ويتهتك غير مبال!

---

(١) الديوان، ص٤٦٧.

(٢) نفسه، ص٤٣٧ و٤٥٨.

(٣) عطوي، علي نجيب، شعر الزهد، ص٢٩٥.

❁ قيمة الانتفاع بالوقت، والاتعاظ بالزمن، وعدم الغرور بالدنيا:

قد تبدو هذه القيمة مركبة من ثلاث قيم، لكنها في الحقيقة مرتبطة ببعضها فمن اغتر بالدنيا لم ينتفع بوقته، ولم يتعظ من زمانه، ولو أردنا فصلها والحديث عن كل قيمة مجردة لا يستقيم معنا ذلك في شعر أبي نواس، والقارئ للشواهد في هذه القيمة سيدرك ذلك.

لم تكن لهذه القيمة حضور في شعر أبي نواس أبدًا في مستهل حياته، ونزعم أنها لم تكن لتخرج لولا تقدم الشاعر في السن، وإدراكه لقيمة الزمن والعمر الذي فات بلمح البصر، وحق له أن يدرك ذلك أكثر من غيره، ذلك أنه لم ينتفع مما مضى في غالب عمره الذي قضاه أسيرًا لشهوته ولذاته، إن هذه الأبيات تنضح بالحزن والألم والحسرة على ما مضى، نراها صادقة تلامس الوجدان؛ لأنها صادرة من تجربة حقيقية للشاعر. لذا كان لزامًا على المسلم الانتفاع من وقته، والحرص على قضائه في طاعة الله، كل عمل لوجهه تعالى.

ولأهمية الوقت كان أول سؤال يسأل عنه ابن آدم: عن عمره فيما أفناه قال -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-: "لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم"[1].

فالمسلم الحق يغالي بالوقت مغالاة شديدة؛ لأن الوقت عمره، فإذا سمح بضياعه، وترك العوادي تنهبه، فهو ينتحر بهذا المسلك الطائش[2]، وهذا ما أدركه شاعرنا بعد أن فات الأوان، وتقدم به العمر.

----

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص (٢٤١٧)، وقال: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»، والدارمي في كتاب المقدمة، باب من كره الشهرة والمعرفة (٥٣٧)، من حديث أبي برزة الأسلمي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٤٦).

(٢) انظر: الغزالي، خلق المسلم، ص٢٣٢.

يقول مخاطبًا ذاته المسرفة (١):

أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ، والذّنوبُ تزيدُ   والكاتبُ المحْصي عليكَ شهيدُ
كمْ قُلْتَ لسْتُ بعائدٍ في سَوْءَةٍ   ونَذَرْتَ فيها ثمّ صرْتَ تعودُ
حتى متى لا تَرْعَوي عن لذّةٍ   و حِسابُها يوْمَ الحسابِ شديدُ
وكأني بك قد أتتك منيَّةٌ   لا شكَّ أن سبيلها مورودُ

يخاطب نفسه قائلاً بأنه أفنى عمره في اقتراف الملذات، وكانت المحصلة هي زيادة ذنوبه، إنه يحكي خطابًا جرى غير ذي مرة بينه وبين نفسه اللوامة، فينصاع لها حينًا فيندم ويترك طريق الغي، ثم لا تلبث نفسه الأمّارة بالسوء أن تعيده لسالف أمره فيرجع لغيّه وضلاله.

ويتساءل إلى متى وأنت سائر في هذا الطريق؟! لا تكف عن ذنب، ولا تتيقظ لما سيجره عليك الذنب من حسرات يوم القيامة.

ثم يصور نفسه، ويتخيل أن المنية قد وافته وهو على تلك الحالة. إنه يود أن يتدارك عمره وما بقي منه في طاعة الله؛ لذلك فهو لا يفتأ يخاطب ذاته ويحذرها من مغبة النسيان، ويرجو أن ينتفع بما تبقى من عمره. وهذا الخطاب في الحقيقة وجهه أبو نواس لنفسه، ولكل نفس أضاعت عمرها، وأفنت سنينها بعيدًا عن كنف الله، إنها رسالة إيقاظ مبكر قبل أن يبكر الموت بنا ونحن في سبات!

ويقول في مقطوعة أخرى (٢):

سهوت وغرني أملي   وقد قصرت في عملي
ومنزلة خُلقت لها   جعلتُ لغيرها شغلي
يظل الدهر يطلبني   ويمضي بي على عجلي

---

(١) الديوان، ص٤٦٤.

(٢) نفسه، ص٤٦١.

فأيـــــــامي تقربـــــــــني وتدنـــــيني مــــن الأجـــــل

يحكي قصة حياته باختصار وعلى عجل في هـذه الأبيـات، ويعطينـا حكـمًا مـن هـذه الحياة التي عاشها مغرورًا بالأمل الكـاذب، سـاهيًا مقـصرًا في عملـه الـذي خلقـه الله مـن أجله وهو العبادة. لقد تناسى هـذه الحقيقـة التـي خلقـه الله مـن أجلهـا، وعـاش لغيرهـا فأهمل عبادة الله، واتجه للهو والعبث وارتكاب المعاصي.

لكن لن يدوم له ذلك، فالزمن يمضي بصاحبه، والعمر يجري بـه، والأيـام تمـر وتمـر لتقربه إلى مصيره المحتوم. هذه الحكمة التي أرسلها لنا أبو نواس في آخـر أبياتـه، ولنـزعم أنها في آخر حياته. يبين لنا فيها أن العمر وإن امتد بك فهو إلى زوال، فليـست الـدنيا بـدار قرار، وما الحيـاة الباقيـة إلا حيـاة الآخـرة. لـذا فـإن "كـل مفقـود عـسى أن تـسترجعه إلا الوقت، فهو إن ضاع لم يتعلق بعودته أمل، ولذلك كان الوقت أنفس ما يملكه الإنـسان، وكان على العاقل أن يستقبل أيامه استقبال الضنين للثروة الرائعة"(١).

ويصف الناس في هذه الأبيات قائلاً(٢):

النـــاس مـــن محـــسن لـــه صـــفة ومـــن مـــسيء يكفيكـــه عملـــه
والمـرء مـا عـاش عامـل نـصب لا ينقـــضي حرصـــه ولا أملـــه
يرجـــو أمـــورا عنـــه مغيبـــة جهـلا ومـن دون مـا رجـا أجلـه

يقسم الناس إلى صنفين محسن تعرفه من عمله وصفاته، ومسيء تخبرك أعمالـه عـن طبعه، وتجعلك تنأى عنه. ثم يـصف هـذا الإنسان المغـرور بطـول الأمـل في هـذه الـدنيا، يسعى جهده فيها ويشقى، ولـو علِـم أنّ رزقـه مكفـول عنـد ربـه، وأنّ كـل شيء في علـم الغيـب مكتـوب، ومقـرر منـذ أن وُلِـد، لتوكـل عـلى الله وبـذل الأسـباب دون أن يـشقى ويتعب ويحرص كل هذا الحرص على الدنيا. إنَ هذا جهل منه بحقيقـة عظمـى وهـي أنـه

---

(١) الغزالي، خلق المسلم، ص٢٣١.

(٢) الديوان، ص٤٦١.

"يسعى والموت يسعى إليه"، فلو أدرك هذا لترك الفاني للخالد، ولعاش عمره في طاعة الله مغتنمًا كل لحظة يعيشها في عمل أو طاعة تقربه إلى الله.

ويقرر قائلاً [1]:

إن مع اليوم – فاعلمن – غدا   فانظر بماذا ينقضي مجيء غده

ما ارتد طرف امرئ بلذته   إلا وشيء يموت في جسده

اليوم، الغد، ينقضي، يموت، هذه الكلمات تشي بمكنون هذين البيتين. إن اليوم والغد منقضيان لا ريب، لكن الشاهد فيما انقضت تلك الأيام والليالي.

ويضرب لنا مثلاً رائعًا في البيت الثاني، فحين يقضي الإنسان لذته إنما يموت شيء ما في جسده في تلك اللحظة مقابل تلك اللذة ؛ لذا فاغتنام الأيام في طاعة الله خير للفتى من قضاء شهواته التي تقضي عليه مع مرور الأيام.

ويقول من مقطوعة أخرى [2]:

أية نار قدح القادح   وأي جد بلغ المازح

لله در الشيب من واعظ   وناصح لو حظي الناصح

في زمن الشباب يلهو الإنسان ويمزح، لكن في لحظة يتوقف كل هذا عندما يطعن المرء بالعمر، ويصل إلى زمن الجد. حين يقدح له الزمن نارًا في شعره من الشيب. وهذا الشيب ليس مجرد شعيرات بيضاء، إنها تجربة، وعمر طويل، وواعظ صامت لمن يحسن الإمعان في نفسه، وما مضى من عمره، فينهى نفسه عن الغي، وينصح عن اللهو.

---

(١) الديوان، ص٤٦٤.

(٢) نفسه، ص٤٦٣.

قيمة ذم الكبر:

هذه القيمة تقابل قيمة التواضع، وهي قيمة إسلامية وإنسانية، أوصى الله تعالى بها خلقه، وحذر من التكبر، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾(1).

وقد أوصى لقمان ابنه بعدم التكبر أو الخيلاء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾(2).

والكبر من الأسباب المؤدية إلى دخول النار –والعياذ بالله– فقد رُوي عن الرسول –صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» (3).

وقد كان الرسول –عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ– المثال الأول في التواضع، فقد كان يجيب من دعاه، ويقبل ما يهدى إليه، وتستوقفه الأمة، فيقف معها، ويقضي حاجتها.

وكان العرب يعرفون قيمة التواضع، ويكرهون من اتصف بالكبر "قال الخليفة عبد الملك بن مروان: أفضل الرجال من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة"(4).

فالتواضع صفة محمودة تستوجب محبة الناس، وتدل على نقاء القلب، يرفع الله بها أقوامًا. بينما الكبر يخفض صاحبه فيحل عليه غضب الله وعقابه (5).

وفيما يتعلق بشخص أبي نواس فهو لم يكن يومًا متكبرًا أو متعجرفًا، بل كان غالبًا ما يوصف بالتواضع والفكاهة والملح على الرغم من حظوته لدى العامة والخاصة

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) لقمان: ١٨.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).

(٤) ابن قتيبة. (١٤١٨هـ). عيون الأخبار، بيروت: دار الكتب العلمية، ج١/ ص ٣٧٨.

(٥) انظر: الدجوي، أحمد سعيد، فتح الخلّاق في مكارم الأخلاق، ص٣٧.

إلا أنه لم يتكبر يوما على من يحب، فهو شخصية اجتماعية تحب مخالطة الناس ومعاشرتهم، وهو مع ذلك يعشق الدنيا، واللهو، والاختلاط بالبشر ولا يتأتى ذلك لمتكبر لذلك، ومن الواضح أنه يكره تلك الخلّة، وقد جدنا تلك النغمة تتردد في أغراض أخرى غير الزهد.

حيث يقول في أحدهم(١):

منـــــي إلى المتكـــــــبر   والـــــــشامخ المتجـــــــبّر
وشــــاتمي حـــين يخلـــو   ولاعنـــي حـــين يعثـــر

هذا في حياته العابثة كيف وقد استفاق وأحس بدنو الأجل، واتضحت له الدنيا بكل بهرجتها أنها زائلة لا محالة.

ويتجسد كرهه لصفة الكبر في هذه القصيدة التي أفردها للحديث عن آفة الكبر، وخطورته على النفس، يقول فيها(٢):

لا تَفرُغُ النَفسُ مِن شُغلٍ بِدُنياها   رَأَيتُهـا لَم يَنَلهـا مَـن تَمَنّاهـا
إِنّـا لَنَـنفِسُ في دُنيـا مُوَلِّيَـةٍ   وَنَحـنُ قَـد نَكتَفـي مِنها بِأَدناهـا
حَذَّرتُكَ الكِبرَ لا يَعلَقكَ ميسمُهُ   فَإِنَّـهُ مَلـبَسٌ نازَعتُـهُ اللهَ
يا بُؤسَ جِلدٍ عَلى عَظمٍ مُخَرَّقَةٍ   فيـهِ الخُـروقُ إِذا كَلَّمتَـهُ تاهـا
يَـرى عَلَيـكَ بِـهِ فَضلاً يُبينُ بِـهِ   إِن نالَ في العاجِلِ السُلطانَ وَالجاها
مُـثنٍ عَـلى نَفسِهِ راضٍ بِسيرَتِها   كَـذَبتَ يا خـادِمَ الدُنيا وَمَولاهـا
إِنّي لَأَمقُتُ نَفسي عِندَ نَخوَتِها   فَكَيـفَ آمَـنُ مَقـتَ اللهَ إِيّاهـا

يهدينا الشاعر حكمة في البيت الأول، وهي أن النفس لا تزال متعلقة بأهداب

---

(١) الديوان، ص٢٩٤.

(٢) نفسه، ص٤٥٩و٤٦٠.

الدنيا ترجوها، ومن يرجو الدنيا فلن ينالها، والسبب أنها غرور وفانية ومولية، فلو عقل المرء لما تعلق بها وبنعيمها الزائل، ولاكتفى بالقليل منها فإنه يغنيه، ثم يحذر من يخاطبه من هذه الخلة المقيتة "الكِبر"، ويطلب منه ألاّ يتمادى في كَبره، فإنه إن تكبر على الخلق فإنه إنما ينازع الله صفةً من صفاته -جل وعلا- وقد تجرّد من إنسانيته التي خلقه الله عليها، وساواه بجميع البشر. إن أبا نواس مبدع في فكره وشعره فإذا أراد أن يحبب إليك شيئًا سيصفه وصفًا يغريك ويدهشك، وهذا ما فعله مع الخمرة، وكذلك العكس إذا أراد أن تمقت شيئًا أبدع في تشويهه، انظر له وهو يصف هذا الإنسان المتكبر على الخلق، وهو لا يعدو كونه جلدًا على عظم، وهذا الجلد مثقب بالخروق، وهي منافذ جسده، كالعين، والأنف، والأذن، والفم. ثم هو مع ذلك معُجب بنفسه، وإذا خاطبته تاه عليك.

إنه يتكبر عليك بسبب أمور دنيوية زائلة كالجاه والسلطان. فهو معجب بذاته، مثنٍ على نفسه، وراضٍ عن ما آل إليه، هنا يصيح أبو نواس به ويقول إنه كاذب؛ لأنه عبد للدنيا استعبدته بأوهامها وعطاياها الزائفة، فهو وإن كان في ظاهره يشعر بالفخر والكبر إلا أنه في حقيقة أمره عبد مملوك لدنياه فيا للمفارقة!.

ثم يتحدث عن ذاته فهو يكره نفسه حين يشعر بالفخر والتباهي، فكيف بالله لا يمقتها وصاحبها مقت نفسه على غروره وادعائه.

المبحث الخامس

القيم الإسلامية في العتاب

القيم الإسلامية في العتاب

العتاب أحد الأغراض الشعرية التي طرقها شعراء هذا العصر، وقد وجدنا لهذا الفن في شعر أبي نواس بعض الأصداء، فأبو نواس شاعر اجتماعي بالفطرة لا يأنس بالوحدة، ولا يستغني عن الأصدقاء والندامى، إنه يكره الحزن والوحدة، ويقبل على الحياة بفلسفة اللذة واللهو، وذلك لا يتأتى دون صديق. فهو يؤمن حقًا بالصداقة؛ لأنه يتقنها قولاً وفعلاً، فكان كريما كثير البذل لأصدقائه، لا يبقي مالاً ولا يذر في سبيل إسعادهم، وبالتالي إسعاد نفسه تلك التي تتوق للألفة، والاجتماع، والضحك، والغناء، والمزح، وقول الشعر. لكن يبدو من أشعاره في هذا الغرض أنه أصيب بخيبة أمل كبيرة ومتكررة مصدرها أصدقاؤه، ومن عدهم إخوانًا له، والتي يبدو لنا أنها أثرت فيه بدرجة كبيرة، ودليل ذلك ما انتهى إلينا من مقطوعات كثيرة تحكي ذات الحكاية بصور شتى ألقاها على شكل خطرات من النفس العتبى أحيانًا، والساخطة أحيانًا والمتعجبة أحيانًا أخرى. ذلك أن النوَاسي كان يتخذ من الوفاء ديدنًا له مع أصدقائه، فعندما يفاجأ بالعكس عند تغير أحواله من غنى إلى فقر، فإنه يتفاجأ ويعتب، وأحيانا يصل إلى الهجاء.

وتدور أغلب مقطوعاته في العتاب حول هجر الأصحاب بسبب قلة المال، فكان يرسل خطرات من النفس مبطنة بالهجاء لهؤلاء الأحباب الذين تخلوا عنه، والفخر بنفسه؛ لأنهم هجروه لإفلاسه، وهو مع ذلك عزيز النفس لا يقابلهم بنفس ما صنعوا به، "وحري بالذي ينفق المال، إذا ما تيسر له، على شهواته ولذائذه أن يلتف حوله الإخوان والأصحاب، والأحرى بهم أن يهجروه، وينفضوا عنه إذا افتقر وأدقع. جرّب الشاعر هذا، وعايشه أكثر من مرة، والناس هم الناس، ما أكثرهم في حال اليسر والرفاة، وما أقلهم في حال العسر والمخمصة"(١).

---

(١) الشامي، يحيى. (٢٠٠٢م). أبو نواس والوجه الآخر، ط١، بيروت: دار الفكر العربي، ص١١٢.

يقول معاتبا أحد الذين هجروه بسبب قلة ماله [1]:

يـــا مـــن جفـــاني، ومــــلاَ نـــسيت أهــــلاً وســــهلاً
ومــــات مرحـــــبُ لّمـــــا رأيـــــت مـــــالي قـــــلاَّ
إني أظنـــــــك تحكـــــــي فـــــيما فعلـــــت القِـــــرِلّى
تلقـــــاه في الـــــشرِّ ينـــــأى وفي الرَخـــــا يتـــــدلَى

ثم نجده يمدح نفسه، ويفخر بأنه لا يستمع لكلام المغتابين لأصدقائه قائلاً [2]:

لا أعـــير الـــدهر ســـمعي ليعيبـــــوا لي حبيبًـــــا
لا، ولا أذْخَــــرُ عنـــدي للأخِـــــلاّءِ العُيوبَـــــا
فـــإذا مـــا كـــان كـــوْنٌ قمـــتُ بالغيـــبِ خطيبـــا
أحفـــظ الإخـــوانَ كـــيما يحفظـــوا منّـــي المَغيـــبَ

ويرى علي شلق "أن عتاب النواسي لم يجئ في مرتبة شعره الجيد، فما هو إلا نزوات نفس ضاقت بها سبل المال، ونقصت لديها وسائل اللذة، فجاء عتابه هجاءً مرة لتقصير، ومادحا مرة لتيسير، ويأسًا مرة ثالثة، واستعلاء وأنفة مرة رابعة، وقليلا ما يتسلسل نجوى روح لروح، وترقب هاجر يعود إلى جنان المودة" [3] وهذا حق، فالمتأمل لشعره يجد أنه يبتعد في كثير من مقطوعاته عن فحوى العتاب الحقيقي، فيقرب من الشكوى أحيانا، والهجاء أحيانا أخرى.

----

(١) الديوان، ص٤٥٠.

(٢) نفسه، ص٢٩٨.

(٣) شلق، علي، أبو نواس بين التخطي والالتزام، ص٣٨٥.

ومن القيم الإسلامية في غرض العتاب:

❁ قيمة الأخوة والصداقة:

لا شك أن الأخوة المبنية على أسس أخلاقية قيمة إسلامية مطلوبة، لاسيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه وسائل الاتصال، وقلّ فيه الصديق والرفيق المخلّص. إن قاعدة التآخي تُشكلّ "أساسًا هامًا في قيّم الأخلاق الإسلامية، وبها حددّ الله تعالى علاقة المؤمنين في الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ والأخوة في الله أدوم وأبقى حتى من الأخوة في النسب والولادة؛ لأن أخوة الولادة تنتهي وتنقطع باختلاف الدين والعقيدة، ولكن أخوة الإيمان دائمة في الدنيا وفي الآخرة، وفي ذلك ما روي في الأثر: "رب أخٍ لم تلده لك أمك"[(١)].

وقد قررّ الرسول هذا المبدأ حينما وفد المهاجرون إلى المدينة، فاستقبلهم ألأنصار فآخى الرسول -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- بينهم، فكانت المؤاخاة هي الركيزة الأولى في تأسيس المجتمع المسلم الأول.

إن الصداقة في مفهومها الشامل قيمة إنسانية رائعة، ومطلب اجتماعي مهم لكل فرد "فليست هناك دواع معقولة تحمل الناس على أن يعيشوا أشتاتًا متناكرين، بل إن الدواعي القائمة على المنطق الحق والعاطفة السليمة تعطف البشر بعضهم على بعض... فالتعارف -لا التنافر- أساس العلائق بين البشر"[(٢)]، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[(٣)].

فكلنا محتاجون إلى أصدقاء مخلصين يقفون معنا في أزماتنا، ويخففون عنّا ضغوط الحياة، ويشاركوننا الفرح والحزن على حدٍ سواء، ونقابلهم بالمثل، حينها يصبح للحياة

----

(١) السحمراني، الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، ص١١٢.

(٢) الغزالي، خلق المسلم، ص١٧٣.

(٣) الحجرات: ١٣.

طعم آخر، ويشعر الشخص بمعين في هذه الدنيا وعضد يتكئ عليه في جميع أحواله. "ومن ثم كانت الأخوة الخالصة نعمة مضاعفة، لا نعمة التجانس الروحي فحسب، بل نعمة التعاون المادي كذلك"(١)، قال عليه -الصلاة والسلام-: «مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»(٢).

ونحن هنا لا نزعم أن صداقات أبي نواس كانت تجري على أسس الصداقة والأخوة في الله، فقد كانت معظم صداقاته للهو واللعب والترفيه عن نفسه! ولعلّ هذا هو السبب في فشل معظم صداقاته، والتي تحكي عن قصصها أبياته، فالشاعر قد تلقّى غير ذي ضربة من أصدقاء كانوا يظهرون له الودّ والوفاء حال غناه وشهرته، فلما فقد ذلك فقدهم، وهي صداقات لا شك مبنية على مصالح لم تقم لوجه الله تعالى، ولو قامت لدامت، "فصداقة الأذكياء الأتقياء قد ترفع إلى القمة، أما صداقة السفهاء البله فهي منزلق سريع إلى الحضيض"(٣)، فليس هناك أصدق وأبقى من الأخوة في الله.

يقول معاتبًا صحبه (٤):

أخلائــي أذُمّكُــمُ: إلــيكُم	وكنـتُ بمـدْحِكُمْ قَمِنًـا خَليقَـا
فَـلا وَأبـيكُمُ مـا الفَـضْلُ دَأبي	إذا مـا لم أجِـدْ مـنكُمْ صَـديقَا
إذا اســتَبْطَأتُكُمْ عَنّفْتُمُــوني	وقلـتُمْ إنّ فيـهِ لـذاكَ ضِـيقَا
فأُقسِمُ لَـو تَكُونـونَ الأسـارَى	وكنـتُ أنـا المُخَـلّى والطّليقـا

---

(١) الغزالي، خلق المسلم، ص١٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٦٠١١)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦).

(٣) الغزالي، خلق المسلم، ص١٩٨.

(٤) الديوان، ص٤٤٩.

إذنْ لجَهِـدْتُ فـوقَ الجُهـدِ حتـى أُطيـقَ خَلاصَـكُمْ أوْ لا أُطيقَـا
فَـلا وَاللهِ أذخَـرُكُمْ هِجـاءً وشَـتمًا مـا بقيـتُ، ولا عُقُوقَـا

يشكو صحبه لأنفسهم وقد كان يؤمل أن يمتدحهم بدل هذه الشكوى، ثم يبين أنه ليس ممن يقيمون على الفضل إذا لم يجد من صحبه صداقة صادقة.

ثم يصف حاله معهم إذا هو عاتبهم واستبطأهم، حيث إنهم يغضبون ويتضايقون. ثم يقسم بأنه لو كانوا أسرى لما تحمّل أسرهم، ولسعى جهده لإطلاقهم وفاء منه لهم وحبًا.

ومع كل ذلك فهو لم ينطق بحرف واحد يهجوهم فيه، ولم يعقّ صداقتهم أو يجحدها أبدًا.

ويصف حال بعضهم قائلاً(١):

أرَى الإخـوانَ في هجـرٍ أقـامُوا وخـانَ الخِـلّ، وافْتُقِـدَ الـذّمامُ
ووَدَّعَنـي الـصّبَا، وعَريـتُ منـه كـما مـن غِمْـدِهِ خـرَجَ الحُسام
فـصرْتُ ملازِمًـا لـذِنابِ عَـيشٍ تَـضَمّنَهُ اعْوِجـاجٌ، وانهِـدامُ

يرى أن الوفاء بين الناس قد قل، ولم يعد للوفاء قيمة لديهم، وهو مع تلك الحال من الهجر والخيانة قد بدأ البياض يكسو خصلات شعره مودعة الصبا، معلنةً الشيب، وهو في آخر عمره هذا يحيا حياة بائسة.

ويقول في مقطوعة أخرى(٢):

ألا قـلْ لعمْـرٍو كيْـفَ أنيَ واحـدٌ ومثْلُـكَ يـا ذا في الأنـامِ كثـيرُ
قطعْـتَ إخـائي بادِئًـا، وجفـوْتَني ولـيسَ أخـي مَـن في الـوداد يجـورُ

---

(١) الديوان، ص٤٥١.

(٢) نفسه، ص٤٤٩.

ولــو أنّ بعْــضِي رَابَنــي لقطَعْتُــه فكيــفَ تَــراني للعــدُوّ أصــيرُ

عليكَ سلامٌ، سوفَ دون لقائكمْ تمُــرّ شــهورٌ بعْــدَهُنّ شــهورُ

يرى أنه متفرّد عن البقية. أما عمرو فمثله كثير شائع في الناس، فقد قطع صلته به وجفاه وهو من ابتدأ بالجفوة والهجر. وأبو نواس لا يعدّ من يجفوه ويجور عليه أخًا وصديقًا. كيف لا وهو الذي لو رابه شيء من جسده لقطعه فكيف بالناس؟ ثمّ يسلّم عليه مبينًا أنه سيمر زمن طويل قبل أن يلقاه مرة أخرى.

لا شك أن النفس البشرية ضعيفة اتجاه مشاعرها أمام من تحب وتحترم، فعندما يصدم شخص بصديقه قد يتصرف بعجل لينهي علاقته به انتقامًا منه ومن نفسه التي وثقت في هذا الصديق الخائن. والحقيقة أن الإسلام يمنعنا من مثل هذه التصرفات التي تزيد الشحناء والعداوة بين المسلمين ؛ لذلك نهى الرسول –عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ– المسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث ليال. وهو مبدأ إسلامي أصيل ينمي روابط المجتمع، ويجعل الشخص يعيد حساباته مع أصدقائه وإخوانه، كذلك فإن مثل هذا التصرّف يجعل الشخص المقابل يعيد النظر في مواقفه، ويكتشف أخطاؤه.

نجده يخاطب من يعذله بقوله [(١)]:

أيّهـــا العـــاذِلانِ لا تعـــذِلاني في مُناســـاةِ خِلَّـــةِ الإخـــوانِ

مــرضَ الــودُّ والإخــاءُ، وبــادا فــدَعاني مِــنَ المــلامِ دَعــاني

يقول أيها العذّال كفاكم لومًا لي في هجر الإخوان، فقد مرِض الودّ والوفاء ولم يعدّ لهما وجود، فدعوا اللوم.

ويخبر عن قصة له مع أحد أصحابه قائلاً [(٢)]:

إنّي عَجِبــتُ وَفي الأَيّــامِ مُعتَــبَرٌ وَالـدَهرُ يَـأتي بِـأَلوانِ الأَعاجيـبِ

---

(١) الديوان، ص٤٥٤.

(٢) نفسه، ص٤٥٥.

مِن صاحِبٍ كانَ دُنيائي وَآخِرَتي عَدا عَلَيَّ جِهارًا عَدوَةَ الذيبِ
مِن غَيرِ ذَنبٍ وَلا شَيءٍ قُرِفتُ بِهِ أَبدى خَبيثَتَهُ ظُلمًا وَأُغرِيَ بي
يا واحِدي مِن جَميعِ الناسِ كُلِّهِمُ ماذا أَرَدتَ إِلى سَبّي وَتَأنيبي
قَد كانَ لي مَثَلٌ لَو كُنتُ أَعقِلُهُ مِن قَولِ غالِبِ لَفظٍ غَيرِ مَغلوبِ
لا تَحمِدَنَّ اِمرَأً حَتّى تُجَرِّبَهُ وَلا تَذُمَّنَّهُ مِن غَيرِ تَجريبِ

إنه يعجب أشدّ العجب - وإن كانت الأيام فيها عبرة ومُتعظ- من صديق كان يشغل مكانًا كبيرًا في قلبه، وإذا به يتغير فجأة فيصير عدوًا ينقضّ كالذئب، لقد فاجأه بهذا التصرف الظالم من غير ذنب اقترفه.

ثم يخاطب من يعاتبه بأنه كان يؤثره كابن وحيد، ويتساءل ماذا أردت بهذا السبّ والتأنيب لي؟ ثم يواسي نفسه بخسارة هذا الصديق وظلمه له بأمثال السابقين، حيث يقول المثل: "لا تمجّد المرء إلا بعد اختباره".

يقول الماوردي في هذا الصدد: "فإذا عزم على اصطفاء الإخوان سبَرَ أحوالهم قبل إخائهم، وكشف عن أخلاقهم قبل اصطفائهم... قال الحكماء: اعرف الرجل من فعله لا من كلامه، واعرف محبته من عينه لا من لسانه"(١).

يقول مادحًا نفسه معاتبًا صديقه(٢):

وأخ إن جاءني في حاجة كان بالإنجاز مني واثقًا
وإذا ما فاجأته في مثلها كان بالرد بصيرًا حاذقا

له صديق كلما أراد أن تُقضى حاجته أتى إلى أبي نواس فأنجزها له على أحسن ما يكون، وفي المقابل كلما احتاجه أبو نواس وسأله فإذا به قد يردّه عبر جواب أعدّه مسبقًا، إنه عتاب مبطن بهجاء اتجاه هذا الصديق.

---

(١) الماوردي. (١٩٨٦م). أدب الدنيا والدين. دار مكتبة الحياة، (١/ ١٦٥).

(٢) الديوان، ص٤٥٤.

والحقيقة أن مثل هذا التصرف ينم عن لؤم في الطبع وأنانية في النفس "فمن حق أخيك عليك أن تكره مضرته، وأن تبادر على دفعها، فإن مسه ما يتأذى به شاركته الألم، وأحسست معه بالحزن. أما أن تكون ميت العاطفة قليل الاكتراث؛ لأن المصيبة وقعت بعيدا عنك، فالأمر لا يعنيك، فهذا تصرف لئيم، وهو مبتوت الصلة بمشاعر الأخوة الغامرة التي تمزج بين نفوس المسلمين، فتجعل الرجل يتأوه للألم ينزل بأخيه"(1).

ويصف بعض الناس بقوله (2):

عليك باليأس من الناس ... إِنَّ الغِنَى وَيْحَكَ في اليأس
كم صاحبٍ قد كان لي وامقًا ... إذْ كان في حالات إفلاس
أقولُ لَوْ قَدْ نالَ هذا الغِنَى ... أقعدني حبًا على الراس
حتى إذا صار إلى ما اشتهى ... وَعَدَّهُ الناسُ من الناس
قطع بالقنطير حبل الصفا ... مني، ولما يرضَ بالفاس

يقول إن خبرته في الحياة وتجاربه مع الناس جعلته ييأس منهم! فكم من صاحب كان محبًا له مخلصًا عندما كان فقيرًا، فلما اغتنى وأصبح معروفًا للناس، قطع صلته به بقنطير، وهي آلة أشدّ من الفأس.

---

(1) الغزالي، خلق المسلم، ص١٧٤.

(2) الديوان، ص٤٥١.

❁ قيمة ذم البخل والحرص:

هي قيمة مقابلة للكرم، فذمّ البخل يقتضي مدح الكرم، ولاشك أن الكرم قيمة إسلامية وعربية أصيلة[(١)].

أما البخل فهو من أبغض الصفات وأبشعها، وقد حذرّ الله تعالى من هذه الخلّة في كتابه قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ ﴾[(٢)].

وقال الرسول -عليه أفضل الصلاة والسلام-: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا»[(٣)]، وقال الله في الحديث القدسي: «أنْفِقْ يا بن آدم أُنْفِقْ عليك»[(٤)].

وقال رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشحّ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[(٥)].

"وقد أخذ الإسلام يفهم الإنسان بالحسنى والإقناع أن محبته الشديدة لماله قد

---

(١) انظر: قيمة الكرم، ص٦٨.

(٢) الليل: ٨-١١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾ (١٤٤٢)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك (١٠١٠)، من حديث أبي الدرداء.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه»: كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل (٥٣٥٢)، ومسلم في «صحيحه»: كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلاف (٩٩٣).

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه»: كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة (٢٤٤٧)، ومسلم في «صحيحه»: كتاب البر، باب باب تحريم الظلم (٢٥٧٩)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

توررده المتالف، ولو أنه فكر في حقيقة ما يملك، وفي عاقبته معه، لرأى السماحة أفضل من الأثرة، والعطاء خيرا من البخل"[1].

إن الكرم بركة للمال والإنفاق لا يقتضي الفقر، بل هو سبب لنماء المال وزيادته، فعن أبي هريرة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- أن رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله -عَزَّوَجَلَّ- »[2]، ثم إنه فوق ذلك مجلبة للعار على صاحبه، وصفة مهينة للشخص لاسيما لدى العرب تجعله سبيلاً للتندر والضحك، وتدني من قيمته الاجتماعية كثيرًا، وكثيرًا ما تعرض الشعراء والكتّاب لهؤلاء البخلاء بالشعر أو النثر جاعلين منهم مادة للضحك أو الهجاء.

نجد الشاعر هنا يخاطب من يمدح قومًا بخلاء قائلاً[3]:

يــا مــادحَ القـــوْمِ اللّئـــا ... مِ، وطالِبًـــا رِفْـــدَ الـــشّحاحِ
أشْـــغِلْ قَريــــضَكَ بالنّـــسيـ ... ـــبِ، وبالفُكاهـــةِ والمُـــزَاحِ
حَـــدَثَتْ وجـــوهٌ لـــيسَ تـــأ ... لمُ غـــيرَ أطـــرافِ الرّمـــاحِ
وأكـــفُّ قـــوْمٍ لـــيس يُنْــــ ... ـــبِطُ ماءَهـــا إلا المـــساحي
مــا شِــئْتَ مــن مــالٍ حِمــىً ... يـــأوي إلى عِـــرْضٍ مُبـــاحِ

يقول انشغل ياهذا بنظم شعر الغزل والمزاح والتفكه عن مدحهم، فلقد وجهت مدحك لقوم وجوهها فقدت الحياة، فهي لا تدمى من الكلام بل من الرماح.

وأيديهم لا يخرج منها عطاء إلا أن تستخرج ماءها فلا يخرج عطاءها إلا المسحاة، وهي آلة يجرف بها الطين.

----

(١) الغزالي، خلق المسلم ص١٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الديوان، ص٤٥٠و٤٥١.

و الأبيات السابقة ذكرت بالديوان في باب العتاب، إلا أن المتأمل فيها يجد أنها هجاء محض، وقد أوردناها في هذا الغرض لاحتوائها على القيمة لا غير، وإلا فهي لا تدخل في معنى العتاب.

ويصف حال بعضهم(١):

ذهب الناس فاستقلوا وصرنا — خلفا في أراذل النسناس
في أناس نعدهم من عديد — فإذا فتشوا فليسوا بناس
كلما جئت ابتغي النيل منهم — بدروني قبل السؤال بياس
وبكوا لي حتى تمنيت أني — منهم قد أفلت رأسا براس

يقول إن الناس الكرام زالوا، وهو الآن عندما يطلب المعروف من أناس كان يعدهم من الناس الكرام، فإذا بهم يبادرونه بالتشكي والعويل حتى يتمنى لو أنه أفلت منهم.

ويصف حاله مع أصحابه(٢):

أريد قطعة قرطاس فتعجزني — وجل صحبي أصحاب القراطيس
لحاهم الله من ود ومعرفة — إن المياسير منهم كالمفاليس

لقد اضطرته الحاجة إلى شراء قطعة قرطاس يكتب عليها فأعجزته مع أن معظم أصدقائه من أصحاب الدكاكين إلا أن معرفة مثل هؤلاء خسارة، فجميعهم بخلاء مفاليسهم كأغنيائهم.

ثم يوجه حديثه لعمر مستغربا من هذا الزمان وهؤلاء الناس فيقول(٣):

----

(١) الديوان، ص٤٥٤.

(٢) نفسه، ص٤٥٤.

(٣) نفسه، ص٤٥٦.

يــا عمــرو مــا للنــاس قــد   كلفــوا "بــلا" ونــسوا "نعــم"

أتـــرى الـــسماحة والنَـــدى   رُفِعـــا كـــما رُفِـــع الكـــرم

مُـــسِخَ النَـــدى بخـــلاً؛ فـــما   أحـــدٌّ يجـــودُ عـــلى أحـــد

يخاطب عمرو متعجبًا من هذا الزمان الذي تعوّد الناس فيه على ردّ السائل، واستصعبوا فيه العطاء، فأصبحوا كلفين بلفظة لا عن نعم.

* * * *

وفي الأخير نجد أن القيم في شعر النواسي تفاوتت بين القلة والكثرة، فوردت بعض القيم بكثرة في شعره، بينما هناك قيم لا تتجاوز البيت أو البيتين، كل ذلك راجع إلى عوامل كثيرة منها حاجة الشاعر إلى استحضار بعض القيم لاسيما في غرض المدح، فنجده طرق قيمة الكرم والعفو كثيراً ؛ لأن طبيعة حياته والتي يصرف فيها الكثير على خمره وملاهيه مما جعله محتاجاً للمزيد من العطايا التي تكفل له هذه الحياة التي ارتضاها لنفسه. كذلك لكثرة مشاكساته في قصائده، وخروجه على الحدود التي اقتضاها الشرع في تصرفاته جعلته عرضة للسجن والعقاب أكثر من مرة ؛ لذا نجده يتوسل بالعفو لممدوحيه، ويرسل تلك القصائد من داخل السجن رغبة في الخروج والحرية.

كذلك حاول الشاعر كثيرًا التأثير في نفوس ممدوحيه من خلال الضرب على أنغام قيم معينة يطرب لها الممدوح، كالتقوى والشجاعة والجهاد في سبيل الله والعدل ؛ مجاراة لروح عصره الذي يرى في الخليفة والأمير المثال الأعلى، والذي يجب أن تتوفر فيه صفات معينة حتى وإن خالفت عالم الواقع، كذلك كان لعمره أثرًا في كثرة تلك القيم وقلتها، ففي فورات شبابه كثر ورود تلك القيم في قصائد المدح لديه ؛ وذلك لتردده على الخلفاء والأمراء واختلاطه بعلية القوم، كما رأينا قصائده في الرشيد والأمين وخصيب مصر. أما عندما غلب عليه الشيب، ومضى به العمر قلّت تلك القيم في المدح لنجدها ترتفع في العتاب والشكوى والزهد، فنجده أحيانًا يرسل عتابه وشكواه إلى صديق تغير عليه عندما قل ماله وأفلس، كما ردد بعض القيم في الزهد، والتي من خلالها يحث على

اغتنام العمر والاستفادة من الزمن، وعدم الاغترار بدنيا زائلة، كذلك اختلفت القيم بين الصدق والتكلّف، فنجد بعضها متكلفًا، وكأن الشاعر قد أجبر على قولها، بينما الأخرى تنساب بسهولة، وتنضح أبياتها صدقا وعاطفة لاسيما مقطوعاته في الزهد.

الفصل الثالث

الخصائـــص الفنيـــة

وفيه أربعــة مباحــث:

- المبحث الأول: الصورة الفنية.
- المبحث الثاني: الموسيقى.
- المبحث الثالث: المعجم الشعري.
- المبحث الرابع: اللغة الشعرية.

۞ مقدمــــــة:

سوف تقف هذه الدراسة على النماذج الشعرية الـواردة في الفـصل الثـاني (موضـوع البحث)، مع تجاهلنا لكل ما ورد في باب الخمريات من صور وبـديع، بـالرغم مـن إبـداع الشاعر في تلك الخمريـات، لاسيما في صـورها، ولكـن الحـديث عنهـا يبـدو خارجًـا عـن الموضوع، إضافة إلى أنه قد أُعدّت رسائل متخصصة في موضوع خمرياته، حيـث تناولـت الخمر من جميع جوانبها الفنية [(١)].

سنسلط الضوء في هـذا الفـصل عـلى جوانـب أخـرى مـن شـعره أهملهـا البـاحثون، حيث إن الأغلبية اهتم في دراسة الجانب الفني لخمرياته وغزله.

---

(١) انظر: العشماوي، أيمن. (١٩٩٨م). خمريات أبي نواس: دراسة في الشكل والمـضمون. الإسـكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨م.

المبحث الأول

الصـــورة الفنيـــة

الصـــورة الفنيـــــة

تحتلُّ الصورة الفنية بقيمتها العالية ومكانتها الفاعلة مكانة مهمة في الدراسات الأدبية والنقدية على مرِّ عصور الشعر العربي، من حيث أدواتها، ووسائلها، ووظيفتها في القصيدة الشعرية، وإن كان النقاد القدامى لم يصطلحوا على تسميتها بالصورة الفنية، إلا أنها وردت لديهم بمسميات تتفق والمعايير الأساسية للصورة الفنية، حيث جاءت بمُسمَّى اللفظ والشكل والأسلوب، أما نقادنا المتأخرين، فترد الصورة الفنية لديهم بأسماء عديدة مترادفة المعنى، فيُقال عنها: الصورة الشعرية، أو الصورة البيانية، وبعضهم يفردها فيذكرها بالصورة فقط.

إن الصورة الفنية تُعدُّ اللوحة الفنية اللفظية للشاعر، يُوشِّح بها قصائده، ويلبسها الثياب الجميلة، والحلة المطرزة التي من خلالها يُؤثِّر في المتلقي. ولعل من أقرب التعريفات للصورة الفنية، ما أورده أحمد الشايب، حيث يرى أن "الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معًا إلى قرائه وسامعيه، هي الصورة الفنية"(1)، ثم يذكر أن لها معنيين:

الأول: ما يقابل المادة الأدبية، ويظهر في الخيال والعبارة.

الثاني: ما يُقابل الأسلوب، ويتحقَّق بالوحدة، وتقوم على الكمال والتأليف والتناسب(2).

ويرى الدكتور جابر أحمد عصفور أن الصورة "طريقة خاصة من طرق التعبير، أو وجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها فيما تُحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير. ولكن أيًّا كانت هذه الخصوصية، أو ذاك التأثير، فإن الصورة لن تُغيِّر من طبيعة المعنى في ذاته. إنها لا تُغيِّر إلا من طريقة عرضه، وكيفية تقديمه"(3).

---

(1) الشايب، أحمد. (١٩٩٤م). أصول النقد الأدبي، ط١٠، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص٢٤٢.

(2) المرجع السابق نفسه، ص٢٥٩.

(3) عصفور، جابر أحمد. (١٩٧٤م). الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ص٣٩٢.

وتعدُّ الصورة الفنية القالب الذي يُفرغ فيه الشاعر عواطفه ومعانيه، "فالمعاني شيء كامن لا يظهر إلا في الصورة، ومن الصورة الفنية يستمد الشعر قوته"[(١)]. وبواسطة الصورة يستطيع الشاعر نقل تلك الخلجات النفسية التي يشعر بها، فيترجمها شعرًا، ولولا هذه الصور التي أفرغ فيها معانيه وأفكاره، لكانت كلماته مجرد تعابير لا تُؤثِّر إطلاقًا. إن الصورة تُخرج القصيدة من الثبات والسكون إلى الحرية والحركة؛ لذلك فإن وظيفتها الأساسية التأثير وشدّ الانتباه.

وقد توسَّع المفهوم الجديد للصورة، فلم يعد مجرد مجاز، وتشبيه، واستعارة؛ ولذا فقد دخل في "تكوين الصورة بهذا الفهم ما يُعرف بالصور البلاغية من تشبيه ومجاز، إلى جانب التقابل، والظلال، والألوان، وهذا التشكيل يستغرق اللحظة الشعرية والمشهد الخارجي"[(٢)].

هذا وتتنوَّع الصورة بتنوع مصادر تأثيرها، فقد تكون سمعية تؤثر على السمع، وقد تكون بصرية تؤثر على البصر، وقد تجمع بين حواس كثيرة، يمكنها أن تأسر كيان المتلقي بأكلمه، والشاعر الحاذق هو الذي يستطيع أن يمتلك كل هذه الحواس بصورته، دون أن يُشعر المتلقي بأنه أسير صنعة وتكلُّف.

وتعتمد الصورة على منابع تشكُّل اللفظ الذي يتناسب مع الغرض، والعاطفة، والنظم والتأليف، والعاطفة، والموسيقى، والخيال[(٣)]. ومن ثم يمكن القول بأن:

----

(١) عصفور، جابر أحمد، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ص٣٩٨.

(٢) القط، عبدالقادر. (١٩٧٥م). في الشعر الإسلامي والأموي، بيروت: دار اليقظة العربية للطباعة والنشر، ٢٥٦ وما بعدها.

(٣) ينظر: صبيح، علي علي. (١٩٧٦م). البناء الفني للصورة الأدبية عن ابن الرومي، القاهرة: مطبعة الأمانة، ص٢٩، والبصير، كامل حسن. (١٩٨٧م). بناء الصورة الفنية في البيان العربي، طبعة المجمع العراقي، ص١٢١: ١٢٥. والجهني، زيد بن محمد بن غانم. (١٤٢٥هـ). الصورة الفنية في المفضليات، الطبعة الأولى، ص٤٢: ٤٥.

"الكلام الشعري إيحائي تخيلي، يقوم على الصورة التي تكشف عن الجوانب الخفية في التجربة الفنية"[1].

ويمكن تلخيص خصائص الصورة الفنية الشعرية في النقاط الآتية:

١- الإيحاء.

٢- الخيال.

٣- الكشف عن جوانب خفية في التجربة الشعرية، لا تستطيع أي وسيلة أخرى كشفها.

٤- الحركة.

٥- اللون.

٦- تكوين عالم متكامل جديد.

لذا يرى كروتشه أن الصورة "مهما بلغ جمالها، ومهما كانت مطابقتها للواقع، ومهما عبر الشاعر عنها بدقة، ليست هي الشيء الذي يميز الشاعر الصادق، وإنما تصبح الصورة معياراً للعبقرية الأصيلة حين تشكلها عاطفة سائدة، أو حينما تتحول فيها الكثرة إلى الوحدة، والتتالي إلى لحظة واحدة أو أخيراً حيمنا يضفي عليها الشاعر من روحه حياة إنسانية وفكرية"[2]. فعبقرية الصورة برأيه تنتج من العاطفة، والوحدة، وتوحيد اللحظة بحيث تنمو هذه الصورة وتتطور داخل القصيدة لتشكل أثر واحد في النهاية.

وهذه هي الخصائص العامة للصورة الفنية المحضة والمطلقة عند كل الشعراء، إلا أن بعضهم ممن ينشدون التميز والتفرد، يسلكون مسلكًا شخصيًّا في الصورة الفنية في جميع قصائدهم، حيث تجد للصورة عندهم خصائص مستقلة يمكن أن يُطلق عليها صورة شخصية، لا يستطيع أي شاعر غير قائلها سرقتها أو مجاراتها، وهو في ذلك ينتجها

---

(١) زكية، يحيى. (د. ت). الصورة الفنية في التجربة الرومانسية، رسالة ماجستير غير منشورة، ص٢٢.

(٢) كروتشه، بندته. (١٩٦٤م). المجمل في فلسفة الفن، ترجمة: سامي الدروبي ط٢، دمشق: دار الأوابد، ص٥٨/٥٧.

من: "العمق اللاشعوري أحيانًا، ويصعد بها إلى منطقة الشعور، ويدبجها عبر مدارج أفكاره، ثم يرسلها عبر فضاء الإبداع الفني إلى مدى أوسع، بعد أن يكون قد حمّلها بالطاقتين (الشعورية والشعرية)، وهو واعٍ إلى حقيقة أنها قد استمدت حيويتها وصفاتها التعبيرية من قلب المجتمع الإنساني، ومدركٌ تمام الإدراك أن إمكاناته الفنية على الإنتاج الإبداعي، هي التي رجَّحت قدرته- دون سواه- على إضفاء اللمسة الشعرية على المفردات المتداولة؛ مما منحها بعدًا فنيًّا ودلاليًّا غير ما تعارف الآخرون عليه، وهو بذلك يُعيد صياغة المصاغ بمهارة أكبر، وبشكل مغاير، لينتج قيمة مغايرة تشع منها حياة جديدة تنبض بالمتعة والإثارة؛ فتستجيب المشاعر المقابلة للشعور المنتج لها، وهو ما يستثير الحواس، فتنطلق ردود أفعالها"(١).

وفي مقدمة هؤلاء الشعراء أبو نواس، فشعره يعدُّ ظاهرة فنية فريدة من نوعها، والذي دعَّم ذلك وقوع شعره على حافة تفصل بين مرحلتين ثقافيتين، تُمثِّلان حجر الزاوية في تطور الأدب العربي القديم(٢). فقد وقف أبو نواس على القصيدة الشعرية العربية والصورة الفنية، بما يمكن أن يُسمَّى تظاهرًا، ولكنه رفض البنية الثلاثية التي ميَّزت القصيدة الجاهلية، واستعاض عنها بالوقفة الخمرية، حيث إنه ثار أيضًا على الصورة الشعرية التقليدية، واستحدث صورًا جديدة، كتشخيص الخمر، والاعتماد على الاستعارة أساسًا قويًّا في تشكيل صورته الشعرية والفنية.

"والدارس للصورة الشعرية عند أبي نواس يستطيع أن يظفر بأنواعها المختلفة. فلديه الصورة الواحدة التي تعتمد على التشبيه أو الاستعارة، ولديه الصورة التي تتألَّف من مقطع واحد، والتي تُجسِّد موقفًا متكاملًا، ولديه المقطعة الكاملة، أو القصيدة التي

----

(١) زيدان، سليمان. (د. ت). أثر الصورة الشعرية في تشكيل ثقافة الحب والكراهية، بيروت: دار النهضة العربية، ص٢٢.

(٢) انظر: حسن، عبدالناصر، شعر أبي نواس، مقال باليوم السابع ٢٧/ ٩/ ٢٠٠٩.

تكون في مجموعها صورةً كلية لتجسيد رؤية واحدة"[1].

ولن تهتم الدراسة بالتشبيه لسببين:

الأول: دراسته قبل ذلك دراسة مستقلة، وهي الدراسة التي قام بها محمود عبد الله محمد صيام، وعنوانها: التشبيه في شعر أبي نواس، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٩٠م.

الثاني: ظهور الاستعارة بشكل أقوى ومجال طولي أكبر من التشبيه في شعر أبي نواس، وهو ما يتضح ممثلًا في الصفحات الآتية.

وقبل الخوض في الدراسة التطبيقية لشعر أبي نواس، لا بد من الوقوف على الاستعارة بصفة عامة، حتى تتضح ملامح التجديد والإبداع فيها عند أبي نواس.

إن الاستعارة هي: " أداة الشاعر المعرفية التي بها يتمكَّن من التعرف على العوامل المجهولة والضاربة في الغموض، ما وراء العالم المرئي والمحسوس، في عالم النفس واللاشعور، والتعبير عنها من خلال امتزاج الحسي بالتجريدي، والشعور باللاشعور، والخارج بالداخل. فالقوة السحرية للاستعارة الحركية هي قوة الخلق، خلق عالم جديد مركب من عناصر مختلفة كل الاختلاف عن المرجع الخارجي الذي ينبثق عنه"[2].

وعلى هذا يكمن دور الاستعارة في: "نقل حالة شعورية يحياها الأديب، وهذا يتطلب خلق تصورات غير مألوفة في سياق القصيدة"[3].

وقد ركَّز شعراء القرن الثاني الهجري على الاستعارات، وتخلوا عن التشبيه عنصرًا أساسيًّا في عملية البناء الفني. والاستعارة في هذا القرن تضعنا وجهًا لوجه أمام انتقال

---

(١) العشماوي، أيمن، خمريات أبي نواس، ص٢٤٦.

(٢) موسى، داليا أحمد. (٢٠١٠). الإحالة في شعر أدونيس. الطبعة الأولى، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ص١٦٥، ويُنظر: زكية، يحيى، الصورة الفنية في التجربة الرومانسية، ص٨٦.

(٣) الداية، فايز. (١٩٩٦م). جماليات الأسلوب (الصورة الفنية في الأدب العربي). ط٢، دمشق: دار الفكر المعاصر، ص١١٤.

يقوم في جوهره على تخطي مرحلة المادية الحسية إلى مرحلة التجريد والتصورات[1].

ولعل أبا نواس يُعدُّ من أهم شعراء هذا القرن، الذين أحدثوا تغيرًا هائلًا في الصورة الفنية، كما هي عند الشعراء الجاهليين، ورفعها إلى عالم آخر يتناسب والعالم الحضري الذي يعيشه، والذي استمد منه صوره وأفكاره. وكما أنه تحلَّل من قيود مجتمعه الخلقية، فقد تحرّر من القيود الفنية الشكلية التي شكَّلت عنصرًا مهمًّا من عناصر النقد لدى نقاد عصره. هذا وإن كانت بعض صوره لا تخرج عن النمط التقليدي المعروف، إلا أن هذا لا يعني أنه اعتمدها تعبيرًا في كل صوره.

انظر لقوله[2]:

تبارَكَ مَنْ ساسَ الأمورَ بعلمهِ ... وفضَّلَ هارونَ على الخلفاء

نعيش بخير ما انطوينا على التقى ... وما ساس دنيانا أبو الأمناء

إمام يخاف الله حتى كأنه ... يؤمل رؤياه صباح مساء

لقد وظَّف الشاعر الاستعارة توظيفًا غير مسبوق في المدح، فقد أراد أن يمدح هارون مدحًا مختلفًا، حيث إن معظم الشعراء يتعلَّق مديحهم بالكرم والجود... لكن الشاعر تعلَّق هنا بنقطة قوية، ألا وهي قدرته على فكِّ أزمات هذا العصر، وهذا واضح من الاستعارة المكنية (ساس دنيانا)، حيث جعل الدنيا حيوانًا عاصيًا يُروَّض، ولكن هذا الترويض من الخليفة ليس ترويضًا قسريًّا أو بالقوة، إنه ترويض بالعلم والعقل والسياسة. وقد ركَّب أبو نواس هذه الصورة تركيبًا سلساً، ومن ثَمَّ خرج بها من مجرد الاستعارة المكنية إلى الصورة التمثيلية. وقد سبغ الصورة بالصبغة الدينية الواضحة من ألفاظ (التقي- يخاف الله- يؤمّل رؤياه صباح مساء).

وغالبًا ما يمدحه أبو نواس بهذه الصبغة الدينية، وهذا المدح المتفرد، حيث

---

(١) انظر: درويش، العربي حسن، أبو نواس وقضية الحداثة، ص٢٠٩.

(٢) الديوان، ص٣٠٧.

يقول عنه[1]:

لكنـــــه في الله مبتــــذل لهــــا		إن التقـــيَّ مـــسددٌ ومعــــان

ومن ثمَّ فإن كل أعماله مردها إلى رضا الله، كما أنها نابعة من التقوى والخوف منه سبحانه وتعالى. وتتواتر الصور في هذا المعنى، حيث يقول[2]:

هــارون ألفنــا ائــتلاف مــودة		ماتــت لهـا الأحقـاد والأضـغان

في كـــل عـــام غـــزوة ووفـــاد		تنبــت بــين نواهمــا الأقــران

حـج وغـزوٌ مـات بيـنهما الكـرى		بـاليعملات شـعارها الوخـدان

يرمـي بهـن نيـاط كـل تنوفـةٍ		في الله رحـــال بهـــا، ظعَّـــان

حتـى إذا واجهنـا إقبـال الـصفا		حـنَّ الحطـيم، وأطّـت الأركـان

فالاستعارات المكنية (ماتت الأحقاد والأضغان- مات بينهما الكرى - حن الحطيم...) تدعم هذا المدح، فالحاقد ليس هو من يموت، بل جميع الأحقاد تموت، وفي استعارة الموت للأحقاد دلالة قوية على نهايتها وانتهائها بصورة أبدية، إذا ما وجهت بأفعاله وصنائعه.

وتتماشى هذه الصبغة الدينية في كل صوره بشكل طولي في جميع القصائد، فها هو يقول عن الأمين[3]:

أضـــحى الإمـــام محمـــد		للـــــدين نـــــورًا يقتــــبس

حيث جعل محمدًا مصباحًا يشعُّ منه النور، وحذف كلمة مصباح وجعله نورًا؛ لأن المصباح له حدٌّ في الضوء، أما النور فلا حدَّ له، وهذه براعة الشاعر في التشبيه. وجودة الصورة تكمن في مثل هذه الأمور، ثم إنه صبغ هذه الصورة بالصبغة الدينية الكامنة في

---

(١) الديوان، ص٣٠٩.

(٢) نفسه، ص٣٠٩.

(٣) نفسه، ص٣٠٧.

لفظ (يُقتبس)، حيث اقتبس من الدين نورًا. والصورة في البيت بيانية اعتمدت على التشبيه.

و يقول في مدح الخليفة الرشيد[1]:

أَلِفَتْ منادمةَ الدِّماء سيُوفهُ — فلقلّما تحتازها الأجفان
حتى الذي في الرحم لم يك — صورة لفؤاده من خوفه خفقان
حذر امرئ قصرت يداه على العدا — كالدهر فيه شراسة وليان

لقد أوصلت صور الشاعر الفنية دلائل لم تكن تظهر بغيرها، ووصول الدلالات ليس هو الهدف الوحيد للشاعر، بل الأهم من ذلك التأثير، وامتلاك نفسية المتلقي، وهو ما تحقَّق من قوله: "ألفت منادمة الدماء سيوفه"، حيث جعل الدم وسيوف هذا الخليفة حبيبين، بينما نجد أن هناك عشقًا كبيرًا يتحقَّق من قوله: منادمة، وفي هذه الكلمة رمز على الخمر التي اشتهر بها أبو نواس، فالحب ليس حبًّا عاديًّا طبيعيًّا، لكنه حبّ نشوة كنشوة الخمر، تتحقَّق لدى سيوف هذا الخليفة، ومن كانت سيوفه تعشق الدماء بهذا الشكل، فلا بد أن يكون شرسًا، لكن الشاعر يُخفِّف من وطأة هذه الصورة برهافة قلبه، وهذه ظاهرة من قوله: كالدهر فيه شراسة وليان. ولهذا التشبيه قيمته، فهو شرس وقت لزوم الشراسة، وطيب لين رحيم وقت لزوم ذلك، إنه إنسان مستقر نفسيًّا، يستطيع أن يفصل بين جميع المواقف، وقد دعَّم هذه الدلالات الصور الفنية المتلاحقة والمتلاحمة والمتآلفة مع بعضها، فلا تكاد تشعر بنفور ولا تكلف، فكلها تسير في حقيقة واحدة، هي: "الخليفة فيه قوة ورحمة".

ويُدعِّم هذه الحقيقة بصورة أخرى، حيث يقول[2]:

ورث الخلافة خمسة — وبخير سادسهم سدس

---

(١) الديوان، ص٣٠٩ و٣١٠.

(٢) نفسه، ص٣١٧.

تبكـــــي البـــــدور لـــــضحكه   والـــسيف يـــضحك إن عـــبس

فالخلفاء خمسة، ممدوحه سادسهم، لكن هذا الخليفة ليس سادسًا عاديًّا، حيث إنه يقف عند خصوصيته بصورتين، لا يمكن أن تنفصلا، وأكبر من ذلك أنهما متضادتان، وهما حالتان طبيعيتان لأي إنسان:

الحالة الأولى: الضحك.

الحالة الثانية: الحزن والغضب.

وقد صوَّر الشاعر الحالتين عند خليفته بصورتين، وهما:

تبكـــــي البـــــدور لـــــضحكه   الـــسيف يـــضحك إن عـــبس

فالبدر رمز لمنتهى الإشراق والفرح، ولكن الخليفة إذا ضحك، فإن بهجة البدر بجواره تكون حزنًا وبكاء، وعلى النقيض الحالة الثانية، وهي غضبه، فإن غضب، فغضب السيف يكون مجرد ضحك بجوار غضبه، ولا يمكن أن يصل المعنى المراد إلى نفسية المتلقي بدون هاتين الصورتين.

إن الشاعر يريد أن يجعل حاله أعلى من حاله، والوضع الطبيعي أن يكون الفرح أعلى من الغضب، ومن ثَمَّ فإنه يستخدم (إن) التي تفيد الشك، وهو وإن كان غضبه أفظع من غضب السيف، فإن عنده شكًّا في حدوث ذلك بجوار استمرار بكاء البدور لاستمرارية ضحكه، وهذه المقارنة لا يصل إلى نتائجها بصورة سليمة، إلا كل شاعر حاذق مبدع، وتعدُّ هذه الصورة من انفرادات أبي نواس.

وهذه الصور المديحية، وهذه الصبغة الرمزية والاقتباس الديني لها جذورها في خمرياته التي اشتهر بها، وراجت قصائده بسببها، يُضاف إلى ذلك المقارنة التي استخدمها كثيرًا في أشعاره، والتي تُلمح إلى الصراع الذي كان يعالجه أبو نواس بين معاقرته للخمر والتوبة، وهذه أمور مستقرة في نفسيته، تكاد تظهر في جميع قصائده، فها هو يقول عن الخمر(١):

---

(١) الديوان، ص٣١٧.

نبــــه نـــــديمك قــــد نعـــــس ... يـــــسقيك كأسًـــــا في الغلـــــس

صرفًـــــا كـــــأن شـــــعاعها ... في كـــــف شـــــاربها قـــــبس

وبصرف النظر عن مخاطبة الصاحب، وملازمته للقصائد في الشعر العربي بأكمله، ومجاراة أبي نواس لذلك؛ إلا أننا نجد في البيتين تأصيلًا لجميع الصور المديحية السابقة، وإن كانت صورًا خمرية جديدة عند أبي نواس.

فقد قال في مديحه: (ألفت منادمة الدماء سيوفه)، وتأصيلها في هذين البيتين: (نبِّه نديمك قد نعس)، ولئن قال: (للدين نورًا يُقتبس)، فتأصيلها: (في كف شاربها قبس).

وصورة الخمر في هذين البيتين صورة رائعة، حيث جعل الخمر مثل الشمس بشعاعها الصافي الرائق الذي ترتاح له النفس، وهذه صورة أولى دعَّمها بصورة ثانية تلاحقها بقوله: (في كف شاربها قبس)، حيث جعلها كالمصباح الذي يُشعُّ نورًا خالصًا، كما توحي بذلك كلمة قبس، وبهذا تجتمع الألفاظ الدينية، ومخيلة الشاعر المتأصلة من خمرياته المشهورة، فيكاد يشركها في كل أغراضه ومدائحه.

كما نجد له صورة رائعة في هذه الأبيات التي يقول فيها(1):

متبرّج المعروف، عرّيض الندا ... حـصِرٌ بـلا منـه فـمٌ ولـسان

للجـود مـن كلتـا يديـه محـرك ... لا يـستطيع بلوغـه الإسـكان

إن عبارة "متبرّج المعروف" لم ترد قبل أبي نواس، فهي نتاج حصري للشاعر. إنها استعارة اعتمد عليها الشاعر في صورته المبتكرة، التي شبَّه فيها المعروف (كرم الممدوح) بأنثى فاتنة متبرجة. إن جوده ساطع ظاهر، وكرمه معروف مشهور. ثم إنه يجعل من المجاز المرسل رمزًا للجود، ولم يقتصر الجود عنده على يد واحدة، ولكنه يعطي بكلتا يديه، ولم يقف الأمر عند ذلك، بل تتجلَّى قمة الكرم عند ممدوحه، إذا تخيَّل المتلقي

---

(1) الديوان، ص٣١٠.

أن بيده التي تجود محركًا يحركها لا يبلغ حركته السكون، ولا جود ولا كرم يمكن أن يكون لممدوح بعد هذه الصورة.

بل قد يتخذ أبو نواس علامة أخرى ورمزًا آخر للكرم في مدح محمد الأمين، حيث يقول(1):

شهيداي على ما قلت ... فيه الجن والإنس

والوضع الطبيعي أن تشهد الإنس بالكرم والجود، لكن قمة الجود ترتفع ليشهد على كلامه هذا الجن. فالإنس يشهدون لغيره، ولكن الشاعر يجعله متميزًا بشهادة أخرى، ألا وهي شهادة الجن له. إن كرمه غطَّى العالمين الإنس والجن، فهل يوجد كرم وجود بعد ذلك؟!

وهذه الصورة تشبه قوله(2):

أقول، والغيْثُ دانٍ ... يكادُ يُدْفَعُ بالْيَدْ
يا غيْثُ أبْرِقْ وأرْعدْ ... محمّدٌ منك أجودْ
على الأمينِ يمينٌ، ... باللهِ، ربِّ محمّدْ
أنْ لا يقولَ لراجٍ ... رجاهُ: لا عن تعمّدْ

فإن كان الغيث المنهطل قريبًا لمن رفع يده، فجود محمد أقرب من هذا الغيث لتلك اليد. ويبدو أن الصورة هنا بيانية، حيث جعل الشاعر جود محمد أقرب من المطر، ومن ثم شبَّهه بالغيث.

ويُصوّر الكرم من خلال صورة أخرى يقول فيها، وهو يمدح الخصيب أمير مصر(3):

فما جازه الجود ولا حلَّ دونه ... ولكن يسير الجود حيث يسير

---

(1) الديوان، ص318.

(2) نفسه، ص319.

(3) نفسه، ص364

إذ استعار السَّيرَ للجود، وجعله يسير حيث يسير ممدوحه، فلا يكادان يفترقان، فهما متلازمان على الدوام.

ومثله قوله في صورة تمثيلية صنعها بمقارنة بين ممدوحه ونيل مصر، حيث يقول(1):

أنتَ الخصيبُ، وهذه مصرُ، فتَدَفَّقَا فكلاكما بَحْرُ
لا تقْعُدا بيَ عن مدَى أمَلي شيئًا، فما لكما به عُذْرُ
ويحقّ لي، إذ صرْتُ بيْنكما، ألاّ يُحِلّ بساحتي فَقْرُ
النيلُ ينعشُ ماؤهُ مصرًا، ونداكَ ينعشُ أهلَه الغمْرُ

جعل الشاعر جود ممدوحه بحرًا، فإن كان النيل يُنعش أرض مصر القفر، ويحولها إلى أرض حية خضراء، فكرمه يُنعش أهل الفقر والغمر، ويعيد فيهم الحياة بعد الموت. وما جاء في قوله عن علاقة الماء بالأرض الميتة من إيجابيات، نقله أبو نواس نقلًا سريعًا بسيطًا دون تكلّف إلى ممدوحه، وكذلك علاقة كرمه بمن يجود عليهم، فجاءت الصورة بسيطة سهلة وميسرة.

كذلك صورة أخرى في قوله(2):

ويقصُرُ كفُّ الدهرِ عمّن أجَارهُ، ويرعى من الآفات من حيث لا يدري

لقد جعل الدهر إنسانًا باطشًا، واستعار له الكف مصدر البطش والهلاك، لكن هذا لا يتحقَّق فيمن يكون يستجير بممدوحه، وهنا تنوع في استعمال اليد أو الكف في صوره، حيث جعلها للجود تارة، وجعلها للبطش تارة أخرى، كما جعلها ضمنية للنجدة والجود.

وفي قوله(1):

----

(1) الديوان، ص٣٦٣.

(2) نفسه، ص٣٧٣.

أيّهـــا العـــاذِلانِ لا تعـــذِلاني   في مُناســـاةِ خِلَّـــةِ الإخـــوانِ
مــرِضَ الــودُّ والإخــاءُ، وبــادا،   فــدَعاني مِــنَ المــلامِ دَعــاني

صور كثيرة تُدعّم معانٍ جمة، وهذه الصور هي:

- مرض الود والإخاء.
- باد الود والإخاء.

حيث جسَّم الشاعر الودّ والإخاء في إنسان واحد، وبموته يموت الود والإخاء، وقد يظنُّ أن الإنسان بموته قد يخلد ذكره بولده، لكن الشاعر أنهى على هذه النقطة بالصورة الثانية (بادا)، فلا أثر للود والإخاء بموت هذا المرثي، فهو منبعه وهو أثره، وهكذا تصل المعاني إلى نفس المتلقي.

أما عن صور الشاعر في زهدياته، فنجدها قد قلّت، واعتمد فيها على ألوان البديع في إظهار المعاني والأفكار التي يريد أن يطرحها. ولعل في هذا القول تفسيرًا حسنًا لقلة تلك الصور في زهدياته، حيث يُفسَّر قلة الصور الفنية بـ"انشغال الشاعر بنفسه في مرحلة التوبة والاستغفار، بينما كان مشغولًا بفنه في مرحلة مجونه"[(٢)].

كما يضيف الناقد هذا الرأي الذي نوافقه فيه، فيقول: "ولا يُفهم من ذلك غياب الصور الفنية من أشعار المجان بعد زهدهم، بل كانت موجودة حاضرة، ولكنها قليلة، لم يسعَ الشاعر إليها، وجاءت طبيعية عفوية غالبًا، بسيطة غير متكلفة، لم يجنح الشاعر في العثور عليها إلى الغرابة أو التعقيد، كما خلت من الصور المتشابكة أو الموحية، التي تحمل أكثر من معنى. وتفترض من السامع قدرًا من الذكاء للتعرف عليه"[(٣)].

وهذا صحيح فالشاعر أثناء مجونه، كانت تُوجَّه قصائده إلى فئات معينة من

---

(١) الديوان، ص٤٥٤.

(٢) عطوي، شعر الزهد، ص٣٥٩.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص٣٦٠.

المجتمع في عصره، والتي تتطلَّب إثبات فنيته. وكذلك احتاج الشاعر في تلك القصائد إلى لفت انتباه ممدوحيه بتلك الصور التي تتطلَّب منه جهدًا لتنقية ألفاظه ومعانيه.

أما في فترات صحوه، فلم يكن الجمهور الفني يشغله أبدًا، فقد كانت تلك المقطوعات صدى لخلجات نفسه النادمة والحزينة، إنه يرجو ربه، ويطلب عفوه؛ لذا فقد كان خائفًا في تلك اللحظات، قلقًا، لم يلق للفظ بالًا، إنما كان همه أن يُعبّر عما يشعر بأقرب المعاني وأبسط العبارات، فهو ملتزم في تلك اللحظة الصادقة بالحقيقة، ويحاول أن يتجنَّب الخيال؛ لذا فقد ابتعد عن عالم المجاز إلى الواقع، كما أنه يحاول أن يُوجِّه هذه الأبيات إلى العامة، ليفهمها الجميع: الحاذق بالصنعة الفنية، والإنسان البسيط.

انظر لقوله (1):

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة   فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن   فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك يا ربي كما أمرت تضرعًا   فإذا رددت يداي فمن ذا يرحم

إنه خالٍ من أي صورة فنية، إلا أنه مليء بمحسنات أخرى أحتاجها المعنى، فأدته بأحسن ما يُمكن.

ثم انظر إلى قوله (2):

حتى متى أنت تلهو   في غَفْلة، وتُمازِحْ؟
والموتُ في كلِّ يومٍ   في زندِ عيشِكَ قادِحْ

ليتبين لك أنه لا يمكن لأبي نواس أن يستغني عن الصورة في عرض بعض معانيه التي تحتاج تلك الصور لإبرازها، ومن ثَمَّ التأثير في المتلقي. وفي البيتين السابقين تتضح صورة الزهد في الدنيا من خلال الاستفهام الوارد "حتى متى أنت تلهو وتمازح؟

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

(١) الديوان، ص٤٦٤.

(٢) نفسه، ص٤٦٠.

ثم يجيب الشاعر نفسه بأن الموت مستمر يوميًّا. وقد شبَّه الموت في حياتنا بالنار التي تقدح، وهي صورة بيانية اعتمد فيها الشاعر على التشبيه.

وقوله [1]:

ألا تـأتي القبـور صـباح يـوم فتـسمع مـا تخـبرك القبـور

فـإن سـكونها حـرك تنـاجى كـأن بطـون غائبهـا ظهـور

وفيما قاله الشاعر تتضح صورة الزهد، من خلال نصيحة الشاعر بالذهاب إلى القبور في يوم ما، حينها لا بد أن تستمع إلى ما تُحدّثك به القبور. والصورة هنا مجازية، فلا القبور تُحدِّث، ولا أصحابها يتحدثون، وإنما قصد من ذلك أخذ العظة والعبرة. فالقبور يظهر لمن يراها سكونها، لكنها متحركة بأعمال أصحابها، فكأن من في بطنها ظاهر.

كذلك كانت هناك مبالغات للشاعر في صوره عيب عليها لا سيما في المدح مثل قوله في مدح هارون الرشيد [2]:

وأخفـت أهـل الـشرك حتـى أنـه لتخافـك النطـف التـي لم تُخلـق

وفي هذا المعنى يقول المرزباني: "ومالم يكن له صورة فكيف يكون له فؤاد، فقد احال وأسرف وتجاوز"[3].

وقد تعذر ابن عبد ربه لأبي نواس في هذا الغلو فقال: إن مجاز هذا قريب، إذ لحظ أن من خاف شيئاً خافه بجوارحه وسمعه وبصره ولحمه وروحه، والنطف داخلة في هذه الجملة، فهو إذا أخاف أهل الشرك أخاف النطف التي في أصلابهم[4]. والحقيقة أنها

---

(١) الديوان، ص٤٦٠.

(٢) نفسه، ص٣٠٦.

(٣) المرزباني، أبو عبدالله محمد بن عمران. (١٩٦٥م). الموشح، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة: دار نهضة مصر، ص٢٦٩.

(٤) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد. (١٩٤٠م). العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وزملائه، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج٣: ١١٧.

مبالغة مقصودة من الشاعر والتي لجأ إليها ليهز وجدان الممدوح وهو هارون الرشيد. وقد وصف أبو الفرج الأصفهاني الرشيد بقوله: " كان هارون يحتمل أن يمدح بما تمدح به الأنبياء فلا ينكر ذلك و لايرده"[1].

كما عابوا على الشاعر بعض الصور مثل قوله[2]:

أغلب أوفى على براثنه ... يفترّ عن كلح الشبا روقِ

كأنما عينيه إذا التهبت ... بارزة الجفن عين مخنوق

فقال الجاحظ: "وعابوه بقوله حين وصف عين الأسد بالجحوظ فقال: ... البيت السابق

وهم يصفون عين الأسد بالغؤور. قال الراجز:

كانما ينظر من جوف جحر"[3].

وحاول ابن رشيق الاعتذار للشاعر مترددا فقال: "ألا ترى أن أبا نواس-وهو المقدم في المحدثين- لما وصف الأسد، وليس من معارفه، ولعله ماشاهده قط إلا مرة في العمر و إن كان شاهده، دخل عليه الوهم، فجعل عينيه بارزة، وشبهها بعين المخنوق وقام عنده أن هذا أشنع وأشبه بشتامة وجه الأسد، وذهب عنه من صفة أبي زبيدة وغيره لغؤور عينيه بما هو أعلم به ممن أخذ عليه، وأكثر ظني -والله أعلم- أن أبا نواس إنما رجع بالصفة إلى الرجل المشبه بالأسد، وجعل ازورار عينيه وبروز جفنيه من علامات الغيظ والحنق على أقرانه في الحرب"[4].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣/ ١٤٤.

(٢) الديوان، ص٣٤٣.

(٣) الجاحظ، عثمان بن بحر. (١٩٤٠م). الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ج٤٥٧: ٤.

(٤) القيرواني، ابن رشيق. (١٩٦٣م) العمدة في محاسن الشعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر: مطبعة السعادة، ٢٤٠: ٢.

ونرى نحن أن أبا نواس قصد الممدوح والذي شبهه بالأسد ويدل على ذلك أمران الأول: سعة اطلاع أبي نواس في كافة العلوم فليس من المعقول أن يخفاه صورة عين الأسد فهو في قصائد الطرد دقيق في الوصف للحيوانات ملم بأوصافها والشيء الآخر: أن القراءة في القصيدة تجعلنا ندرك أن أبا نواس يوجه الخطاب للممدوح لا الأسد انظر لقوله(1):

وأنت إذ ليس للفضاء حصى غير أكف الكماة والسوقِ
وكان بالمرهفات ضربهم ضرب بني الحي بالمخاريق
أغلب أوفى على براثنه يفترّ عن كلح الشبا روقِ
كأنما عينيه إذا التهبت بارزة الجفن عين مخنوق
لما تراءه قال قائلهم قد جاءكم قابض البطاريق

فالصورة تتعلق بالممدوح لا الأسد.

وهكذا نجد أن صور أبي نواس تتميز "بالكثرة والتنوع تبعاً لتنوع المواضيع التي يطرقها والأدوات التي يستخدمها لإبرازها في حللها القشيبة، والصورة عنده لها من الخصائص والمميزات ما يجعلها تتميز عن كل ماعرف من صور في الشعر العربي"(2).

ومن خلال دراسة الصورة الفنية في شعر أبي نواس، يمكن القول بما يأتي:

١. كان للصورة الشعرية في شعر أبي نواس جذور تنبع من خمرياته، ويجد المتلقي أثرًا لذلك في كل قصائده.

٢. استند أبو نواس إلى الرمز، وما يتركه من أثر في نفسية المتلقي، فيوجد المعنى مصحوبًا بالدليل عليه؛ مما لا يدع مجالًا للمتلقي غير الاقتناع، وامتلاك المعنى من نفسيته، وذلك مثل: الكف، واللسان، والفم، ... وكلها متعلقة بالجذر النفسي في

----

(١) الديوان، ص٣٤٣.

(٢) درويش، العربي حسن، أبو نوس وقضية الحداثة، ص٢٢٧.

شخصيته، والراجع إلى الخمريات.

٣. صبغت صوره الصبغة الدينية.

٤. امتازت صور أبي نواس بالتجديد والابتكار، وإن كانت في الوقت نفسه صورًا ليست بالغريبة، وهذه معضلة لا يستطيع التغلب عليها إلا شاعر حاذق، مثل أبي نواس.

٥. بعدت جميع صور أبي نواس عن التكلف والتعقيد، فهي صور سهلة سلسلة.

٦. اعترى بعض صوره في المدح الغلو والمبالغة.

٧. تكثر الصور في البيت الواحد، ومع ذلك فهي تسير بعناق بعضها، لا تطغي إحداها على الأخرى، وكلها تدعِّم المعنى الرئيس في سلاسة واستثارة لنفسية المتلقي، حتى يتمكَّن المعنى منه.

٨. استطاع أبو نواس من خلال الصور أن يُوصّل المعنى إلى المتلقي درجة درجة لا دفعة واحدة، وهذا من خلال الصور التي تتوارد في القصيدة، وتسير خلف بعضها بعضًا، حتى ترتقي بنفسية المتلقي من درجة إلى أعلى، حتى يجد المتلقي نفسه أسيرًا للمعنى الأكبر، وهو ما يريده الشاعر، وذلك دون تعقيد أو تكلُّف.

٩. اعتمد أبو نواس في صوره التمثيلية على مبدأ المقارنة، فهو يخلق الجو للمتلقي لكي يقارن، ويبيِّن له بعض أوجه المقارنة، ويدع للمتلقي باقي أوجه المقارنة، فيجعله شريكًا له في صورته.

١٠. قلة الصور في غرض الزهد، لا يعني عدم وجودها، واستغنائه بالبديع من طباق، ومقابلة، وجناس، إنما هو لالتزام المقام لذلك، حيث إن معظم صور الزهد استدعت تلك المقابلات، ومن ثمَّ فقد أدَّت المعنى على أكمل وجه.

المبحث الثاني

الموسيقـــى

الموسيقـــــــى

موسيقى الشعر جوهر بناء لبناته وكيانه الأساسي، والتي تُميّزه إلى حدٍّ ما عن النثر، وليس المقصد من ذلك أن وظيفتها شكلية فقط، فهي: "إحدى الوسائل المرهفة التى تملكها اللغة للتعبير عن المعاني وألوانها، إضافة إلى دلائل الألفاظ والتركيب اللغوي"(١). هذا بالإضافة إلى ما تُحدثه فى الكلام من تنغيم، تلذ له الأذن، وتطرب له النفس؛ ذلك أن النغم "يُمثِّل حركات النفس واضطراب العواطف، حيث إنه ينبع من القلب، ويتجه إلى القلب، والإنسان بفطرته يميل إلى الإيقاع الذي يساير حركاته الانفعالية وأحاسيسه ومشاعره"(٢).

وعلى ذلك يمكن القول بأن الشاعر الحاذق لابد أن يحتوي شعره على:

١- إحساس مستقر.

٢- لغة سهلة عذبة.

٣- نغم يتحقَّق من مثل الوزن، والقافية، وحسن التقسيم.

٤- عاطفة وخيال.

لكن كيف يتحقَّق الوزن؟ وما معايير صحته وجودته؟

الوزن إدراك يحدث من الإحساس بتوالي أزمنة محددة، وهو مشبع بالعاطفة، والإحساس، والتجربة الشعرية. وعلى هذا النمط وهذا الوصف كان أبو نواس، فلم تكن أوزانه تصنعًا أو تكلفًا، فأنت تجد في قصائده أن المفردات والأوزان تأتي في نسق واحد، متناغمة مترابطة، لا ينفر بعضها عن بعض، فإن كانت الصورة الفنية منطلقة من جذور ومنهج واحد، فكذلك الموسيقى منطلقة من منهج واحد، وهو الطرب

(١) مندور، محمد. (١٩٧١م). الأدب وفنونه، القاهرة: مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص٢٩.

(٢) عبدالرحمن، منصور. (١٩٨٤م). معايير الحكم الجمالي فى النقد الأدبى. ط٢، القاهرة: مكتبة المعارف، ص٢٩٥.

وعدم التكلف.

ويبدو أن الذي ساعد أبا نواس على ذلك معجمه الشعري واللغوي المرن، فتجد شعره سلسًا عذبًا ينساب بسهولة، وتحفظه الألسن بسرعة، لاسيما خمرياته وغزله وزهدياته، ماعدا قصائد الطرد لديه، والتي كان يعمد فيها إلى الغريب والبدوي. أما زهدياته فتنوّعت بحورها وقوافيها.

وفي اهتمامه بالموسيقى على الجانب الطولي، لم يهمل الشاعر الجانب العرضي منها، حيث نوَّع في استخدام المحسنات البديعية التي أضافت موسيقى داخلية لجميع قصائده، وعلى ذلك يمكن القول بأن اهتمامه انصبَّ على الموسيقى بنوعيها داخلية وخارجية، والأمثلة الآتية خير شاهد على ذلك.

يقول أبو نواس[1]:

تبارك من ساس الأمور بعلمه　　　　وفضَّل هارون على الخلفاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى　　　　وما ساس دنيانا أبو الأمناء
إمام يخاف الله حتى كأنه　　　　يؤمل رؤياه صباح مساء

وها هي القافية تسير في ركاب بعضها، حيث يتحدَّث عن الخليفة هارون الرشيد. وقد بنى الشاعر قصيدته على القافية الهمزية، فجاءت في ركابها (الأمناء - مساء)، وكأن القافية تكوّن معانيَ مستقلة في ذاتها، فالخلفية هارون الرشيد أبو الأمناء في كل وقت، في الصباح والمساء، هذا بالإضافة إلى أثر الطباق المنطقي وغير المصطنع، الذي يُثير في النفس قيمة هذا الخليفة وفضائله وشمائله، التي من خلالها، ومن خلال تقواه لله؛ يأمل في رؤيته -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- في الصباح والمساء، فهو يتذكَّر الله في كل أعماله، ويجعلها خالصة له، ويخافه في كل شيء.

وتظهر قيمة الوزن والقافية في صوت القاف في قوله[1]:

----

(١) الديوان، ص٣٠٧.

ملـك تطيـب طباعـه ومزاجـه ... عـذب المـذاق عـلى فـم المتـذوق

يلقـى جميـع الأمـر وهـو مقسَم ... بـين المناسـك والعـدو الموفـق

يحميـك ممـا تستـسر بفعلـه ... ضحكات وجه لا يريبك مشرق

فكأنك تعيش في قلب الحدث، فتتلهَّف النفس لترى هذا الوجه وهذا الملك، هذا بالإضافة إلى ما تُحدثه الألفاظ الداخلية، مثل "المذاق - المتذوق" من تدعيم للقافية في دائرتها الكبرى.

ويؤدي الطباق دائمًا دوره في موسيقاه الداخلية، ويتعلَّق هذا بنفسية الشاعر التي تقوم على المقارنة دائمًا، والتي تمَّ توضيحها في المبحث الخاص بالصورة الفنية، حيث يقول في مدح الرشيد(٢):

ألفـت منادمـة الـدماء سـيوفه ... فلقلّـما تحتازهـا الأجفـان

حتـى الـذي في الـرحم لم يـك ... صورة لفؤاده من خوفه خفقان

حذر امرئ قصرت يداه على العدا ... كالـدهر فيـه شراسـة وليـان

فظهر الطباق من خلال (شراسة وليان)، تلخيصًا لصورة المقابلة العامة في القصيدة بين حالته مع الجنين، وحالته مع العدو، وهذا يجعل المتلقي في حالة ترقُّب دائم، وحالة شغف تدفعه إليها الموسيقى الداخلية في القصيدة، هذا بالإضافة إلى قافية النون، وهي موفقة هنا بطريقة كبيرة، حيث إن صوت النون مناسب للحالتين: حالة الشراسة بما يتبعها من أنين وبكاء، وحالة الرفق بما يتبعها من خفقان وحركة للأجفان النشوى.

ومثله قوله(٣):

سـكن يبقـى لـه سـكن ... مـا لهـذا يـؤذن الـزمن

----

(١) الديوان، ص٣٠٦.

(٢) نفسه، ص٣٠٩.

(٣) نفسه، ص٤٦١.

نحـــــن في دار يخبرنـــــا ببلاهـــــا نـــــاطق لحـــــن
دار ســـــوء لم يـــــدم فـــــرح لامـــــرئ فيهـــــا ولا حـــــزن
كـــــل حـــــيَّ عنـــــد ميتتـــــه حظـــــه مـــــن مالـــــه الكفـــــن

فحرف النون يناسب الأنين والبكاء، وينقل تجربته الشعرية وعاطفته الشجية بصورة واضحة وظاهرة، تجعل المتلقي يسير في ركابه.

وبجوار الطباق فإن الجناس الناقص يؤدي دوره في موسيقى الشاعر، حيث يقول(1):

مـــــا ارْتَـــــدْ طَـــــرْفُ محمّـــــدٍ إلاّ أتـــــى ضرًّا ونَفْعَـــــا
قـــــاد النّـــــدى بعِنانـــــهِ، وتـــــسرْبل المعـــــرُوفَ دِرْعـــــا
لمـــــا اعتمـــــدتُ عـــــلى نَـــــدا ك أريتَنـــــي وِتْـــــرًا وشـــــفْعًا
فعـــــصَا نـــــداهُ براحتـــــي أعلـــــو بهـــــا الإفـــــلاسَ قرْعـــــا

انظر للفظي: (درعا- قرعا) فتجد أن هناك إيقاعًا صوتيًّا، جعل الندى متجسدًا في شخص يراه المتلقي، ومن ثم يمتلك المعنى نفسيته بصورة كبيرة، وهو ما يبغيه الشاعر من قصيدته، هذا بالإضافة إلى قافية العين التي تُشعرك بالصوت والحركة والقوة، وكل هذا يُدعّم المعنى العام الذي يريده الشاعر من كرم ممدوحه وجوده الخارق للعادة.

ومثل ذلك أيضًا قوله في مدح العباس بن الفضل(2):

يـــداه كـــاللأرض والـــسماء، فـــما تـــنقص قطريـــه كـــف مخلـــوق
فـــإن يكـــن مـــن ســـواه شي فمنـــ ـــه، وهـــو في ذاك غـــير مـــسبوق
فكـــم تـــرى مـــن مجـــوّد أظهـــر العبـــا س منـــــه طبـــــاع مـــــستوق

---

(1) الديوان، ص315و316.

(2) نفسه، ص342.

فالطباق في (الأرض والسماء)، والجناس الناقص في (مسبوق- مستوق)، يدعمان النظرة الفلسفية المنهجية عند أبي نواس، من ميله لذكر الشيء، وتضمين الكلام نقيضه، ومن ثم يستفز نفسية المتلقى، فيحظى منها الشاعر بما يريد.

ونراه أيضًا في هذا البيت يطابق مسجعًا بين كلمتي "أحياؤها وأمواتها"، حيث يقول[1]:

أمـــــا يتفكـــــر أحياؤهـــــا فيعتـــــــبرون بأمواتهـــــــا

إن الحياة فانية والموت آتٍ لا محالة؛ لذا كان من الواجب على كل حيٍّ الاعتبار بالأموات. وهذا الإيقاع الصوتي يُحقِّق المعنى المراد بنغمته الصادقة، وموسيقاه الشجية الهادئة.

لقد جاء هذا الطباق عفويًّا طبيعيًّا استدعاه هذا الاستفهام، الذي خرج من معناه ليفيد التعجب، والذي سيطر على الشاعر لحظتها، ومن ثمَّ فقد أسهم في عرض الصورة بشكل مؤثر وفاعل.

إن توظيف الموسيقى عند أبي نواس لا يعيبه التكرار، الذي يأخذه النقاد على الشعراء، والأبيات الآتية خير شاهد على ذلك، حيث يقول[2]:

لـــــئن ســـــميت عباسًـــــا فـــــما أنـــــت بعبـــــاس

لـــــدى الجـــــود، ولكنـــــك عبـــــاس لـــــدى البـــــاس

وبالفـــــضل لـــــك الفـــــضل أبالفـــــضل عـــــلى النـــــاس

فقد كرَّر الشاعر كلمة عباس في بيتين ثلاث مرات، لكن التوظيف هنا هو الحَكَم، فالتكرار ليس تكرارًا معيبًا، لكنه وُظِّف ليضفي على المعنى دلالات كثيرة، ومثله تكرار كلمة الفضل، وتوظيفها موسيقيًّا من خلال الجناس التام.

----

(١) الديوان، ص٤٥٨.

(٢) نفسه، ص٣٥١.

وتتجلي قيمة الطباق والجناس بصورة كبرى في قوله(١):

أنـــا في دُنْيـــا مـــن العبّـــ ـــــــاسِ أغْـــــــدُو وأروحُ
هاشِـــــــميّ، عبــــــدَليّ، عنــــــده يغلـــو المــــديحُ
علَـــمُ الجــــودِ، كِتـــابٌ بـــــينَ عينيــــهِ يلـــــوحُ
كـــلّ جـــودٍ يـــا أمـــيري، مـــا خَـــلا جُـــودَكَ، ريـــحُ
إنّـــــما أنـــــت عطايـــــا أبَـــــدًا لا تَـــــسْتريحُ
بُـــحَّ صـــوتُ المـــالِ ممّـــا منْـــكَ يـــشْكُو، ويـــصيحُ
مـــا لهـــذا آخِـــذٌ فـــو قَ يديـــــهِ أو نـــــصيحُ
جُـــدْتَ بـــالأموالِ، حتـــى قيـــلَ مـــا هـــذا صـــحيحُ
صُـــــوّرَ الجـــودُ مِثـــالًا، فلـــــهُ العبّـــــاسُ روحُ
فهْـــو بالمـــالِ جَـــوادٌ، وهْـــوَ بـــالعِرْضِ شَـــحيحُ

وتظهر قافية النون مرة أخرى مكونة الموسيقى الخارجية في قوله(٢):

يُجَـلُّ عَـن التّـشْبيهِ جُـودُ مُحمّـدٍ إذا مَرِحَـــتْ كَفّـــاهُ بـــالهَطلانِ
يُغِبّـكَ مَعْـروفُ الـسّماءِ وكَفُّـهُ تَجـودُ بـسحّ العُـرْفِ كـلَّ أوانِ

فكأنك تسمع صوت الهطلان للندى، وتعيشه كما يعيشه الشاعر.

وتظهر قافية الراء موظفة توظيفًا كبيرًا، مُشكلة الموسيقى الخارجية للنص في قوله(٣):

أيـــا أمـــينَ اللهِ مـــنْ للنّـــدَى، وعِصْمةِ الضَّعْفَى، وفَكِّ الأسِيرْ

----

(١) الديوان، ص٣٣٠.

(٢) نفسه، ص٣٥٥.

(٣) نفسه، ص٤٣٧ و ٤٣٨.

خلّفْتَنَا بعْدَكَ نبْكي عَلى دُنْياكَ والدّينِ بدمْعٍ غزيرْ

يا وَحْشَتَا بعْدَك! ماذا بنَا أحلّ من ضَنكٍ صُروفَ الدهورْ

لا خيرَ للأحْياءِ في عيشِهِمْ بعدَك، والزّلْفَى لأهلِ القُبورْ

وقد أوقف صوت الراء المتلقي على تكرار الندى، وتكرار الصد لنوائب الدهر، والذي سوف يتوقف، بل ينعدم بموت هذا الممدوح. ويظلُّ التكرار للدمع والبكاء بتذكُّر كثرة أعمال هذا الممدوح التي ستتأثر كثيرًا بموته.

ويظهر صوت الباء بدلالته على السكون والترقب في قوله(١):

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعةً وأن ما يخفى عليك يغيب

لهونا بعمر طال حتى ترادفت ذنوب على آثارهن ذنوب

وهذا يجعل المتلقي في حالة هدوء وترقُّب تشبه حالة خروج هذا الصوت من مخرجه.

وتأتي قافية الألف مناسبة للتفجُّع والهول، بما يصنعه في المخرج الصوتي من مسافة كبيرة مناسبة لمن يفقد أحاسيسه، ولا يسيطر عليها عقله؛ من هول المصيبة والكارثة، حيث يقول(٢):

كُلُّ ناعٍ فَسَيُنعى كُلُّ باكٍ فَسَيُبكى

كُلُّ مَذخورٍ سَيَفنى كُلُّ مَذكورٍ سَيُنسى

لَيسَ غَيرَ اللهِ يَبقى مَن عَلا فَاللهُ أَعلى

إِنَّ شَيئًا قَد كُفينا هُ لَهُ نَسعى وَنَشقى

---

(١) الديوان، ص٤٦١.

(٢) نفسه، ص٤٦٢ و٤٦٣.

إنَّ لِلــــــــشَرِّ وَلِلخَيـــــــــ   ـــــرِ لَـــسيمًا لَـــيسَ تَخفــــى

كُـــــلُّ مُـــــستَخفٍ بِـــسِرٍّ   فَمِـــــــــنَ اللهَ بِمَـــــــرأى

لا تَـــرى شَـــيئًا عَـــلى الـــلَـ   ـهِ مِـــــنَ الأَشـــــياءِ يَخفــــى

فكأنه يريد أن ينادي ويسمع كل من في الكون، فاختار قافية الألف، حيث إنها مناسبة لعاطفته وإحساسه هذا، هذا بالإضافة إلى فلسفته العامة في المقارنة، والتي يُحقّقها موسيقيًّا من خلال الطباق في قوله: (يفنى- يبقى- الشر- الخير).

وهو وإن اختار هذه القافية التي تساعده على علو الصوت، فقد اختار قافية الميم، لتفصح عما في نفسيته من صدمة كبيرة، تجعله لا يستطيع أن يخرج الكلام، حيث فقد الثقة في كل شيء، إذ يقول(1):

أرى الإخـوان في هجـر أقـاموا   وخـان الخـل وافتقـد الـذمام

وودعنـي الـصبا وعريـت منـه   كـما مـن غمـده خـرج الحـسام

فـصرت ملازمًـا لـذناب عـيش   تـضمنه اعوجـاج وانهـدام

لقَد فَقَدَ الشاعر كل شيء؛ لدرجة أن الكلام يعجز أن يُعبّر عمَّا في صدره من جرح وحسرة. ويعدُّ صوت الميم، بما يمتاز به من وقوف الهواء عند الشفتين قافيةً موفقة، للتعبير عن هذا المعنى المؤلم الحزين.

ونلمس افتقادًا لفلسفة المقارنة التي اعتاد عليها أبو نواس في هذه المقطوعة، حيث إنه لا يريد أن يتأرجح المتلقي بين حالتين، فلا يقف الاختيار عند المتلقي، بل إنه يفرض هذه الحالة على المتلقي إجبارًا كما فُرضت عليه إجبارًا، نتيجة الغدر والخيانة.

ويظهر الجناس في قوله أيضًا(2):

عليـك باليـأس مـن النـاس   إِنَّ الغِنَـى وَيْحَـكَ في اليـاس

---

(1) الديوان، ص٤٥١.

(2) نفسه، ص٤٥٤.

وفي نهاية هذا المبحث، يمكن القول بأن أبا نواس اهتم بالموسيقى الخارجية والداخلية في جميع قصائده، وكان اختياره لقوافيه موفقًا، حيث اختار صوت الألف، بما يوفّره من مساحة لعلو الصوت عند إرادته أن يسمع العالم كله، وهو ما أفصحت عنه القافية، دون أن يكون مذكورًا لفظًا. كما أنه اختار قافية الميم عند بيان الصدمة والفجع، واختار قافية الراء لبيان التكرار، وهكذا.

وقد انطلق من فلسفة المقارنة عنده في الموسيقى، فكان يحرص على الطباق والمقابلة، لكي يُحقِّق الموسيقى والنغم، ويجعل المتلقي في حالة استثارة يستطيع من خلالها أن يأسر نفسه، ويتمكَّن منها، وكل هذا دون أدنى تكلُّف أو صنعة.

وقد كشف كل هذا عن براعة أبى نواس المختلفة في تكوين الهيكل النغمي لقصائده. كما أن هناك تناسبًا وارتباطًا بين الموسيقى والغرض المطروح دون تكلُّف أو لي لعنق الكلمات، وكل هذا نتيجة معجمه اللغوي الثري، وقدراته الفنية الكبيرة.

المبحث الثالث

المعجـــم الشعـــري

المعجــم الشعـــري

يعد المعجم الشعري "المادة الأولى في بناء القصيدة الشعرية"[1]. وهو يهتم بدراسة الألفاظ، وبيان دلالالتها، فلكل موضوع ألفاظه الخاصة التي تتناسب معه. فالمعجم هو القاموس اللغوي للشاعر، يتكون من خلال بيئته وطبيعة حياته التي عاشها.

وبعد قراءتنا لحياة الشاعر الثقافية، والدينية، والاجتماعية في الفصل الأول، تكونت لدينا فكرة عن موسوعية الشاعر المعرفية، والتي ساهمت في إمداد لغته بكم هائل من الألفاظ والمعاني المبتكره والمستقاة أيضا من علوم أخرى، درسها الشاعر وأتقنها، وقبل حديثنا عن تأثير الثقافات الأخرى فيه يجدر بنا الحديث عن العامل الأكثر تأثيرا في معجمه الشعري، وهو العامل الديني متمثلا بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. فظهرت اقتباسات مباشرة من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في أشعاره، فكثرت الألفاظ المتأثره بألفاظ القرآن ومعانيه، والتي رددها كثيرا في قصائد الزهد لديه، وهي الألفاظ التي تعبر عن انفعالاته لحظات إفاقته وإدراكه حقيقة الدنيا وقدر معاصيه، وإفراطه في حياته، ثم رجائه المغفرة، وخوفه من الموت، والحساب، وعذاب القبر، وترديده لمعاني العفو، والخوف، والرجاء، والندم. كما ظهرت تلك الألفاظ الدينية في جميع أغراض شعره حتى في خمرياته وغزله:

انظر لقوله متغزلا [2]:

ولــدت في حبــك يــامنيتي   بِطــالع لــيس بمعطــاءِ
هــذا وريحــي مــنكم صرصرٌ   تُجِــفُّ دوني كــل خــضراءِ

يردد في غزله عبارات دينية تدل على تأثير تلك العلوم التي تلقاها في أول حياته،

---

(١) الرباعي، عبدالقادر. (١٩٩٩م). الصورة الفنية في شعر أبي تمام، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص٢٤١.

(٢) الديوان، ص١٨٩.

فأثرت عليه بشكل وبآخر، وظهرت في أشعاره.

وانظر في قوله مادحاً [(١)]:

حج وغزوٌ مات بينهما الكرى ... باليعملات شعارها الوخدان
يرمي بهن نياط كل تنوفةٍ ... في الله رحال بها، ضعان
حتى إذا واجهنا إقبال الصفا ... حنَّ الحطيم، وأطّت الأركان

نلاحظ في هذه الأبيات زخم من الألفاظ التي تشي بمحتواها الديني البحت "الحج والغزو الصفا والحطيم"، وهي تدل على شعيرة الحج.

ثم انظر إلى قوله [(٢)]:

إني حلفت عليك جهد أليةٍ ... قسماً بكل مقصّرٍ ومحلّقِ

قسمه بالمقصر والمحلق هو معنى وارد في قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [(٣)].

ثم قارن بين قوله [(٤)]:

سبحان من خلق الخلق ... من ضعيف مهين
يسوقه من قرار ... إلى قرار مكين
في الحجب شيئا فشيئا ... يحور دون العيون
حتى بدت حركات ... مخلوقة من سكون

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ

---

(١) الديوان، ص٣٠٩.

(٢) نفسه، ص٣٠٦.

(٣) الفتح: ٢٧.

(٤) الديوان، ص٤٦٤.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (١).

وقوله واصفا الدنيا (٢):

ولا يغُرَّنْــــكَ دنيـــــا، نعيمهـــا عنـــك نـــازحْ

وقــول الله تعــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ (٣)،

ثم تجده في هذه المقطوعة يقول (٤):

إنّ للمــــوتِ أخـــذةً تــسبقُ اللمــحَ بالبــصرْ
فكأنــــي بكـــم غـــداً في ثيـــابٍ مِـــنَ المَـــدَرْ
قـــد نُقلتـــم مـــن القـــصو رِ إلـــى ظلمـــةِ الحُفَـــرْ
حيـــثُ لا تُـــضربُ القبـــا بُ عليكـــم، ولا الحُجَـــرْ

وهذا المعنى استقاه الشاعر من قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (٥).

ثم يعود ليقتبس من قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ (٦).

---

(١) المؤمنون: ١٢-١٤.
(٢) الديوان، ص٤٦٠.
(٣) فاطر: ٥.
(٤) الديوان، ص٤٥٩.
(٥) النساء: ٧٨.
(٦) الرحمن: ٢٦.

قوله [1]:

لـــــيس غـــــير الله يبقـــــى   مـــــن عـــــلا فــــالله أعــــلى

ويقول[2]:

ولا تحـــسبن الله يغفـــل ســـاعةً   ولا أن مـــايخفى عليـــك يغيـــب

معتمـــداً في هـــذا عـــلى قولـــه تعـــالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3].

ونحو قوله:

إن للمـــــــوت أخـــــــذة   تـــسبق اللمـــــح بالبـــــصر

وهـــي التفاتـــة منـــه إلى قـــول الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ ﴾[4].

ثم انظر لهذه المناجاة في قوله[5]:

يـا رب إن عظمـت ذنـوبي كثـرة   فلقـد عـلمت بـأن عفـوك أعظـم

إن كـــان لا يرجـــوك إلا محـــسن   فـبمن يـلوذ ويـستجير المجـرم

أدعوك يـا ربي كـما أمـرت تـضرعاً   فـإذا رددت يـداي فمـن ذا يـرحم

مـــالي إليـك وسيلـــة إلا الرضـــا   وجـــميل عـــفوك ثـم أني مـسلم

تجـد هـذه الألفـاظ "الـذنب، العفـو، الرجـاء، الإحـسان، الاسـتجارة، الـدعاء،

---

(١) الديوان، ص٤٦٢.

(٢) نفسه، ص٤٦١.

(٣) إبراهيم: ٤٢.

(٤) القمر: ٥٠.

(٥) الديوان، ص٤٦٤.

التضرع، الرحمة، الرضا، العفو، الإسلام" هذه الكلمات أتت في سياق متناغم معنى ومبنى، وأدت الفكرة في صورة إسلامية مختصرة، والمتأمل للألفاظ السابقة يجد أنها تكون معجمًا خاصًا بالألفاظ الدينية. وهي ألفاظ مستوحاة من القرآن، وقد أشار شوقي ضيف إلى هذا المعنى في قوله "أمتنا العربية ذات تراث واحد روحي وعقلي وأدبي، ونور تراثها الروحي الباهر القرآن الكريم المعجزة"(١).

وعلى صعيد آخر كان هناك تأثر واضح لدى الشاعر بالثقافات التي عاصرها، ودرس شيئا منها، لا سيما الفارسية، واليونانية، والهندية، وظهر هذا التأثير في بعض ألفاظه ومعانيه. كما ظهر تأثره بعلم الكلام في بعض أشعاره، لكن في الحقيقة أن أثر هذه الثقافات كان واضحا في شعره الخمري، كما في غزله وطردياته إلا أن مدائحه ومراثيه كذلك عتابه وزهدياته ظلت حافلة بالمعجم الديني أكثر من غيره. كذلك حوى على معجم للمفردات السائدة في الحياة اليومية في عصرهم العباسي، وهذا لا يعني خلو تلك الأغراض من تأثير تلك الثقافات؛ لأنه من الصعب أن ينظم الشاعر بعيدا عن مخزونه العلمي والثقافي المختزل في عقله.

انظر لقوله في إحدى قصائد المدح لديه (٢):

مضى أيلول، وارتفع الحرور   وأخبت نارها الشعرى العبور

وأيلول هو شهر بالرومية، كذلك الشعرى هو نجم مشهور.

وأيضا في مدحة أخرى يقول(٣):

وجنة لقبت المنتهى   ثم اسمها في العجم جلاّرُ

سنّم في جنات عدنٍ لها   من قضب العقيان أنهارُ

---

(١) ضيف، شوقي. (د. ت). في التراث والشعر واللغة، القاهرة: دار المعارف، ص١١.

(٢) الديوان، ص٣٤٥.

(٣) نفسه، ص٣٣٧.

وهنا تمتزج تلك الثقافات لتنتج مثل هذه الأبيات وجلاّر اسم الجنة في الفارسية، وسنَم من التسنيم وهو أحسن شراب أهل الجنة قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾[1].

من خلال قراءة الفصل الثاني تبين لنا معجم شعري خاص بالقيم الإسلامية التي وردت فيه، ففي المدح وردت معانٍ شعرية هي: العدل، والكرم، والشجاعة، والصدق، وحسن الخلق، والتقوى، والعفو، والندم، والاعتذار، والجود، والعفة، والدفاع عن الدين، والفتك بأعداء الدين، والرحمة، والحلم، والإجارة، وهي معانٍ تدل على قيم إسلامية وعربية أصيلة، وقد وردت في شعر أبي نواس متناثرة، وفي الرثاء ظهرت معانٍ شعرية هي: الصدق، والكرم، والجود، وحسن الخلق، وفضل العلم، أما الزهد فقد جاءت فيه معانٍ شعرية هي: المناجاة، والندم، والتقوى، وإعمال العقل بالتفكر، والتدبر، وتذكر الآخرة، والحساب، و الندم، واغتنام الوقت، والتواضع، وفي العتاب ظهرت المعاني الآتية: الأخوة، والصداقة، وذم البخل وأخيرا يمكن القول بأن أبا نواس كان متطورًا في فكره موسوعيًا في ثقافته، وقد ظهر ذلك جيدا على معجمه الشعري.

---

(١) المطففين: ٢٧.

المبحث الرابع

اللغــة الشعريــــة

اللغـــة الشعريــــــة

غني عن البيان أن الشعر ظاهرة لغوية في وجودها، ولا سبيل إلى التأتي إليها إلا من جهة اللغة التي تتمثل بها عبقرية الإنسان، وتقوم بها ماهية الشعر[1].

وأبو نواس ظاهرة لغوية منفردة قال عنه الجاحظ: "ما رأيت رجلاً أعلم باللغة من أبي نواس، وأفصح لهجة مع مجانبة الاستكراه"[2].

وقد تفاوتت لغة أبي نواس الشعرية بين المتانة والجزالة، وقوة الجرس، وهذا النمط غلب على القصائد التقليدية في بعض مدائحه ومرثياته.

انظر لمرثيته في أبي البيداء:

التي يقول فيها[3]:

زارَ الحِمامُ أبا البَيداءِ مُخْتَرِماً، ولم يُغادِرْ لهُ في النّاسِ مِطرَاقَا
وَيْلُمّهِ صِلُّ أصْلالٍ، إذا جَفَلُوا يرَوْنَ كلّ مُعَيّ القَوْلِ مِغْلاقَا

وفي مدحه للعباس بن عبيد الله قائلا[4]:

أيها المنتاب عن عفرة لست من ليلي، ولا سمرِه
لا أذود الطيرَ عن شجرٍ قد بلوت المُرّ من ثمرِه

---

(١) عبدالبديع، لطفي. (١٩٧٠م). التركيب اللغوي للأدب، ط١، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص٥.

(٢) جرى ذكره في الفصل الأول، ص٣٥.

(٣) الديوان، ص٤٣٢.

(٤) نفسه، ص٣٢٤.

إلى أن يقول[1]:

ثـــم أدنـــاني إلى ملـــكٍ   يـــأمن الجـــاني لـــدى حُجـــرِهِ
تأخـــذ الأيـــدي مظالمهـــا   ثـــم تـــستذري إلى عُـــصرِه

وهي كما ترى قصائد تغلب عليها جزالة الألفاظ، وفخامة العبارات التي اقتضتها ظروف عصره. ففي مدائحه اتخذ الأسلوب الرصين المتمثل في الألفاظ القوية، والأسلوب القديم؛ وذلك لأنه يخاطب طبقة خاصة من الخلفاء والأمراء والقادة. كما اضطر إلى مجاراة شعراء عصره، وإبراز مقدرته اللغوية في مراثيه ومدائحه وطردياته.

كما كان هناك نمط من قصائده يمتاز بالسهولة والخفة

مثل قوله في مدح الأمين [2]:

وجيـــه محمـــد شـــمس   وملـــك محمـــد عـــرس
وكفّـــاه تجـــودان   بـــما لا تأمـــل الـــنفس
فـــما في جـــوده مـــنّ   ولا في بذلـــه حـــبس
شـــهيداي عـــلى مـــا قلـــت   فيـــه الجـــن والإنـــس

وقوله[3] في الزهد:

المـــوتُ منـــا قريـــب   ولـــيس عنـــا بنـــازح
في كـــلِّ يـــومِ نعِـــيٌّ،   تـــصيحُ منـــه الـــصَّوائحْ
شْـــجى القلـــوبَ، وتبكـــي   موَلْـــوِلاتُ النَّـــوائحْ
حتـــى متـــى أنـــت تلهـــو   في غَفْلـــة، وتُمـــازِحْ ؟
والمـــوتُ في كـــلِّ يـــومِ   في زنـــدِ عيـــشِكَ قـــادِحْ

---

(١) الديوان، ص٣٢٧.
(٢) نفسه، ص٣٢٤و٣٢٥.
(٣) نفسه، ص٤٦٠.

تجد أن لغتها سهلة خفيفة لا تحتاج إلى معاجم ولا مقدرة لغوية لبيان معاني مفرداتها.

كذلك هناك نمط آخر من أشعاره يجمع بين المتانة في الأسلوب، والسهولة في الألفاظ، وهذا كثير في شعره لا سيما زهدياته.

انظر لقوله(١):

شعر ميت أتاك في لفظ حي ... صار بين الحياة والموت وقفا
انحلت جسمه الحوادث حتى ... كاد عن أعين الحوادث يخفى

وقوله(٢):

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير المجرم

وقوله يمدح الرشيد (٣):

هَذا أَميرُ المُؤمِنينَ اِنتاشَني ... وَالنَفسُ بَينَ مُحَنجَرٍ وَمُخَنَّقِ
فَاِقذِف بِرَحلِكَ في جَنابِ خَليفَةٍ ... سَبّاقِ غاياتٍ بِها لَم يُسبَقِ
نَفسي فِداؤكَ يَومَ وابِقَ مُنعَماً ... لَولا عَواطِفُ حِلمِهِ لَم أَطلَقِ
حرَّمتَ مِن لَحمي عَلَيكَ مُحَلَّلاً ... وَجَمَعتَ مِن شَتّى إِلى مُتَفَرِّقِ

وانظر إلى قوله مادحاً أيضاً (٤):

ما من يد في الناس واحدة ... كيد أبو العباس مولاها

---

(١) الديوان، ص٤٣٧.

(٢) نفسه، ص٤٦٤.

(٣) نفسه، ص٣٠٥.

(٤) نفسه، ص٣٤٨.

نام الكرام على مضاجعهم　　وسرى إلى نفسي فأحياها
قد كنت خفتك ثم أمنني　　من أن أخافك خوفك الله
فعفوت عني عفو مقتدر　　حلّت له نعم فألغاها

نجد أن هذه المجموعة من الأبيات قد جمعت بين متانة الأسلوب، وفصاحة اللفظ، وهي مع ذلك سهلة لا وحشي فيها ولاغريب، فالألفاظ سلسة عذبة، ومعانيها طريفة بليغة. وقد اعتمد فيها على المزج بين الألفاظ القديمة وألفاظ عصره.

ويقول مصطفى الشكعه في هذا الشأن: "وإذا كان أبو نواس يرق ويصفو في مدائحه حينا، ويغرب ويخشن في مدائح أخرى حينا آخر، فإن مرد ذلك كان يعود إلى طبيعة الممدوح الذي يكون حيناً ملكاً، أو أميراً، وحيناً آخر قائداً أو وزيراً، وحيناً ثالثاً حضرياً ساكن مدينة، وتارة رابعة بدوياً ساكناً أطراف، ولقد فعل الشعراء السابقون نفس الشيء، بحيث يختلف أسلوب المدح، ولغته، ومعانيه، وطرائقه عن الشاعر الواحد باختلاف المناسبة"(١).

وقد كان أبو نواس من الشعراء الصادقين في وصف مشاعرهم في قصائدهم، بالتالي فقد كان يؤمن بضرورة المواءمة بين اللفظ والمعنى، وما يمكن أن يفعله ذلك في نفس المتلقي.

لذا نجده يحسن اختيار الألفاظ التي تعبر عن معانيه، وقد ساعده على ذلك اطلاعه باللغة التي كانت غنية بالاشتقاقات والمترادفات على الاستفادة منها بشكل واسع في قصائده. وقد حاول أبو نواس أن يربط بين الشعر والواقع الذي يعيشه، لذا فقد جاءت قصائده مستوحاة من روح عصره، وهنا مكمن التجديد، فهو يؤمن بالحرية في الحياة والشعر يقول العشماوي في هذا الصدد: "إن أبا نواس يمثل وربما لأول مرة في شعرنا العربي ظاهرة جديدة في عملية الإبداع الفني، وهي أزمة الفنان الذي يجب أن يظل في

---

(١) الشكعة، مصطفى. (١٩٧٩م). الشعر والشعراء في العصر العباسي. بيروت: دار العلم للملايين، ص٣٠٣،٣٠٢.

قلب المعاناة حتى يظل الخلاّق"[(١)]. وإن وجدناه قلّد في بعض قصائده مضطرًا، وبدا التكلف فيها واضحًا، كما احتوت على الكثير من المبالغات، لاسيما في بعض مدائحه ومراثيه - كما ذكرنا فيما سبق- إلا أننا وجدنا مع ذلك صورًا جديدة في بعض قصائد المدح لديه، وقد أبدع فيها. أما في خمرياته وغزله وعتابه وزهدياته فكان حرًا في اختيار ألفاظه وتراكيبه، لأنها كانت صادرة من وجدانه وروحه.

انظر لقوله يمدح الخصيب [(٢)]:

فما جازه الجود ولا حل دونه ... ولكن يسير الجود حيث يسير
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا ... فأيّ فتىً بعد الخصيب تزور
فتى يشتري حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدور

وهي من محاسن معانيه الجياد، فلا ترى تنافرا بين ألفاظه ومعانيه، فقد وضع كل كلمة في موضعها المناسب فجاءت الأبيات متناغمة متناسقة.

ثم انظر إلى هذا المعنى اللطيف المتجددّ، وهو يصف موت جسده، عضوا عضواً[(٣)]:

شاع في الفناء عُلواً وسفلاً ... وأراني أموت عضوا فعضوا
ليس من ساعةٍ مضت لي إلا ... نقصتني بمرّها بي جزوا
ذهبت جِدتي بطاعة نفسي ... وتذكرت طاعة الله نِضوا[(٤)]

فهو يصف حالته وصفا دقيقًا بمعنى مبتكر وألفاظ معبرة.

---

(١) العشماوي، محمد زكي. (١٩٨١م). موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي. د. ط، القاهرة: دار النهضة العربية، ص١٩٠.

(٢) الديوان، ص٣٦٤.

(٣) نفسه، ص٤٣٦، ٤٣٧.

(٤) نضوا: هزيلا مريضًا، الديوان، ص٤٣٧.

إن لأبي نواس مقدرة فنية رائعة جعلته يستخدم شتى الألفاظ والأساليب التي تتواءم وأغراض شعره. وقد اضطرته الحاجة للخروج عن ما امتاز به من حرية وصدق في التعبير، فجاءت بعض قصائده متكلفة ينقصها الصدق، وحرارة العاطفة،إلا أنه لم يسمح لنفسه التي تتوق للحرية إلا الإبداع والخروج عمّا رسمه له الأولون فجدد وابتكر مع صدق في العاطفة، وسلاسة في النظم فلم تكن تلك القصائد التي خرجت من وجدانه تعاني من الصنعة الفنية بأي شكل من الأشكال، ولذلك عُدَّ شاعرًا مطبوعًا.

الخاتمـــة

الخاتمـــة

الحمد لله الذي أعانني على إنهاء البحث، هـذا البحـث الـذي جـاء موافقـاً لميـولي و اتجاهي، وكان له أثر علي أثناء كتابته وبعد الانتهاء منه، فاستفدت من الحديث عـن القـيم الإسلامية التي تربي النفس على الفضائل والأخلاق، لاسيما إذ صـدرت مـن شـاعر مجيـد أتقن فنون العربية كأبي نواس.

وقد شملت الدراسة على نتائج عدة أهمها:

* أن أبا نواس شاعر حظـي بالنقـد والدراسـة أثنـاء حياتـه وبعـد مماتـه، واختلفـت الدراسات التي تناولته في مناهجها ونتائجها.

* لم يكن أبو نواس زنديقاً كما أشيع عنه في بعض الأخبـار، ولـه أشـعار كثـيرة تـدل على صحة عقيدته وإسلامه، وهي منتشرة في الديوان.

* أن هذا الـشاعر تـردد في تطبيـق مـا دعـا إليـه في أشـعاره مـن قـيم إسـلامية، إذ إن بعـض القـيم وردت في شـعره لوجـوب استحـضارها في ذات الموقـف لاسـيما في غـرضيّ المدح والرثاء، والذي استلزم المدح بمجموعـة مـن القـيم الأخلاقيـة التـي كانـت تـشكل المثل العليا التي يجب أن تتـوفر في الخليفـة، والأمـير، والـوزير، ومـن شـاكلهم، فجـاءت بعض أشعاره في المدح والرثاء متكلفة تقليدية ؛ وذلك لأنه جـرى عـلى مـوال معاصريـه، ومـن سـبقوه في مـدائحهم، وإن جـاءت بعـض مقـدمات مدائحـه مختلفـة عـن الـسياق التقليدي للمقدمات الطللية إلا أن القيم هي ذاتها تتكرر بذات الأسلوب والمعنى.

* أن بعض القيم الإسلامية التي وردت في شعره صدرت عن حاجة شخـصية تتعلـق بحياة الشاعر آنذاك كقيم العفـو، والكـرم، والحلـم، والـذي تـسبب في اسـتجداء الـشاعر ممدوحيه بتلك القيم هي رغبته في الخلاص من العقاب أو السجن لاسـيما وهـو شخـصية مشاكسة تخرج عن الحدود التي رسمها الشرع في سلوكه وأشعاره، أو رغبة منـه في العطايـا التي تغطي حاجته المستمرة للخمر، وتكفل له حياة سعيدة في ظل أصدقائه وندمائه.

* أن شعر الزهد والعتاب لدى أبي نواس يغلب عليه طابع المقطوعات وليس القصائد، وذلك للظروف النفسية التي عاشها الشاعر أثناء نظم تلك المقطوعات، ولطبيعة الموضوع التي اقتضت الإيجاز والتركيز وعدم الإطالة، ثم إنها كانت موجهه للطبقة العامة من الناس، وهذا اقتضى أيضاً أن تكون سهلة بسيطة في تراكيبها، عميقة في محتواها.

* قلة الصور في قيم الزهد لدى الشاعر مقابل كثرة الصور في الأغراض الأخرى لا يعني عدم وجودها. إنما استغنى عن ذلك الشاعر بالبديع من طباق، ومقابلة، وجناس، لاستدعاء المقام ذلك، حيث إن معظم صور الزهد اقتضت تلك المقابلات، وبالتالي فقد أدت المعنى على أكمل وجه.

* أكثر القيم الواردة في شعر أبي نواس هي صدى لتلك الفضائل والأخلاق الإسلامية التي حاول الشاعر في داخله الالتزام بها، وعجز عن ذلك، لضعف في نفسه وإيمانه، واعتماده على جانب كبير من عفو الله أخطأ الشاعر في تقديره. لذلك لا يعني عدم تطبيق الشاعر لبعض القيم التي وردت في شعره عدم اقتناعه بها، إنما كان لطبيعة شخصيته وحياته أثر في جعله يعيش فترات من اللهو في الحياة والانغماس في الملذات تخللتها نوبات صحو وفترات إفاقة جعلته يردد ما كان يدور في وجدانه، وخلجات نفسه المتمردة لاسيما في زهدياته، والتي غلب عليها صدق العاطفة لذا تعتبر تلك الأشعار التي صدرت أثناء إفاقته دليلاً على ضعف اقتناعه بتلك المهاترات الماجنة في أشعاره، وإلا لكان تصدَّرَ موقفاً واحداً في حياته العابثة إلا أنه فضل أن يعود للحقيقة وإن خالفت سلوكه في حياته.

* برزت بعض الخصائص الفنية المشتركة في شعره لاسيما في غرض الزهد، حيث جاء على شكل مقطوعات قصيرة، وكانت ألفاظه سهلة، وتراكيبه بسيطة. مع استخدام أساليب النداء، والاستفهام، والتعجب، والتكرار، كما اعتمد فيها على الطباق والمقابلة التي اقتضتها طبيعة موضوعات الزهد التي تقوم على المقارنة أحياناً. أما فيما عدا ذلك من أغراض فقد كانت أساليبه على ثلاث طرق، طريقة سلك فيها مسلك القدماء

من متانة اللفظ وفخامة العبارة، وقوة الجرس، وطريقة سلك فيها مسلك السهولة والخفة في الجرس، وطريقة جمع فيها بين المتانة في الأسلوب والسهولة في اللفظ.

* استخدم الشاعر أساليب البيان المختلفة في أغراضه لرسم الصورة الشعرية، فجاءت صوره حية متحركة.

* أن الجانب النفعي للشعر لا يعني بالضرورة الترغيب والترهيب والطرق على أنغام الموت لإفاقة العقل والوجدان، بل ربما اتخذ الشاعر من التفكر والتدبر في ملكوت الله في هذا الكون جانبا يصف فيه عظمة هذا الخالق، فالمبدع يستطيع إيصال رسالته بطرق عدة، كما لا يفوته أن ينظم هذا الشعر بفنية عالية وهذا ما وجدناه في أشعار أبي نواس الزهدية، ولأن البحث لم يكن مجالا لإثبات وجهات النظر في مثل هذه القضية لم نتطرق لها.

* عند دراسة أي أثر لشاعر ما يستحيل فصل هذا الأثر عن الشاعر، وشخصيته،وطبيعة حياته وهذا يجعل من البحث عملية ممتعة تغوص في أعماق الشاعر الإنسان بكل تقلباته ويلقي الضوء على جوانب شتى من شعره.

هذه جملة من النتائج التي توصلت إليها الدراسة، والتي آمل أن تكون حققت ما تصبو إليه من أهداف، فإن حققتها وإلا فحسبي أني طالبة علم أخطئ وأصيب، والحمد لله رب العالمين من قبل وبعد.

* وصلى الله على نبيّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه وسلم *

الفهارس

- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعـــــات.

ثبـت المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم** (جل منزله وعلا).

- الأزدي، معمـر بـن راشـد. (١٤٠٣هــ). **مجـامع معمـر بـن راشـد**. تحقيـق: حبيـب الأعظمي، بيروت: المكتب.
- الأصفهاني، أبو الفرج. (د. ت). **الأغاني**. تحقيق: سمير جابر، الطبعة الثانية، بيروت: دار الفكر.
- أمين، أحمد. (د. ت). **ضحى الإسلام**. ج١، ط٧، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. (د. ت). **الجامع الصحيح**. شرح: محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، نشره وراجعه: قضي محب الدين الخطيب، د. ط، القاهرة: المطبعة السلفية.
- البصير، كامل حسن. (١٩٨٧م). **بناء الصورة الفنية في البيان العربي**، د. ط، طبعة المجمع العراقي.
- التبريزي، يحيى بن علي. (١٩٦٤م). **شرح القصائد العشر للتبريزي**، حقق أصوله وضبطه وعلق على حواشيه: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٢، مصر: مكتبة السعادة.
- الترمذي، أبو عيسى محمد. (١٩٨٣م). **سنن الترمذي**. الجامع الصحيح. حققه: عبدالرحمن محمد عثمان، الجزء الرابع. الطبعة الثانية، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (١٩٤٠م). **الحيوان**، تحقيق: عبد السلام هارون، د. ط، مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- الجهني، زيد بن محمد بن غانم. (١٤٢٥هـ). **الصورة الفنية في المفضليات**. الطبعة الأولى، المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الإصدار رقم ٧٥.
- الجهيمان، عبدالله بن إبراهيم. (١٩٧٤م). **اتجاه الشعر الإسلامي في العصر العباسي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية.

- حـسن، أيـوب. (١٩٨٥م). **السلوك الاجتماعي في الإسلام**. ط٤، الكويت: دار البحوث العلمية.
- حسن، عبدالناصر. (٢٠٠٩م). **شعر أبي نواس**. مقال باليوم السابع.
- حسين، طه. (د. ت). **حديث الأربعاء**. د. ط، مصر: المطبعة التجارية الكبرى. مصر.
- الحشاني، أمينة عبدالله. (٢٠٠٦م). **الدراسات النقدية الحديثة عن أبي نواس**، د. ط، القاهرة: إصدارات مجلس الثقافة.
- الحنبلي، ابن رجب. (٢٠٠١م). **جامع العلوم والحكم**. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٧، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- خفاجي، محمد عبدالمنعم. (د. ت). **تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول**. د. ط، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث.
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. (١٩٨٨م). **تاريخ ابن خلدون**. تحقيق: خليل شحادة، الطبعة الثانية، بيروت: دار الفكر.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر. (د. ت). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، د. ط، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر.
- الداية، فايز. (١٩٩٦م). **جماليات الأسلوب (الصورة الفنية في الأدب العربي)**. الطبعة الثانية، دمشق: دار الفكر المعاصر.
- الدجوي، أحمد سعيد. (١٩٩٧م). **فتح الخلّاق في مكارم الأخلاق**. تحقيق: عبدالرحيم مارديني، ط٢، دمشق: دار المحبة.
- درويش، العربي حسن. (د. ت). **أبو نواس وقضية الحداثة في شعره**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) د. ت، د. ط.
- الدينوري، أبو محمد بن قتيبة. (١٤١٨هـ). **عيون الأخبار لابن قتيبة**. د. ط، بيروت: دار الكتب العلمية.
- **ديوان زياد الأعجم**. (١٩٨٣م). تحقيق: د. يوسف حسين بكار، الطبعة الأولى، الأردن: دار المسيرة.

- الرباعي، عبدالقادر. (١٩٩٠م). **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**. د. ط، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الزبيدي، صلاح مهدي. (٢٠٠٤م). **دراسات في الشعر العباسي**. ط١، الأردن: الأكاديميون للنشر والتوزيع.
- الزركلي، خير الدين. (١٩٨٠م). **الأعلام**. ط٥، بيروت: دار العلم للملايين.
- الزعيم، أحلام مظفر. (١٩٨١م). **أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد**. الطبعة الأولى، بيروت: دار العودة.
- زكية، يحياوي. (٢٠١١م). **الصورة الفنية في التجربة الرومانسية**. رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر: جامعة مولود معمري بتيزي وزو.
- الزهراني، محمد بن مسفر. (١٩٩٦م). **صور مشرقة من مكارم الأخلاق في الإسلام**، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة شمس المعارف.
- الزيات، أحمد حسن. (٢٠٠٩م). **تاريخ الأدب العربي**. ط١٣، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.
- أبو زيد، علي إبراهيم. (١٩٨٦م). **زهد المجّان في العصر العباسي**. بيروت: دار الثقافة للطباعة والنشر.
- زيدان، سليمان. (د. ت). **أثر الصورة الشعرية في تشكيل ثقافة الحب والكراهية**. ط٢، بيروت: دار النهضة العربية.
- السجستاني، أبو داوود سليمان بن الأشعث. (١٤٢٤هـ). **سنن أبي داوود**، حكم على أحاديثه: الألباني، اعتنى به: مشهور آل سلمان، د. ط، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.
- السحمراني، أسعد. (١٩٨٨م). **الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة**. الطبعة الأولى، بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر.
- سلام، محمد زغلول. (د. ت). **دراسات في الأدب العربي "العصر العباسي"**. د. ط، الإسكندرية: منشأة.

- الشامي، يحيى. (٢٠٠٢م). **أبو نواس والوجه الآخر**. الطبعة الأولى، بيروت: دار الفكر العربي.
- الشايب، أحمد. (١٩٩٤م). **أصول النقد الأدبي**. ط١٠، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- الشكعة، مصطفى. (١٩٧٩م). **الشعر والشعراء في العصر العباسي**. د. ط، بيروت: دار العلم للملايين.
- شلق، علي. (د. ت). **أبو نواس بين التخطي والالتزام**. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- صبيح، علي علي. (١٩٧٦م). **البناء الفني للصورة الأدبية عن ابن الرومي**. د. ط، القاهرة: مطبعة الأمانة. القاهرة.
- **صحيح مسلم بشرح النووي**. (١٩٢٩م). ط١، القاهرة: المطبعة المصرية بالأزهر.
- صدقي، عبدالرحمن. (١٩٤٤م). **أبو نواس: قصة حياته وشعره**. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- ضيف، شوقي. (د. ت). **في التراث والشعر واللغة**. د. ط، القاهرة: دار المعارف.
- ضيف، شوقي. (٢٠٠٨م). **تاريخ الأدب العربي**، ج٣، ط١٩، القاهرة: دار المعارف.
- طبارة، عفيف عبد الفتاح. (١٩٧٩م). **روح الدين الإسلامي**. ط١٩، بيروت: دار العلم للملايين.
- الطعمة، سلمان هادي. (١٩٨٧م). **أعلام الشعراء العباسيين**. ط١، بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- عبد الرحمن، منصور. (١٩٨٤م). **معايير الحكم الجمالى فى النقد الأدبى**. ط٢، القاهرة: مكتبة المعارف، القاهرة.
- العبد، عبداللطيف محمد. (١٩٨٥م). **الأخلاق في الإسلام**، ط٢، القاهرة: مكتبة دار العلوم.
- عبدالبارئ، ماهر شعبان. (٢٠١١م). **التذوق الأدبي: طبيعته- نظرياته- مقوماته- معاييره- قياسه**. ط٣. الأردن: دار الفكر. عمان.

- عبدالبـديع، لطفـي. (١٩٧٠م). **التركيب اللغوي للأدب**. ط١، القـاهرة: مكتبـة النهضة المصرية.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد. (١٩٤٠م). **العقد الفريد**. تحقيق: أحمد أمين وزملائه، د. ط، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.
- عثمان، عبد الكريم. (١٩٧٩م). **معالم الثقافة الإسلامية**، ط٣، الرياض: مؤسسة الأنوار للنشر والتوزيع.
- العزيـزي، روكـس بـن زائـد. (١٩٥٨م). **المنهل في تاريخ الأدب العربي**. ج١، د. ط، القدس.
- العـشماوي، محمـد زكـي. (١٩٨١م). **موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي**. د. ط، القاهرة: دار النهضة العربية.
- عصفور، جابر أحمد. (١٩٧٤م). **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**، د. ط، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر.
- عطوي، علي نجيب. (١٩٨١م). **شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة**. ط١، بيروت: المكتب الإسلامي.
- العقاد، عباس محمود. (د. ت). **أبو نواس الحسن بن هانئ**. د. ط، بيروت: المكتبة العصرية بيروت.
- غريب، جورج. (١٩٦٦م). **شعر اللهو والخمر تاريخه وأعلامه**. د. ط، بيروت: دار الثقافة.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. (د. ت). **إحياء علوم الدين**، ج٣، د. ط، القاهرة: دار الريان للتراث.
- الغزالي، محمد. (١٩٩٤م). **خلق المسلم**. ط٥، الإسكندرية: دار الدعوة.
- فروخ، عمر. (١٩٦٤م). **أبو نواس**. ط٢، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر.
- القرشي، أبو زيد. (١٩٨١م). **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**. تحقيق وضبط: علي محمد البجاوي، د. ط، القاهرة: نهضة مصر.

- القرضـــاوي، يوســـف. (٢٠٠١م). **ملامـح المجتمـع المسلم الـذي ننـشده**. د. ط، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر.
- القـط، عبـدالقادر. (١٩٧٥م). **في الـشعر الاسـلامي والأمـوي**. د. ط، بـيروت: دار اليقظة العربية للطباعة والنشر.
- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق. (١٩٦٣م). **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٣، مصر: مطبعة السعادة.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (د. ت). **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: مصطفى السيد محمد، ومحمد السيد رشاد، ومحمد فضل العجماوي، وعلي أحمد عبدالباقي، وحسن عباس قطب، د. ط، المملكة العربية السعودية: مؤسسة قرطبة.
- كروتشه، بندته. (١٩٦٤م). **المجمل في فلسفة الفن**. ترجمة: سامي الدروبي، ط٢، دمشق: دار الأوابد.
- ابن كلثوم، عمرو. (١٩٩٦م). **ديوان عمرو بن كلثوم**. جمع وتحقيق وشرح: د. إميل بديع يعقوب، ط٢، بيروت: دار الكتاب العربي.
- ابن ماجة، محمد بن يزيد. (د. ت). **سنن ابن ماجة**. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، د. ط، القاهرة: دار الريان للتراث.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن علي البصري. (١٩٨٦م). **أدب الدنيا والدين**. د. ط، بيروت: دار مكتبة الحياة.
- المرزباني، أبو عبدالله محمد بن عمران. (١٩٦٥م). **الموشح**. تحقيق: علي محمد البجاوي، د. ط، القاهرة: دار نهضة مصر.
- مسعود، عبدالمجيد. (١٩٩٨م). **القيم الإسلامية والمجتمع المعاصر**. الطبعة الأولى، الدوحة: وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- ابن المعتز، عبدالله بن محمد. (د. ت). **طبقات الشعراء**. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار المعارف.
- المقدسي، أنيس. (١٩٨٩م). **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ط١٧، بيروت: دار العلم للملايين. بيروت.

- مندور، محمد. (١٩٧١م). **الأدب وفنونه**. د. ط، القاهرة: مكتبة نهضة مصر.
- ابن منظور المصري. (د. ت). **أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه**. د.ط، بيروت: دار الجيل.
- المهزمي، أبو هفّان عبدالله بن أحمد. (د. ت). أخبار أبي نواس. تحقيق: عبدالستار أحمد فرّاج، د. ط، القاهرة: مكتبة مصر.
- موسى، داليا أحمد. (٢٠١٠م). **الإحالة في شعر أدونيس**. الطبعة الأولى، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.
- ابن النحاس، أبو جعفر. (١٩٧٣م). **شرح القصائد التسع المشهورات**، تحقيق: أحمد خطاب، د. ط، بغداد: دار الحرية للطباعة، مطبعة الحكومة.
- النويهي، محمد. (١٩٧٠م). **نفسية أبي نواس**. ط٢، القاهرة: مطبعة الخانجي.
- نيكلسن، رينولد. (١٩٦٤م). **تاريخ الأدب العباسي**. ترجمة وتحقيق: صفا خلوصي، د. ط، الكويت: المكتبة الأهلية.
- ابن هانئ، الحسن. (١٩٥٨م). **ديوان أبي نواس**، رواية حمزة الأصفهاني، تحقيق: إيفالد فاغنر، د. ط. فيسبادن والقاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ابن هانئ، الحسن. (٢٠٠٧م). **ديوان أبي نواس**. تحقيق: أحمد عبدالمجيد الغزالي، د. ط، بيروت: دار الكتاب العربي.
- هدارة، محمد مصطفى. (١٩٨٨م). **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني عشر**، الطبعة الأولى، بيروت: دار العلوم العربية.
- يوسف، خليف. (د. ت). **تاريخ الشعر في العصر العباسي**، د. ط، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر.

فهرس الموضوعات